مشاهدات سائح في الممالك الأوروبية

عبد الوهاب أبو العيون

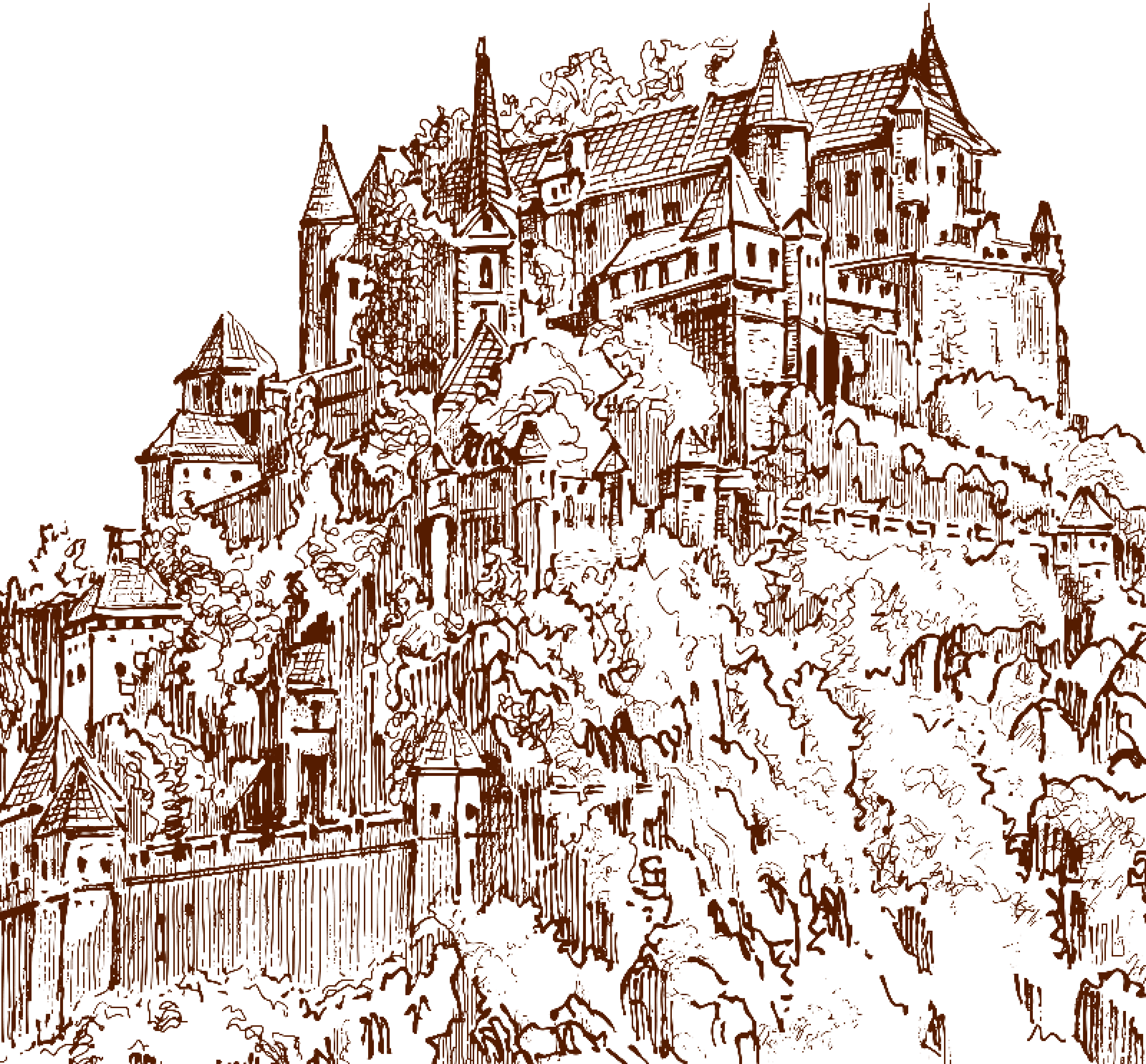

مشاهدات سائح في الممالك الأوروبية

تأليف
عبد الوهاب أبو العيون

هنداوي

مشاهدات سائح في الممالك الأوروبية

عبد الوهاب أبو العيون

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: **hindawi@hindawi.org**
الموقع الإلكتروني: **https://www.hindawi.org**

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٢٦٥ ٣

صدر هذا الكتاب عام ١٩٢١
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١

جميع الحقوق الخاصة بتصميم هذا الكتاب وصورة الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف-غير تجاري-منع الاشتقاق، الإصدار ٤٫٠. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Copyright © 2021 Hindawi Foundation.
All rights related to design and cover artwork of this work are licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License. All other rights related to this work are in the public domain.
https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

المحتويات

المقدمة	٧
إهداء الكتاب	٩
إرشادات هامة	١٣
في الباخرة	١٧
مدينة نابلي	٢١
مدينة بومبي	٢٩
من نابلي إلى رومة	٣٧
من رومة إلى فلورنس	٦٥
من فلورنس إلى ميلانو	٧٧
من ميلانو إلى سويسرا	٨٥
من لوزان إلى جنيف	٩٩
من جنيف إلى باريس	١٠٥
من باريس إلى لندن	١٣٩
في العودة إلى باريس	١٧٥
من باريس إلى مرسيليا وجنوة	١٧٩
من جنوة إلى نابلي	١٨٩
من نابلي إلى قطانيا	١٩٥
من قطانيا إلى الإسكندرية	٢٠١

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فقد دعاني حبُّ الاستطلاع إلى زيارة أهم ممالك أوروبا لمشاهدة ما فيها من المحاسن، وبعد عودتي إلى الوطن العزيز وصفت كلَّ ما شاهدت من آداب وأخلاق وعادات ومتاحف وآثار ومعارض، وكل ما ينبغي لسائح أن يطَّلع عليه، ونشرت تلك المشاهدات في صحيفة الأهرام الغراء تباعًا، فحازت لدى الجمهور رضاءً وإقبالًا، وألحَّ عليَّ كثير من القراء راجين جمعها في كتاب ليعم نفعها وتكثر فائدتها، فلم يسعني إلا إجابة ملتمسِهم وتحقيق رجائهم. وقد بدأتها بإرشادات هامة رأيت الحاجة إليها داعية لكلِّ من يريد الرحيل إلى تلك الديار حتى تخف عنه مصاعب السفر.

هذا، ولا يفوتني أن أذكر بالثناء الجم والشكر العاطر ما لقيته من حضرة صديقي وزميلي الأستاذ علي أفندي فهمي الرشيدي من جميل المرافقة وعظيم المساعدة أثناء هذه الرحلة.

والله أسأل أن يعمَّ النفع بهذه المشاهدات، ويفيض عليها من القبول ما يحقق غرضي منها! وهو حسبنا ونعم الوكيل.

عبد الوهاب أبو العيون

إهداء الكتاب

مولاي حضرة صاحب الجلالة مليك مصر المعظم فؤاد الأول، زاده الله جلالًا وإقبالًا!

في زمنك الزاهر الذي أينعت فيه ثمارُ العلم وامتد ظله وتدانت قطوفه، فانجاب ظلام الجهل وانبلج ضياء العرفان ونهل من مورده كلُّ صادٍ، وتطلعت أنظار المجدين إلى الوقوف على أحوال الأمم المتمدينة الراقية حتى تتشبع النفوس بما عندهم من محاسن وأخلاق وعادات؛ كنتُ من بين الذين تطلعت أنظارهم إلى ورود ذلك المنهل العذب، فأخذتُ عن القوم ما عرفته عنهم حسًّا ومعنًى، ونقلت إلى أبناء وطني الأعزاء ما يحملهم إلى بذل الغاية القصوى في التجمُّل بتلك الأخلاق والعادات.

هذا يا مولاي ما أردت أن أقدِّمه بين يدي جلالتكم، وأرفعه إلى سدتكم العلية، في وقتٍ شيَّدتَ فيه صرح العلم، وأعليتَ مَناره، وعقدتَ ألويته فوق رءوس أبنائك، وذلَّلتَ لهم ما وقف أمامهم حجرَ عثرة زمنًا طويلًا.

فإليك يا صاحب الجلالة، ويا دوحة الأسرة المحمدية العلوية، أستشرف بذلك الكتاب الذي أتوِّجه باسمك الكريم، وأحلِّي طروسه برسمك الشريف، وأشرِّفه بالنسبة إليك.

ولي الفخر الدائم والشرف الأثيل أن ينال من لدن جلالتكم رعايةً ويحوز لديكم قبولًا.

أطال الله مدَّتك، وأتم عليك نعمتك، وأقرَّ عينك بولي عهدك الفاروق، وأطلعه غرة في جبين الدهر، وجعله لسان صدق في الآخرين!

عبدكم الخاضع

عبد الوهاب أبو العيون

حضرة صاحب الجلالة مولانا ملك مصر المعظَّم «فؤاد الأول».

إرشادات هامة

الأمور الهامة التي يعدها المسافر قبل سفره هي:

(١) الحصول على جواز السفر من قلم الأَجْوِزة بمدينة القاهرة أو الإسكندرية أو بورسعيد أو السويس، وفي هذه المحال استئمارات خاصة لذلك، يملأ المسافر خاناتها باسمه واسم والده وعمره ومحل سكنه وغرضه من السفر، ثم يمهرها من المأمور إن كان من الأهالي أو يحضر شهادة من المصلحة التابع لها إن كان موظفًا. وتُقدَّم هذه الاستئمارة بعد تمام الإجراءات المتقدم ذكرها.

(٢) يرسم صورته الشمسية صغيرة ويرفقها بالطلب. وبعد إجراء التحريات اللازمة للتثبُّت من صحة ما جاء بالاستئمارة المتقدم ذكرها، يُؤمَر بترك طلبه مدة معينة ثم يرجع لاستلامه بعد مضيها، فيُسلَّم له الجواز بعد أن يدفع الرسم المعيَّن.

(٣) إذا أردت أن تزور ممالك عدة يلزم أن يكون على جوازك تواقيع من ممثلي (قناصل) الدول التي تريد زيارتها، وتدفع لذلك رسمًا يختلف باختلاف الممالك. وإذا لم تفعل ذلك فلا يُسمَح لك بزيارة المملكة إلا إذا استعنت بممثل (قنصل) مصري، كما حصل لي ذلك عندما أردت زيارة مملكة إنكلترا، فإنه لم يكن قد توقع على جوازي من ممثل إنكلترا في مصر، ولذا امتنع ممثل إنكلترا في باريس عن السماح لي بزيارتها، فالتجأت إلى ممثل مصر فيها فوقَّع عليه بما يفيد السماح لي، فلما قدَّمته إلى ممثل إنكلترا لم يتردد في قبوله. وكلما مررت بمملكة من الممالك طلبوا منك جوازك ليقفوا على صحة ما فيه حتى يسمحوا لك بدخول مملكتهم.

(٤) عند تمام جميع الإجراءات اقصد شركات طرق الملاحة بالقاهرة أو الإسكندرية أو بورسعيد أو السويس لتعلم منها مواعيد قيام البواخر، فتختار اليوم المناسب لسفرك

وتحجز حجرة في المكان الذي تختاره من الباخرة بعد عرض أمكنتها عليك في خارطة، ويُستحسن أن يكون ذلك قبل سفرك بخمسة عشر يومًا.

(٥) وإذا أردت أن تقف على معلومات تهمك، فعليك بمحل شركة كوك فهو الكفيل بإرشادك.

(٦) لا يَحسُن بك أن تحمل معك نقودًا لأنها تعرض للخطر والحوادث، ولذا يلزمك أن تأخذ تحويلًا معك بالجنيهات الإنكليزية على المصارف في كل مدينة حللت بها حتى تصرف ما تريده بالقطع الحاضر مثمَّنًا بالجنيه الإنكليزي، فهو عملة ثابتة القيمة متداولة في كل مملكة.

(٧) قبل اليوم الذي تقصد السفر فيه اذهب إلى محل الشركة التي تريد السفر في سفنها، فيسلموك أوراقًا مكتوبًا عليها اسم أول مدينة تريد النزول بها من أي مملكة، فتلصقها بكل حقيبة من حقائبك.

(٨) إذا كنت موظفًا في مصلحة من مصالح الحكومة يلزمك أن تستخرج منها شهادتين بأنك من مستخدميها؛ شهادةً للذهاب وأخرى للإياب، وبذلك يمكنك أن تنتفع من بعض شركات الملاحة بتنزيل ٢٠٪ أو أكثر من أجرة السفر ذهابًا وإيابًا، فتخف عنك أجرة السفر الباهظة.

(٩) إذا ركبت القطار من محطة مصر إلى الإسكندرية يمر بك شخص من مستخدمي كوك، ويعرض عليك أن يستلم أمتعتك عند نزولك من القطار إلى الباخرة، فإذا ما قبِلت ذلك — ويُستحسَن منك أن تقبل — تدفع له عن كل حقيبة مبلغًا يقدِّره لك ويعطيك ورقة به تبرزها عند وصولك المكس، وهناك تجد حمَّالين قد كُتِب على صدورهم اسم كوك فتنادي أي واحد منهم فيُقبِل عليك، فإذا أظهرت له تلك الورقة أخذ جميع أمتعتك وعمل كل ما يلزم في المكس وحمل الأمتعة إلى سلم الباخرة، فتعطي له رضيخة (بقشيشًا)، ثم يتسلَّم منه خادم الباخرة ويعرف منك رقم حجرتك فيحمل أمتعتك إليها. وبعد أن تدخل الباخرة تذهب إلى رجلٍ فيها قد اجتمع عليه الناس لتقديم أَجْوِزتهم إليه فتقدم إليه الجواز، وبعد يوم أو أقل يرده إليك موقَّعًا عليه منه.

(١٠) تجد عند دخولك إلى الباخرة قومًا يبيعون نقودًا أجنبية، فتشتري بالعملة المصرية نقود المملكة التي ستذهب إليها كما اشترينا نقودًا إيطالية؛ لأن المعاملة بالباخرة والمدن التي تمر بها لا تكون إلا بها حيث الذهاب إلى إيطاليا.

(١١) عليك تأجير كرسي طويل بمجرد نزولك إلى الباخرة يُكتَب عليه اسمك، فيكون الموئل لك طول اليوم وجل الليل تجلس عليه عند قراءتك وراحتك. وهذا هو أهم ما يعمله المسافر قبل مبارحة الميناء حتى تكون قد هيأت ما ينبغي لراحتك.

(١٢) إياك إن كنت تريد زيارة عدة ممالك أن تبقي معك شيئًا من نقود المملكة التي تريد الخروج منها إلى غيرها، فإنها لا تُقبَل في المملكة الأخرى إلا إذا بعتها بثمنٍ بخس، لا سيما إن كانت من المعدن.

(١٣) يلزم المسافر أن يصحب معه ملابس سميكة ومعطف (بالطو)، لأن الجو في بعض الممالك بارد كأيام الشتاء عندنا، خصوصًا في مملكة إنكلترا؛ ولذا لا تجد شخصًا فيها يلبس ملابس بيضاء صيفًا، كما أنه يأخذ معه معطفًا يقيه شر المطر.

(١٤) إذا نزلت من القطار وسلمت للحمَّال أمتعتك فاتبعه، لأن رقمه لا يكفي دليلًا عليه إذا فر منك، لأن الرقم ربما كان مزيفًا فتضيع حقائبك وما فيها، وترضى من الغنيمة بالإياب إن كنت سعيدًا وإلا فالشقاء.

في الباخرة

قصدتُ قضاء العطلة الصيفية في مرابع أوروبا لمشاهدة متاحفها وآثارها وزيارة معاهدها العلمية بقدر ما تسمح الظروف والأحوال.

وقد اعتزمت أن أدوِّن مذكرات مختصرة عن أهم ما أراه في تلك الممالك أثناء سياحتي، حتى لا أحرم أبناء وطني من الاطلاع على ما يهمهم الاطلاع عليه، مقتصرًا على مشاهداتي غير متعرض لذكر تاريخها.

أقلعت بنا الباخرة من الإسكندرية الساعة الثالثة مساء، فوصلنا إلى «سرقسطة» بجزيرة صقلية في اليوم الثالث لإقلاعها، فألقت مراسيها على بعد مائة متر تقريبًا من الشاطئ لضخامتها، ثم جعلت الزوارق تحف بنا لنقل من يرغب في النزول إلى المدينة، وكنت ممن يرغب في زيارة آثارها فدفعت أربعين «ليرة» إيطالية أجرة الركوب والمترجم ذهابًا وجيئة، فعبرنا بقية الميناء إلى الشاطئ في أحد الزوارق. وحين نزولنا تسلَّم منَّا رجل إيصالًا بما دفعنا من الأجرة، وركبنا عجلة أقلتنا إلى أهم أثر في المدينة، وهو جبل ضخم صخري حُفِر داخله إلى مسافة بعيدة تربو على مائة متر بعلوٍّ يختلف ما بين عشرين إلى ثلاثين مترًا تقريبًا، وهو أملس من الداخل، وكلما أوغلت فيه أظلم حتى لا تكاد تبصر شيئًا. وقد حفره الرومان القدماء قبل المسيح ليكون سجنًا لأشد الناس إجرامًا. وقد سألت عن كوة في أعلاه ينفذ منها خيط ضئيل من النور إلى داخله، فقيل لي إن الحارس كان يتسمع منها حديث المسجونين فيعرف نوع الحديث والمتحدثين، فيوقع الجزاء الصارم على كلِّ من يتحدث حديثًا محظورًا لا يتفق مع رغبة الحاكم، ولذا كان يخشى المسجون أن يتحدث إلى صاحبه أي حديث.

ومن مدهشات هذا الأثر أنك إذا دخلته ومزقت أي ورقة تردد صوتها بدوي مزعج. وقد سمعت من بعض المتحدثين أن الإنسان إذا واجه الحائط وتكلم همسًا يُسمَع صوته عاليًا على بُعْد مائة متر. وحدث أنه حين خروجنا سمعنا دويًّا هائلًا وفرقعة مزعجة اضطرب لها كل السائحين، فنظرنا فإذا الحارس يغلق الباب ليعرِّف السائحين أعجوبة من أعاجيب هذا الأثر.

وهذا الحفر غاية في الفخامة والعظمة يهولك منظره من الداخل والخارج، وتراه مكسوًّا بالحشائش الخضراء التي أكسبته رونقًا وجمالًا. وتعلوه دار قديمة جدًّا للتمثيل القديم مقاعدها المدرَّجة منحوتة في الجبل صفوفًا بعضها فوق بعض على شكل دائرة، ينتهي من أسفله بمقاعد وحُجَر صغيرة أُعِدَّت للقائمين بالتمثيل. وهو غاية في الإبداع والإتقان، يُدخِل في قلب الناظر روعة وجلالًا. ثم سرنا بعد ذلك إلى مشاهدة الأنفتياترو «المدرج»، وهو أيضًا منحوت في الصخر على هيئة المدرج الأول، غير أنه يختلف عنه في أن مقاعده تحيط بردهة واسعة.

وقد أخذني العجب لقيام الإنسان في الزمن القديم بهذه الأعمال الجسيمة مع عدم توافر الآلات التي تساعده على القيام بذلك.

وإذا ضاهيت أعمال المصريين القدماء والرومانيين القدماء أيضًا، وجدتَ مدنية الأمتين على جانب عظيم من العظمة والفخامة الدالتين على العلم الواسع والمقدرة الفائقة. ويُظَن أنه كان لهم آلات عجيبة سهَّلت لهم القيام بهذه الأعمال التي يقف الإنسان أمامها حائرًا مذهولًا. وهذه الآلات التي حفرت الجبال وجوَّفتها، وحدَّدت المسلات الهائلة من الصخور وأقامتها، ونقشت على سطوحها الكتابة والرسوم وزيَّنتها؛ لم تصل إلينا أخبارها، إما لأن المؤرخين لم يقيدوها، أو أنهم قيدوها ولكن أبادتها الحوادث وأهملتها الأيام وجر عليها الدهر ذيول النسيان، وبقيت بعض أعمالهم وآلاتهم العظيمة مجهولة، وربما كشفتها الأيام القادمة كما كشفت كثيرًا من أعمال المصريين القدماء وأبرزها الاستكشاف شيئًا فشيئًا.

رجعنا إلى الباخرة بعد زيارة مدينة «سرقسطة» فأقلعت بنا قاصدة مدينة «نابلي»، وسارت تشق عباب البحر غير مكترثة بأمواجه الهائلة، إلى أن وافت الساعة السادسة والنصف مساءً فظهر لنا من بُعْد بركان «أتنة»، ولكوني لم أشاهد بُركانًا قبل الآن، والمصوَّرات الجغرافية لا تبرز صورة صحيحة؛ ذُهِلت لرؤية ذلك البركان، وأمسيت واقفًا

أمامه صامتًا كالعابد لا أحوِّل عنه نظري لحظة، أتأمل فيه وفي قدرة الخالق القدير الذي يُخرِج من جوف البحار نارًا ولهبًا.

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه الواحد

وكلما قربت منه ازداد ضخامةً وارتفاعًا، وتبينت دخانه المتصاعد الذي لا ينقطع أبدًا، وما زلت أشاهد عظمته وضخامته حتى أسدل الظلام بيننا وبينه حجابًا كثيفًا. ومرَّت السفينة بسرعة الظليم حتى أشرفت على مدينتَي رجيو ومسينا إذ كانت الساعة الثامنة مساء، ولقد بهرني منظرهما بهرًا، ذلك لأنوارهما الساطعة التي تشق الظلام، إلى شوارعهما التي كأنها أسلاك من نور ممتدة إلى مسافات طويلة، مرصعة بأجزاء سوداء هي المنازل مجلَّلة بالأضواء فكان شكلها رائعًا. والمدينتان مشيدتان على سفحَي جبلين يكتنفان المضيق رجيو من اليمين ومسينا من اليسار، تتدرج منازلهما من أسفل الجبل إلى أعلاه. كما أكسبهما روعة وجمالًا وزادهما بهاءً نظام شوارعهما المستطيلة المتوازية الصاعدة من أسفل الجبل إلى أعلاه. وعلى الجملة فإن الكاتب القدير يعجز عن وصف تينك المدينتين ونظامهما وجمال وضعهما واتساع شوارعهما. وقد تساءلت: كيف أمن الناس غائلة هذا البركان فأعادوا تشييد هاتين المدينتين بنظام حديث وترتيب بديع؟! وكيف أمنوا ثَوَرانه مرة أخرى فيكون نصيبهم منه أخيرًا نصيبهم منه أولًا؟! مرت بنا السفينة سراعًا وقد أخذ العجب مأخذه من قلوبنا لعظمة البركان وجمال مدينتيه، ونمنا هذه الليلة ملء الجفون. وفي الساعة الخامسة صباحًا تيقظت على صياح الرفاق وضجيجهم فرحًا وسرورًا، لظهور الباخرة بين رأس «إسبرنتو» وجزيرة «كايري» الجميلة، والتي يعدها السياح جنة الدنيا لما تحويه من الفنادق البديعة التي يقصدها المصطافون والحدائق الغناء التي تحيط بمنازلها الحسناء الشاهقة. ومع أن سكانها قليلون فقد هيئوا فيها أسباب الراحة والهناء لكل مصطاف يقصدها. وبها مغارة تُسمَّى المغارة الزرقاء لزرقة مياهها، ولأن المنغمس فيها يراه الناظر أزرق كالفيروز، ويسير الناس فيها بالزوارق، ويبلغ طول تلك المغارة نحو ١٧٥ قدمًا، وعرضها يبلغ نحو عشرة أقدام، وارتفاع سقفها فوق رءوس السائرين لا يزيد عن أربعة أقدام.

وتظهر جزيرة «كايري» من بُعْد كأنها قاحلة، ولكنك إذا دخلتها ألفيتها جنة عالية قطوفها دانية، آهلة بالسكان، عامرة بالمصطافين والمتفرجين.

ثم ظهر لنا بركان «فيزوف» العظيم حين دخول السفينة خليج «نابلي»، وسنذكره بعدُ عند زيارتنا مدينة «بُومْبي». وفي الساعة السابعة صباحًا ألقت الباخرة مراسيها، فأسرع مندوبو الفنادق إلى الركاب صائحين كلٌّ باسم فندقه، فاخترنا النزول في فندق «ريفييرا»، ولذا سرنا مع مندوبها إلى مكتب التفتيش حيث فُتِّشت حقائبنا، ثم ركبنا سيارة إلى الفندق الذي قصدنا إليه فوجدناه فندقًا جميلًا يشرف على متنزه واسع مستطيل جدًّا، وممتد إلى شاطئ البحر تزينه الأشجار الباسقة والأزهار النضرة، وقد أُقِيمت على أبوابه الكثيرة عدة تماثيل مختلفة الأشكال غاية في الإبداع والإتقان، وبه طرق معبَّدة وملاهٍ متعددة يقصدها الناس زَرَافات ووُحدانًا، ولا يخلو المتنزه من الزائرين أكثر الليل.

مدينة نابلي

مدينة «نابلي» من أعظم مدن إيطاليا المعروفة بجمالها وبهائها وفخامة مبانيها وجودة هوائها وعذوبة مائها وكثرة غرائبها، تحفُّ بميناها العجيبة عدة عمائر ومبانٍ غاية في الإتقان والهندام، وتتصل هذه المباني العظيمة بالمباني المشيدة على سفوح الجبال والتلال حتى تصل إلى قمتها، وهي غاصَّة بالحدائق البديعة والخمائل العجيبة، فترى المنازل بحدائقها من بُعد قد رُصَّت بعضها فوق بعض بحالةٍ تقيِّد الأنظار وتحيِّر الأفكار. وأغلب شوارعها يبتدئ من أسفل التلال، والجبال صاعدة إلى أعلاها، فيعسر عليك الصعود إلى مبانيها المشيدة فوق روابيها، فتستعين ب «الترام» الذي يصعد مستعينًا بالأتراس والسلاسل التي تمنع انحداره، وهنالك تتجلى لك مناظر ضواحيها ومزارعها ومبانيها فتتقف مشرفًا عليها باهتًا لحسن منظرها وجمال موقعها. وعلى الجملة فإن «نابلي» تُعد من المدن الكثيرة المشاهد والمتاحف والغرائب، فلا يمل السائح الإقامة فيها ويمكنه أن يقضي وقتًا طيبًا وعيشًا هنيئًا.

وشوارع المدينة إذا قيست بشوارع بعض مدن أوروبا تجدها متوسطة لكثرة الحركة والزحام والبيع والشراء، وحوانيتها غاصَّة بالسلع الرخيصة في جميع شوارعها. وأهم تلك الشوارع شارع «رومة» وهو يخترق المدينة من الشمال إلى الجنوب، ويمتد حتى تصل نهايته إلى البحر، ونهايته الأخرى تصل إلى الجهات العالية من التلال والجبال، والحركة فيه كثيرة مستمرة طول اليوم.

وفي المدينة ميادين كثيرة، أشهرها ميدان كافور بالقرب من المتحف العظيم الذي هو من أحسن متاحف إيطاليا.

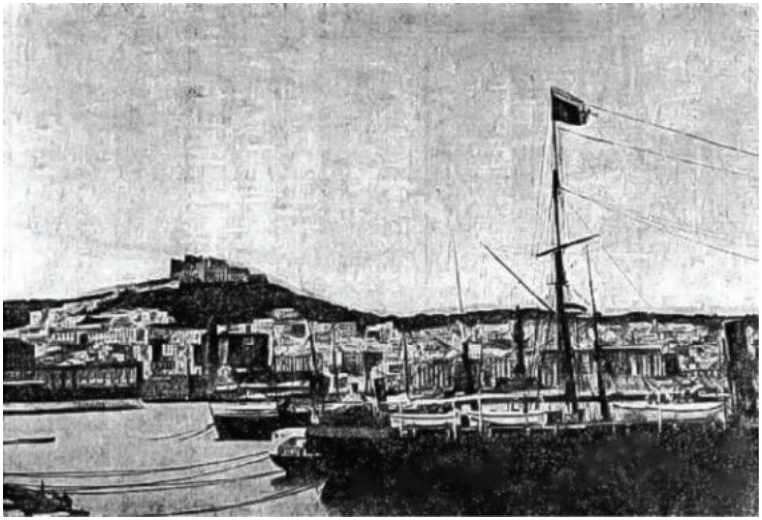

ميناء نابلي.

(١) أهم مشاهد نابلي ومتاحفها

شوارع نابلي كثيرة الزحام والحركة والبيع والشراء والأخذ والعطاء، تموج بالذاهبين والآيبين، ولو رأيتها يوم الأحد وهي تكتظ بالناس لظننت أهلها يحتفلون بمقدم فاتح عظيم، فهي أكثر بلاد إيطاليا حركة وازدحامًا.

وقد أخبرني من له معرفة بإحصاء سكانها أن كل شخص منهم يصيبه متر ونصف متر من أرضها، ولذا ترى مركباتها الكهربائية مزدحمة بالراكبين الجالسين والواقفين، وما ركبت من محطة إلا رأيتها مزدحمة ازدحامًا يضطرني إلى الوقوف في أي وقت من النهار أو الليل. وأجور تلك المركبات ترتفع ليلًا، وكل راكب تُقدَّم أجرته بدون طلب من العامل غير محاول الخلاص من دفع الأجرة أو متهرب منها كما شاهدت عكس ذلك في مصر كثيرًا، وهذا خُلُق فينا تجب محاربته فيعرف كلٌّ واجبه وتسير الأعمال على محور النظام.

وقد ذكَّرني ذكرُ معرفة الواجب ما سمعته وأنا في مملكة سويسرة، أن أهلها يحتفلون بمحكمة من محاكمها مضى عليها خمس وعشرون سنة لم يُحكَم فيها في جناية. وسنذكر أمانة أهل سويسرة ومعرفتهم الواجب عند الكلام عليها.

وتكثر في مدينة نابلي العجلات المظلَّلة بالمظلات الجميلة لدرء حرارة الشمس والأمطار، لأن جوها يشبه تمام المشابهة جو مصر.

ولذا نجد المرطبات منتشرة في جميع نواحيها، ولقد طلبت مرة كوبًا من شراب الليمون من أحد الباعة فملأ كوبًا ماءً باردًا من صنبور دائم الجريان وعصر فيه ليمونة وقدمه إليَّ، فلم أقدر على تعاطيه لخلوه من السكر فدفعت له ثمنه وانصرفت.

وماء نابلي بارد جدًّا لأنه يأتي من مجارٍ تسيل من الجبال فتجري في الأنابيب المعدة لذلك إلى المنازل، فهي أعذب بلاد إيطاليا ماءً.

لم أرَ في أخلاق أهل نابلي سوءًا كما قرأت وسمعت عنهم كثيرًا من الغلظة والفظاظة والشدة في المعاملة، والتضييق على السائحين، والاستبداد في أجر الركوب والنقل. وقد سألت عن سبب تغير الحال فقيل لي إن حكم موسوليني ضيَّق على المجرمين والنشالين، وأوقع بهم العقاب الصارم، وزجَّ أغلبهم في السجون ولم تأخذه فيهم رحمة ولا شفقة، قد وقف لهم الشرطة بالمرصاد يسوقونهم إلى المحاكم ويعاقبونهم على أخف هفوة تصدر منهم، فتغير الحال وتحسن وأمن الناس على جيوبهم وحقائبهم. ومع انتشار الشرطي الفاشيستي في كل دُور الحكومة والمحطات، لا تخلو مكاتب التفتيش (الجمارك) وغيرها من الرشوة واغتنام الفرص لأخذها، فهم أكثر أهل أوروبا استعدادًا لها، فلم يقلع الحكم الفاشيستي من نفوسهم جذور الفوضى والإخلال في الأعمال والاضطراب فيها. وإنك لتتصور تلك الفوضى في أعمال البرق (التلغراف) من المقال الآتي:

> لما أبحر صاحب المعالي ذو الفقار باشا سفير مصر إلى رومة، أرسل برقية من الإسكندرية إلى قنصل نابلي لينتظره على ميناها، فلم تصل البرقية إلا بعد نزول معاليه في نابلي واستلمها هو بنفسه! ولذا لم يجد أحدًا في انتظاره.

وهذا ما قصَّه عليَّ حضرة محمود بك عبده قنصل مصر في نابلي. كما أن البريد يصل متأخرًا عن ميعاده. وأمثال ذلك كثيرة.

(٢) قصر الملك

هو من أجمل قصور إيطاليا الملكية بعد قصر رومة، مزين من الخارج بتماثيل ثمانية من أشهر ملوك إيطاليا داخلة في الحيطان، مصنوعة من المرمر، بملابسهم الرسمية التي كانت تُستعمَل في أزمنتهم المختلفة، بحالة تدل على براعة المصورين الإيطاليين. وتشعر هيئة

كل منها بما كان يتصف به الملك من حُسن خُلق وبشاشة وتواضع، أو حرب وشجاعة، أو كِبر وصلَف، أو حب للرعية أو بغض لها ... إلى غير ذلك من المعاني والإشارات الرمزية.

القصر الملكي بنابلي.

وقد رأيت داخل القصر ما أدهشني: رأيت صور وتماثيل ملوك الثمانمائة سنة الذين حكموا هذا البلد، وصورًا تاريخية رمزية تدل على حروبهم ومعاركهم وانتصاراتهم ووقائعهم، وكثيرًا مما كان يتصف به هؤلاء الملوك من العظمة والأبهة. وقد أرانا الدليل ردهة الرقص البديعة التي كانت تقام فيها المراقص للملك داخل قصره مموَّهة بالذهب ومحلًّى سقفها بصور الراقصات في أبهى حالة. يبلغ طول تلك الردهة خمسة وعشرين مترًا تقريبًا في مثلها عرضًا. ورأيت حجرة الملك التي كان يقابل فيها الوزراء غاية في الإبداع والإتقان والزخرفة والرسوم وأشكال الزينة، وفي صدرها عرش الملك مفخَّم مكسوٌّ جميعه بالمخمل الأحمر. كما أن حجرة انتظار الوزراء لا تقل قيمة وفخامة وعظمة عن حجرة الملك، مما يدل على قوة الملك وشوكته. وقد مررت بنحو ثلاثين حجرة كلها آية في الإبداع والزخرفة، مرصوفة أرضها إما بالخشب البديع أو الرخام الأبيض، محلَّاة بالصور التاريخية وكثير من هدايا الملوك والتحف والنفائس، وكل ردهاته الواسعة مفروشة بالمرمر والرخام الجميل. وعلى الجملة فإنه من أبدع القصور التي رأيتها، ومهما بالغ الإنسان

في الوصف فإنه لا يقرب القارئ من الحقيقة إلا شيئًا يسيرًا وليس الخبر كالعيان. وقد تجلى لي من زيارة القصور الكبيرة جبروت الملوك واستبدادهم بأموال الأمة وصرفها على ملاذِّهم وشهواتهم وإشباع نفوسهم مما تميل إليه، وهذا ما دفع الشعب إلى الانتقام منهم والانقلاب عليهم والغدر بهم، وإلى فكرة الاشتراكية والشيوعية التي انتشرت وراجت في أغلب الممالك.

وأمام هذا القصر ميدان واسع، وقد شُيِّد في الجهة المقابلة له كنيسة كبيرة أمامها تمثالان يمتطيان جوادين على قاعدتين عاليتين من الحجر، يبعد كل منهما عن الآخر بمسافة تُقدَّر بنحو عشرين مترًا. وتُمثَّل في ناحية من هذا الميدان الروايات الهزلية ليلًا في قهوة من قهواته طلقة الهواء يتجمع داخلها وحولها كثير من الناس لرؤية الممثلين الهزليين، الذين يجيدون تمثيل الهزل بأحسن أنواعه مما يضحك المشاهدين ضحكًا عاليًا.

وبجوار هذا القصر مسرح «سان كارلو» وهو من أعظم مسارح إيطاليا، لكنه يُعطَّل صيفًا فلم نتمكن من رؤية داخله. ومما يلفت النظر متحف نابلي العظيم الذي يقصده كثير من الناس لمشاهدة ما به من التماثيل والنقوش البديعة والحُجَر الكثيرة، التي مُلِئت بالنقوش على الأحجار والتماثيل الرخامية والصور الزيتية التي لا تُعَد ولا تُحصَى مما يعجز الكاتب القدير عن وصفها. وهو من أحسن متاحف إيطاليا، نُقِلت إليه آثار مدينة بومبي فشغلت منه جزءًا كبيرًا.

ومما زرته في هذه المدينة حديقة الأسماك، وفيها أمواه داخل ألواح زجاجية جُمِعت فيها أغرب أنواع الأسماك، فمنها ما يقرب شكله من الطير، ومنها ما يماثل الأحجار أو الأزهار، بعضها ينقبض وبعضها ينبسط، وكلها في حياض من البلور يتجدد ماؤها من وقت لآخر. وقد رأيت فيه السمك الكهربائي الذي إذا مسه المرء شعر بقوة كهربائية ينتفض لها جسمه. وعلمت أن بعض الحكومات الأجنبية تدفع لحكومة إيطاليا إعانة تنشيطًا لجمع ما يمكن جمعه من الجزر والخلجان.

ومما هو غريب المنظر في هذه الأسماك نوع ينضم بعضه إلى بعض ويسبح في الماء حتى يدخل في أنبوبة زجاجية من أسفلها، ومتى ظهر على سطحها انبسط على هيئة وردة حمراء، ثم ينقبض ويسبح في الماء ويدخل في الأنبوبة، ومتى وصل إلى سطحها انبسط وردة صفراء. وهكذا تجري هذه العملية مرارًا وتكرارًا مما يبهر الإنسان فيقف أمامه باهتًا حائرًا، ولا يتسنى له الحكم عليه أهو حيوان أم نبات. وهذا المعرض من الأسماك يقل نظيره في ممالك العالم.

داخل مسرح سان كارلو بنابلي.

ومن العمارات التي انفردت بها إيطاليا في أكثر مدنها ما يُسمَّى عند أهلها بـ «الجلاريا»، وهي تظهر للناظر كأنها معبد ديني عظيم لضخامة التماثيل المقامة في أعالي أبوابها الأربعة، وهذه الأبواب كشوارع تتقاطع على شكل صليب مسقوفة بالزجاج، وعلى نقطة ملتقاها قبة عالية من الزجاج. وتُرَى داخل الجلاريا القهوات والحوانيت الخاصة بالسلع الغالية الثمن والمجوهرات الغريبة ومحال التمثيل والخيالة «السينما». وأرضها مرصوفة بالرخام الأبيض، يزدحم ازدحامًا شديدًا وقت العصر بالمتفرجين والجالسين على قهواتها، وقد جلست على بعضها وطلبت قهوة فلم يلذُّ لي طعمها لشدة مرارتها مع كثرة سكرها لأنهم يغلونها كما يُغلَى الشاي، ولذا تجدها عديمة الفقاعات على وجهها. ولم أشرب قهوة لذيذة في أوروبا إلا في السفارات المصرية، لأنها على الطريقة المصرية المعروفة.

(٣) بركان فيزوف

إذا نظرت إلى بركان فيزوف من أعلى مدينة نابلي أو من ميناها، تجلَّى لك منظر يدخل في قلبك الروعة والرهبة، تنظر جبلًا شاهقًا يخرج من فوهة في قمته دخان متصاعد مصحوب

باللهب لا ينقطع ليل نهار، وإذا قربت من فوهته سمعت دويًّا عظيمًا يرعبك ويزعجك حتى تهم بالفرار، وعقب هذا الدوي وتلك الفرقعة يخرج الدخان الكثير مصحوبًا باللهب، وكل خمس دقائق تقريبًا تحصل هذه الفرقعة والدوي فهو دائم الجيشان.

جلاريا «أمبرتو الأول» بنابلي.

وقد قامت شركة «كوك» المشهورة في العالم كله بتنظيم رحلات بقيمة ١٢٠ ليرة سهَّلت الصعود إلى قمته بسكة حديدية يسير عليها قطار يجر عجلات، ويساعده آخر من الخلف يسير بأتراس ومشابك تمنع انحداره. ويدخل الرعب في قلوب الركاب عند قطع آخر محطة لأنه يصعد في علو قليل الميل، وأغلب السائحين يزورونه ليلًا أيام الصيف خصوصًا الأمريكان لاستنشاق الهواء الجميل النقي، ولمشاهدة طرقه المنارة بالمصابيح الكهربائية التي تظهر للرائي منظرًا بديعًا يأخذ بالألباب، ولو رأيتها بالليل لرأيت أسلاكًا ضخمة من النور ممتدة على مسافات بعيدة صاعدة من أسفل الجبل إلى أعلاه.

وقد تجلى لنا البركان بظهور تام عند خروجنا من ميناء نابلي ليلًا حين العودة.

ميدان دانتي بنابلي.

وإنه ليأخذك العجب عندما ترى المنازل المتعددة في أسفله وفي نواحيه منتشرة هنا وهناك، وقد أمن الناس غضبه وصولته واضطرابه وهيجانه.

ومنظر نابلي بالليل جميل جدًّا لكثرة الأنوار الكهربائية بشوارعها ومنازلها الصاعدة من أسفل جبالها وتلالها إلى أعلاها.

وفي نابلي ترى أنواع الخضر والفاكهة كثيرة جدًّا ورخيصة الثمن، وهي كبيرة الحجم لذيذة الطعم.

مدينة بومبي

ذهبنا إلى المحطة التي يسافر الناس منها إلى مدينة بومبي وأخذنا جوازًا بـ «ثلاث عشرة ليرة»، ثم ركبنا القطار فسار بنا يخترق الطريق بين حدائق غنَّاء ومزارع نضرة، طورًا يعلو التلال وطورًا ينخفض وأخرى يدخل في نفق. وقد سار القطار ساعة في كروم العنب العظيمة الواسعة التي لم تر عيني أوسع منها. وليست كروم العنب محمولة على حوامل كما في مصر، بل معلَّقة في عمد قصيرة من الخشب وممتدة إلى ما جاورها من الأشجار الصغيرة، عُلِّقت بها بخيوط غليظة من لفائف النبات والأغصان على مسافات شاسعة لا يدرك الناظر غايتها، عناقيدها مدلَّاة تكاد تلمس فم السائر تحتها. وما زال القطار يجدُّ في السير ونحن وقوف في النوافذ نمتع النظر بهذه المشاهد الجميلة، حتى وصلنا إلى محطة مدينة بومبي بعد سير ساعة وربع ساعة لم يقف القطار في أثنائها إلا مرة واحدة، وهنا ذهبنا إلى حجرة أخذنا منها ورقة التصريح بالزيارة بعد دفع ثلاث «ليرات»، وقد صحبنا مترجم دفعنا له ٢٥ «ليرة» ليرشدنا إلى أهم أماكن الزيارة.

(١) فذلكة تاريخية عن مدينة بومبي

قد كان من أمر هذه المدينة أنه في سنة ٩٢ ميلادية ثار بركان ويزوف المجاور لها، وقذف من الحجارة والطين والحمم والمواد الأخرى الملتهبة المحرقة فوق هذه المدينة طبقة ردمتها وغطتها بسمك يُقدَّر بنحو ٢٠ قدمًا، فهلك في هذا الحادث من الأهالي آلاف، وفر من بقي من سكانها في جهات الأرض حاملين ما خف حمله وغلت قيمته. وقد دُفِنت المدينة وطُمِست آثارها ومُحِيت أخبارها من الأذهان بتقادم الزمان، وبقيت سرًّا مكتومًا في ضمير الدهر لا يعلم الناس عنها شيئًا، حتى حدث في القرن الخامس عشر أن بعض المهندسين كان يقوم

بعمل من الأعمال في تلك الجهة فعثر على أساس بناء مدفون، فلم يهتم للبحث عنه ولم يعره التفاتًا. وبعد سنة ١٧٤٨ عثر أحد الفلاحين على بعض أوانٍ منزلية من النحاس وغيره، فتنبهت لذلك الأفكار واتجهت الأنظار إلى ما وراء ذلك، وأخذ الناس يتحدثون بهذا الأثر حتى بلغ ذلك آذان الملك شارل الثالث فأمر بالبحث عن تلك الآثار، وقد استمر العمل أعوامًا عديدة، وكلما وجدوا أثرًا نقلوه إلى متحف نابلي حتى استكشفوها، ولا يزال البحث عنها يكشف منها بقية مبانيها. ويظهر أن فيها بعض آثار لم يصل البحث إلى كشف اللثام عنها.

(٢) شوارع المدينة

أهمها شارعان كبيران، أحدهما يخترق المدينة من الشرق إلى الغرب والثاني من الشمال إلى الجنوب، ويبلغ اتساعه نحو عشرة أمتار، وله إفريزان ضيقان، وأرضه مرصوفة بالحجارة بعضها مستوية منحوتة وبعضها وعر تتخللها حفر كثيرة. وقد سألت المترجم عن ذلك فأخبرني أن الحاكم كان يكلف كل شخص يرصف ما أمام داره، فالغني يُعنَى برصفه رصفًا جيدًا والفقير يهمله.

ويقطع شارعَي المدينة شوارع مستقيمة متقاطعة كما هو الحال في المدن الحديثة، وعند تقابل الشوارع تجد أحجارًا مرتفعة من سطح الشارع ليتمكن المارُّون من العبور عليها عند حدوث الأخطار بحالة تسمح بمرور العجلات. وتلك الشوارع أضيق من الشارع العام وتشبه الدروب عندنا، ويتفرع من هذه الشوارع الضيقة منعطفات تبتدئ من الشوارع وتنتهي ببيت في آخرها.

وقد أرشدنا المترجم إلى منعطف فيه ماخور يدخله الإنسان من باب صغير فيجد طرقة ضيقة مستطيلة قد شُيِّد على جانبيها ست حُجَر، كل حجرة داخلها بناء يشبه مقاعد الفلاحين في القرى على ارتفاع نصف متر، وفي منتهى كل ارتفاع ما يشبه الوسادة، وفي نهاية الطرقة محل مرتفع يقف خلفه من يتقاضى الأجر من الداخلين إلى هذا الماخور، وهو مقفل ممنوع دخوله إلا للسائحين، وكل شوارع المدينة على هذا النظام والترتيب. وقد أعجبنا حمام كبير جدًّا معتنًى به كل الاعتناء، أحواضه مبنية بالرخام الأبيض الجميل على شكل دائرة، وهناك محل أول وثانٍ، وأحواض للماء الساخن والفاتر والبارد، ومحال أُعِدَّت للتدليك، ومقاعد ممتدة بطول الحمام للجلوس عليها، وأمكنة لخلع الملابس مشيدة بالرخام أو الآجر، وكل حجرة قبو، وبالحمام أحواض طويلة سوى التي ذكرناها كالتي تُستعمَل حديثًا في المنازل، وجدرانه وسُقُفه مزينة بالصور والتماثيل البديعة.

(٣) الحوانيت

تُفتَح في الشوارع الكبيرة والصغيرة منها حوانيت كثيرة كان يباع فيها أنواع ما يحتاج إليه أهل المدينة من مأكول ومشروب وملبوس، وجُلُّها بنظام واحد، ولا توجد حوانيت كبيرة. إنما الذي يلفت النظر منها حوانيت السوائل كالخمور والزيوت وغيرها، فإنها تُوضَع في خوابٍ من الرخام أو الخزف كالتي تُستعمَل عند الزيَّاتين عندنا أفواهها في عارضة كبيرة من الرخام بعرض الدكان، والمشتري يقف أمامها يأخذ ما يريد.

ولم نجد في هذه المدينة محلًّا يُستعمَل كقهوة، بل كل شخص يأخذ ما يريده وهو واقف، كما في إنكلترا وأمريكا بلاد العمل الآن، وعلى باب غالب الحوانيت تُستعمَل إشارة تدل على ما يباع فيه.

ومما يُلاحَظ في هذه المدينة أن أحياء الأغنياء والموسرين لا تجد في شوارعها حوانيت ولا محالَّ للبيع والشراء، وهذه الحالة تجدها الآن في أحياء الأغنياء والموسرين عندنا.

(٤) المنازل

مما شاهدته في تشييد منازل الأغنياء منهم أن غالبها يُبنَى خلف الحوانيت، يصل الإنسان منها بطرقة ممتدة من الشارع حتى يصل إلى باب الدار، وليست لها نوافذ على الشارع، يحيط بها سور داخله ردهة واسعة، وحول هذه الردهة حُجَر تُفتَح فيها، وليس بها نوافذ إلا بابها، وتلك الحجر ضيقة لا تزيد عن ثلاثة أمتار في مثلها، مع أن الردهة واسعة جدًّا ليست مسقوفة ليصل إلى المنزل الضوء والحرارة. وفي وسط الردهة فسقية تجتمع فيها مياه الأمطار تسير منها إلى صهريج تحت الدار تُخزَّن فيه إلى أيام القيظ. وفي الردهة يُفتَح باب على حديقة واسعة من الجهة الشمالية غالبًا. وحول الحديقة حجرة للزائرين، وحجرة الأكل وهي أوسعها، وحجرة النوم وهي ضيقة، وبين حجرة الزائرين وحجرة الأكل حجرة الخدم.

وحجرة الأكل غاية في الفخامة بها كثير من الرسوم والنقوش البديعة التي تسر النفس، وتبعث على تناول الطعام بشهية. وفي كل بيت من بيوت الأغنياء حجرة خاصة يقابل فيها رب المنزل السيدات الأجنبيات منعزلة عن حجر الدار، مزخرفة ومزينة بأحسن ما يوجد من النقوش والصور، وتشتمل على صور تحمرُّ لها وجه الإنسانية خجلًا، ومن أجل ذلك قام على بابها حارس لا يسمح للسيدات بدخولها، وقد حاولت بعض السيدات

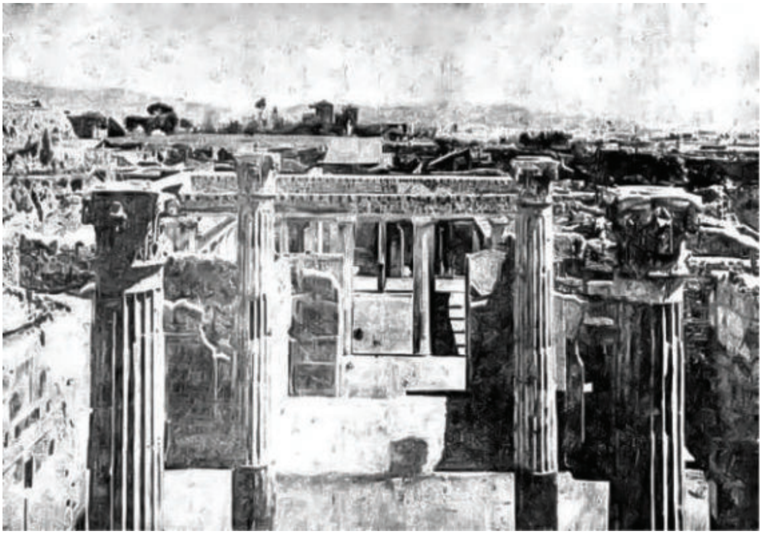

منزل إمبراطور جرمانيا في بومبي.

الأمريكيات أن تدخلها فلم تفلح، وخرجنا من هذه الحجرة منا الضاحك ومنا الصاخب ومنا الذاهل من حيوانية الإنسان وانغماسه في الشهوات بحالة تلحقه بالحيوان الأعجم. وبحوائط المنزل دواخل وخوارج تُستعمَل لمنافع متعددة كوضع مائدة الأكل وأواني الشرب والمصابيح، وحُجَر داخل البناء وأخرى يُصعَد لها بسُلَّمين أو يُنزَل لها كذلك مما يشبه تمام الشبه المنازل القديمة بمصر، ومن زار منزل أبي الذهب في حارة الروم بمصر يمكنه أن يدرك حالة المنازل عند الرومان القدماء، غير أن منازلهم عديمة النوافذ من الخارج. وتكثر النقوش والتماثيل حسب ثروة الرجل ومنزلته، وفي منازل الأغنياء عدة صور واضحة ترمز إلى حالة دينية وثنية وخرافات قديمة وزراعية وتجارية.

وقد زرنا منزلًا مستكشَفًا حديثًا أخبرنا المترجم أنه كان لأخوين تاجرين أفرغا فيه جهدهما من حيث الزخرف والبناء وآثاره باقية لم تُنقَل إلى متحف نابلي، لأن كل أثر قيِّم يُنقَل إلى متحف نابلي يُوضَع محله من الصور الحديثة ما يشير إلى الصور القديمة إلا هذا المنزل فإنه لم يُنقَل ما فيه، ولذا عُنُوا بعمل حواجز لآثاره حتى لا تمسها يد السائحين.

وفي هذا المنزل حديقة جميلة محاطة بسياج من حديد نُصِب عليه عدة تماثيل وطيور وسباع وتماثيل غلمان صغار غاية في الإبداع والإتقان. وبه حجرة كبيرة زُخرِفت أكبر زخرف، ورُسِم على جدرانها ما كانوا يتعاطونه من المهن بحالة واضحة جدًّا من زراعة وتجارة وحرث ودرس وصيد ورقص، وصور القرابين التي كانوا يقدمونها لآلهتهم، وغير ذلك مما يبين حالتهم الدينية والمعاشية. وقد كثر السائحون في هذا المنزل، وكذا الراسمون وناقلو صوره. هذا وصف بيت من بيوت الأغنياء، أما منازل الفقراء فهي منحطة في كل زمان ومكان، فالمنزل منها يحتوي على حجرتين أو ثلاث عديمة النوافذ حيث تحوي فرنًا ورحًى، وهي عبارة عن قاعدة مرتفعة من الحجر الصلد تعلوها مثلها على هيئة أسطوانية مفرطحة من أعلاها. وتلك المنازل واطئة الأسقف تنتهي بقبو كمنازل الفلاحين في القرى الصغيرة عندنا. هذا ما يقال بوجه الإجمال عن منازل مدينة بومبي.

(٥) المعابد

في هذه المدينة معابد كثيرة أرشدنا إليها المترجم، فيها كثير من الأصنام والتماثيل، ورسومها بديعة باقية واضحة بها كيفية تقديم الذبائح للآلهة. ولهم اعتناء كبير ببيت العبادة الذي تظهر عليه الفخامة والعظمة، وهذا المعبد متسع أُقِيم في صدره مذبح الإله والإلهة معبودَي أهل المدينة، وقد أُقِيم في جهته الشرقية والغربية تمثالان لهما متقابلان يشيران إلى بعضهما البعض. وقد رأينا ثقبًا خلف رأس الآلهة كان يستعمله حكام تلك المدينة للإجابة عن أسئلة الأهالي التي كانت تُوجَّه للآلهة، فتخرج نبرات الكلام من فم الآلهة فيعتقد السائل أنها هي التي تجيبه. وبذا بقيت سلطة الحكام الدينية والزمانية سائدة زمنًا طويلًا.

ومن الآثار التي تستحق الذكر ميدان واسع جدًّا تحيط به المباني من كل جهة، مقامة على بواكٍ من الأحجار الضخمة، وداخل هذه البواكي وخارجها عدة مقاعد، وفي نهايته الشمالية مبنى عالٍ يقف عليه الخطيب ويلقي ما يريد من الأمور الهامة على عامة الشعب، وفي نهايته الجنوبية محل لجلوس الحاكم وأسرته وهو غاية في الأبهة والعظمة.

(٦) دار التمثيل

من الأشياء التي يقصدها السائح ويهتم لرؤيتها في هذه المدينة دار التمثيل، فإنها حُفِرت في الصخر على هيئة دائرة، مقاعدها مدرَّجة من أعلى إلى أسفل، تضيق كلما سفلت حتى

تصل إلى دائرة صغيرة. وقد أُعِدَّت في هذه الدار محالٌّ للحكام والأشراف والمتوسطين والعامة والخدم، فلا تتجاوز طائفة من هذه الطوائف محالها المعدة لها. وقد شُيِّد فوق هذا الحفر مبانٍ تحيط به فيها يجلس الناس ليروا الممثلين من أعلاه، وهذه الدائرة لا يتجاوزها الخدمُ وعامة الناس. ويُقدَّر عمق هذه الدار عن سطح الأرض بنحو خمسة وعشرين مترًا تقريبًا، وشكلها يشبه تمام المشابهة المدرج الروماني القديم الذي مر وصفه عند وصف آثار مدينة سرقسطة.

(٧) متحف بومبي

المحكمة الرومانية القديمة.

عند إزالة الردم عن مساكن هذه المدينة وجدوا كثيرًا من هياكل الرجال والنساء والأطفال وبعض الحيوانات محجرة، وأنواع الحلى بين ذهبية وفضية مما لا يدخل تحت حصر، وقد وُجِدت هياكل بعضهم في الأزقة بهيئة تدل على الفزع والخوف، وقد شيدوا متحفًا في هذه المدينة نقلوا إليه بعض آثارها فيه. رأينا الرجال والنساء محجرة بالهيئة

التي ماتوا عليها عند حلول الحادث، فمنهم النائم على ظهره، والنائم على جنبه، والمنقبض الجسم والمنبسطه، وغير ذلك من الأشكال التي يمكن أن يموت عليها الإنسان، ومثل ذلك بعض الحيوانات والطيور والأبواب الخشبية المتحجرة. وفيه جميع أنواع النقود والموازين والمكاييل والحلي، وغير ذلك مما كان يُستعمَل عندهم من تماثيل العبادات وآلات الدرس والحرث. فسبحان من يرث الأرض ومن عليها!

من نابلي إلى رومة

لما فرغنا من زيارة أهم مشاهد نابلي ومتاحفها أزمعنا السفر إلى رومة قصبة مملكة إيطاليا، فذهبنا إلى محطة السكة الحديدية، ومنها أخذنا جواز السفر (التذكرة) بعد أن دفعنا ثمنها إحدى وسبعين ليرة (أحد وسبعين قرشًا صاغًا)، ولما أردنا الدخول إلى القطار أشار العامل المكلَّف بمراقبة المسافرين بأن حقيبتين من حقائبنا يجب وزنهما، فانتحى الحمَّال بنا ناحية وقال: يمكنني أن أدخلهما بدون وزن على شرط أن آخذ عشر ليرات. فقبلنا منه ذلك، وقد فعل، وأعطينا له ما شرط، وقد قلت فيما سبق إن أهل إيطاليا لهم استعداد لقبول الرشوة متى وجدوا لذلك سبيلًا. ولما دخلنا القطار لاحظنا أن حجره ضيقة تحوي ثمانية مقاعد متقابلة يفصل كل مقعدين منها حاجز، ولها بابان من جانبها يقفلهما العامل عند سيره، وليس بها نوافذ غير نافذتين تعلوان هذين البابين ولا طرقة أمامها. وحُجَر القطر في إيطاليا أقل مما في مملكة سويسرة وفرنسا وإنكلترا نظافة وزخرفًا، والمقاعد مكسوة بنوع من المخمل الرمادي. وقد اكتظ القطار بالمسافرين مما أفضى إلى وقوف بعضهم زمنًا طويلًا.

وقد قام القطار بنا من المحطة الساعة السادسة والنصف وسار بنا في أرض ليست ذات خصوبة، تارة يعلو تلالًا وروابي وتارة ينحط، وأخرى يدخل في نفق وطورًا يساير جبالًا شامخة.

وما زلت واقفًا في نافذة القطار أمتع النظر بتلك المشاهد الجميلة البديعة حتى خيَّم الظلام، وعدت لا أرى إلا الأنوار في القرى المشيدة على التلال وسفوح الجبال، إلى أن لاحت لنا من بُعْد أنوار مدينة رومة بمنظرها الغريب الذي يأخذ بمجامع القلوب. وقد وصلنا محطتها الساعة الحادية عشرة والنصف مساء، فحمل حقائبنا حمَّال ذهب بنا إلى فندق الكونتيننتال، وهو فندق جميل واقع في واجهة المحطة كثير الحُجَر واسع الردهات المزينة

بالأشجار والأزهار، وهو من أعظم الفنادق في إيطاليا يشرف على ميدان المحطة وعلى شارع من أهم شوارع المدينة، وأجرة المبيت فيه خمس وثلاثون ليرة، وإذا أُضِيف إلى ذلك الأكل فيه ضُوعِف الأجر.

ومما لفت نظري أن كل نازل في فندق من فنادق أوروبا يلزمه ضريبتان؛ ضريبة الخدم وضريبة الحكومة، وكل واحدة لا تقل عن عشرة في المائة من أجرة المبيت، كما أنه يُزاد على هاتين الضريبتين ضريبة ثالثة هي ضريبة الترف إذا كان الفندق راقيًا كالذي نزلنا به.

منظر كلب متحجر.

ومما يدعو إلى العجب والدهشة كثرة السائحين الأمريكان، فإني رأيت منهم في رومة وغيرها من الممالك التي زرتها سيلًا جارفًا يملأ كل مكان نزلنا به، وأكثرهم من الفتيات اللائي لا يصحبن معهن رجالًا إلا قليلًا، بل يعتمدن في جميع رحلاتهن على أنفسهن، وإنك لترى فيهن زينة الفنادق والردهات يرقصن ويغنين ويعزفن ويقمن بألاعيب منوَّعة؛

ملابس غاية في البساطة يشبهن تمام المشابهة الفتيات الإنكليزيات لونًا ولغة لا يكاد يفرق الإنسان بينهن. وعجائزهن غاية في النشاط والخفة يقمن بما تقوم به الفتيات من الإسراع إلى زيارة الآثار والمتاحف ويقيدن الغريب منها، ويأخذن المناظر بآلة التصوير الشمسي (الفتوغرافيا)، فلا تزور أثرًا لا تجده غاصًّا بهن.

وأغلب الأمريكان يعتمدون في سياحتهم على شركة كوك، تقلهم سياراتها إلى المتاحف والآثار وغيرها مما يهم السائح زيارته مصحوبين بمترجميها العديدين.

وهي تقوم بخدمات كثيرة تسهِّل على السائحين رحلاتهم من تقديم أدلة للبلدان والممالك بالمجان ومُصَوَّر كل مدينة؛ يوضح أماكنها وآثارها ومتاحفها ومحالَّ الزيارة فيها ومعلومات عن فنادق المدن وأجورها وحالة المعيشة في الأسر (البنسيونات)، فلا يجد السائح أقل صعوبة في الوصول إلى غرضه. ولها مكاتب في كل مدينة حتى القرى، تسهل كل نوع من المعاملة والقيام بصرف «القطع» لكل ممالك العالم، ولذا لا تخلو محالُّه من السائحين المختلفي الأجناس واللغات.

تجد السيدة الأمريكية وهي في أخريات أيامها لا تقوى على السير في المتاحف والآثار، فيحملها العمال على كرسي أُعِدَّ لذلك حتى لا تُحرَم رؤيتها وتنفق في ذلك المال الكثير صابرة على مشاقِّ السفر والتنقل برًّا وبحرًا، كلُّ ذلك في سبيل حب الاستكشاف والاطلاع مما يدل على علو مكانة الأمريكان وضربهم في العلوم والمعارف بسهم كبير. وبهذه المناسبة أجدني آسفًا جد الأسف لعدم اهتمام المصريين بشأن السياحات والاطلاع على آثار الممالك ومتاحفها والوقوف على أخلاق الأمم وعاداتهم، فقد يذهب كل سنة منهم إلى أوروبا عدد كبير ومع هذا فلا تجد لأسفارهم أثرًا يُذكَر في بلادهم، لأنهم يفضلون الراحة واللهو واللعب والإقامة في مكان واحد عن الجَوَلان في الممالك والبلدان. ولو علموا أن أيام السائح من ألذِّ أيام حياته لَمَا تأخروا عن قضاء أوقاتهم متنقلين يرون كل يوم منظرًا جديدًا وخُلقًا نافعًا وموعظة حسنة وعبرة مرشدة وحكمة بالغة وعلمًا واسعًا لا يحصلون عليه بغير ذلك.

(١) رومة

هي عاصمة بلاد الرومان، مرت عليها أعوام كانت فيها سيدة عواصم الممالك، وحاكمة العالم المتمدين، تاريخها القديم من أشهى التواريخ وأكثرها فائدة للقارئين، يعرض أمامك العبر، ويوضح لك تقلبات الزمان، ويملي عليك حكمة لقمان، وما زالت إلى الآن

عاصمة إيطاليا مع ما مر عليها من حوادث الأيام وعبر الدهور والأعوام. اجتمع فيها قديمًا عظماء الشعوب المختلفة، فكان منهم الأمير، ومنهم طالب العلم، ومنهم المتَّجِر. وكانت مركز الملك والرياسة الدينية معًا، فلم تبلغ مدينة من مدن العالم ما بلغته رومة في العالم القديم.

وباعتبار ما طرأ عليها من التغييرات أصبحت تنقسم إلى قسمين؛ رومة الحديثة ورومة القديمة.

فرومة القديمة كانت محاطة بسور لا يقل عن اثني عشر ميلًا تقريبًا، وله سبعة وثلاثون بابًا معدَّة لخروج الجنود ودخولهم. ولقد اشتُهِرت من قديم الزمان بردهاتها الواسعة، وشوارعها الكبرى.

أما رومة الحديثة فإنها قد بُنِيت على أطلال رومة القديمة، أُقِيمت على اثني عشر تلًّا، فهي كثيرة المرتفعات والمنخفضات فلا تكاد تجد فيها شارعًا مستويًا. ويشطرها نهر تيبر شطرين عظيمين، شُيِّدت على ضفافه المنازل العالية والقصور الفخمة، وفي ميادينها العامة كثير من التماثيل البديعة الصنع.

وأهمها نافورة بقرب ميدان المحطة آية في الإبداع وحسن المنظر، وإذا رأيتها رأيت دائرة عظيمة محاطة بالتماثيل الكثيرة المتعددة الأنواع المختلفة الأشكال، وفي وسط هذه الدائرة تمثال لرجل ضخم يضم إليه تمثال غلام يصعد الماء من قمة رأسه فينصب عليهما بكثرة. وجميع التماثيل المقامة على حافة هذه الدائرة بأشكال الرجال والنساء تقبض على تماثيل من الأسماك والحيوانات، يخرج من أفواهها الماء بقوة عظيمة منعكسًا إلى جو هذه الدائرة، ويقابل هذا الماء المنعكس ماء مقذوف بقوة يخرج من أنابيب وسط هذه الدائرة، فيتكون من ذلك منظر حسن يسر النفس ويشرح الصدر.

ويلي هذه النافورة في المرتبة نافورة أخرى تُسمَّى «بريفي» من النافورات الرومانية القديمة أُقِيمت وسط رومة، يخرج الماء من اثنتي عشرة فتحة فيها، يُسمَع لها دوي كدوي القناطر لكثرة المياه المتحدرة على الأحجار والصخور من تلك الفتحات، ويعلو هذه الفتحات تمثال كبير لرجل يكتنفه تمثالان على صورة امرأتين؛ أحدهما رمز للصحة والآخر للخصب والنماء بيده صورة عنقود من العنب العظيم. وبأسفل هذه التماثيل تمثالان لفارسين قويين يقبض كل منهما على عنان جواد جامح يعانيان في كبح جماحهما أشد العناء، والمياه المتحدرة من هذه الفتحات جميعًا تنصبُّ بقوة عظيمة في حوض واسع جدًّا نُضِّدت حوله المقاعد لجلوس من يشاهد انحدار هذه المياه.

ومما سُطِّر في دليل رومة من المضحكات عن مياه هذا الحوض أن السائح إذا شرب من مائه ولم يقذف فيه «صلدًا» سحرته مياهه واضطرته إلى الرجوع إليها في العام المقبل، فشربت من مائه ولم أقذف فيه صلدًا لعلي أرجع إليه مرة أخرى!

وشوارع رومة أغلبها كثيرة الحركة والزحام ولكنها أقل حركة من شوارع «نابلي»، وحوانيتها أكثر ضخامة وسلعًا، مرصوفة بالأحجار المستوية أو الآجُرِّ (الأسمنت). ومما يزيدها فخامة وعظمًا علوُّ العمائر الضخمة بها، فإن غالبها يتكون من ست طبقات أو سبع مما يكسب الشوارع بهجة وعظمة، وأغلب شوارعها محلَّاة بالتماثيل التي تقابلك أينما سرت إما في الشوارع وإما في شرفات المنازل أو مزدانة بها الحوانيت وميادينها العامة أو مزخرفة بها الكنائس الكثيرة المنتشرة في جميع نواحيها. والمركبات الكهربائية تنساب في تلك الشوارع تارة تعلو وتارة تنخفض تبعًا لحالة الشوارع، ولها سائقون مهرة يجلسون على كرسي يفصله عن الواقفين حاجز من الحديد، فلا يزاحمه أحد مهما كثر الواقفون، وكل مركبة فيها عدة أجراس يقرعها الراكبون إذا أرادوا النزول، وهو لا يفوق المركبات الكهربائية برمل الإسكندرية من حيث النظافة والترتيب. والسيارات أجورها رخيصة جدًّا، كما أن العجلات لها عداد (تكس) يجرها جواد واحد، وإذا زاد الراكبون على اثنين دفع عنه ليرة «قرشًا صاغًا» عما يستحقه العداد، والحوذيون لا يمسون الخيل بسياطهم شفقة ورحمة بالحيوان. ومما يُضحِك أننا ركبنا عجلة وأراد الحوذي أن يوجه الجواد إلى ما يريد فلم يقبل أن يسير إلا اتِّباعًا لهواه ولم يجسر الحوذي أن يمسه بأذى، فكان ينزل ويجره مسافة كبيرة ولكنه يأبى أن يسير إلا حسبما يريد، فأخذ منا التعب مأخذه وقلنا: هذا حال حوذي مع جواد لم يجرؤ على إيذائه، ونحن في بلادنا نقيد إرادة خدمنا وإرادة أبنائنا، والويل ثم الويل إذا تأخر الحيوان عن الركض لثقل حمله أو لمرضه أو تعبه، فإن سائقه ينقض عليه انقضاض الصاعقة فيوسعه وكزًا وضربًا ونخسًا حتى يسيل دمه!

ولهذه المناسبة أذكر أني ما رأيت في سياحتي هذه سيدًا يلفت نظر خادمه بل كل خادم يقوم بواجبه، وقد رأيت في لندن خادمات الفنادق يقمن بالخدمة أكثر من اللازم ينظفن درجات السلم وهن جاثيات على ركبهن لشدة اعتنائهن بالنظافة وقيامهن بالواجب، كما أن للخدم أوقات راحة لا يُسألون فيها عن عمل شيء مطلقًا يرتدون ملابس نظيفة ويخرجون للنزهة سواء في ذلك الفتيان والفتيات، فإذا قابلت أحدهم في الخارج قابلت شخصًا جميل البزة حسن الطلعة لا يتسرب إلى عقلك أنه خادم له حُسن حديث وذوق وأدب.

ولم أرَ مدة إقامتي في رومة ما كنت أسمعه عن الطليان من الفظاظة والغلظة والشدة والطيش إلا قليلًا جدًّا في الطبقات الواطئة، إنما الذي يُؤاخَذون به عدم التحديد في أثمان السلع فلا يدل الثمن المكتوب عليها على الحقيقة، فإذا كنت أجنبيًّا عن البلاد ابتعت الشيء كما هو مكتوب عليه. وقد أرشدنا أحد أصدقائنا إلى أن المساومة واجبة، فكنا ننقص من الثمن المكتوب على السلع الثلث أو الربع، ولم نرَ أمة من الأمم في أوروبا تفعل مثل هذا، وهو ليس حسنًا من أمة أوروبية راقية، فإذا تمكن بعضهم من الغش لا يتأخر.

مثال ذلك أننا دخلنا مطعمًا وتغذينا فيه فقدم لنا صاحب المطعم بيان الحساب، فوجدنا الثمن المطلوب لا يتفق مع طلبنا فبحثنا الأثمان فوجدناه قد أضاف الليرات إلى البنسات وجعلها جميعها ليرات، فلما أرشدناه إلى غلطه خجل واعتذر عن فعلته.

كما أنه أعجبني في إيطاليا ما سمعته من تشدد حكومة موسوليني على النساء المتبرجات في الشوارع، فإنه شدد في عقوبتهن إن كن إيطاليات وإلا نفاهن إلى الخارج، وقد أخذ يضيق عليهن الخناق في الشوارع والمنازل، وتتبَّع منازل السر وصادرها ووقَّع على أصحابها العقاب مما جعلهم يفرون من أمام الشرطة ويختفون عن الأنظار. وقد ساعده على ذلك معاضدة قداسة البابا فأصدر أمرًا بابويًّا يمنع كل امرأة عارية السواعد من دخول الكنيسة، فاتفقت السلطتان الدينية والمدنية على ذلك مما جعلهن يخشين العقاب.

فما كان أجدر بحكومتنا السنية أن تبذل جهدها في مطاردة البغايا اللاتي انتشرن في البلاد انتشار الجراد يعثن في الأرض فسادًا لا رادع ولا زاجر، حتى انتشرت بيوت الدعارة والفجور بين بيوت الأحرار، وقد كتب الكاتبون في ذلك فلم يجدوا أُذنًا صاغية، وليست مقالات أخي الأستاذ محمود أبي العيون عن القُرَّاء ببعيدة.

فأين ذوو الغيرة في بلادنا يتابعون تنبيه الحكومة حتى تعير تلك المواخير جانبًا من عنايتها فتطهر البلاد من أرجاسها؟ وإننا ننتظر من حكومة إسلامية رشيدة مثل حكومة مصر أن تقوم بهذا الأمر العظيم لتكسب بذلك تاريخًا محمودًا يدور مع الزمان.

(١-١) أهم آثار رومة ومتاحفها

كنيسة ماري بطرس الكبرى

لما كان لرومة المركز الأول في العالم الكاثوليكي أصبح لكنائسها الشهرة الفائقة والصيت الذائع والقيمة الكبرى، وأشهر كنائسها بل أشهر كنيسة في الأرض وأوفرها قيمة وأكثرها

تحفًا وآثارًا هي كنيسة «ماري بطرس الكبرى» وهي بجوار الفاتيكان تتصل بمبانيه من ناحية، لها منظر مهيب يملأ القلب عظمة وجلالًا، أمامها ميدان فسيح على شكل دائرة هائل المنظر، يحيط به رواق تحمله أربعة صفوف من الأعمدة، يتكون منها ثلاث طرق، يبلغ عدد هذه الأعمدة سبعين وثلاثمائة، أُقيمت على هيئة هندسية فلو وقف الإنسان في مركز هذا الميدان لخُيِّل إليه أنه لا يوجد إلا صف واحد من الأعمدة، مما يدل على إحكام وضعها وبراعة تنسيقها. وفي وسط هذا الميدان أُقيمت مسلة مصرية، بجانبها نافورتان تقذفان الماء بشكل بهيج.

ميدان كنيسة القديس بطرس برومة.

ومما قيل لنا عن هذه المسلة: إنها وقعت على الأرض فحُطِّمت قريبًا من قاعدتها، فأقامتها بركة البابا ليلًا وقد أصبح أهل رومة وهم ينظرون إليها كأنها لم تُصَب بسوء، فكانت موضع غرابة وإعجاب تدل على مقدار تصرف البابا بالأمور.

وعرض واجهة الكنيسة يبلغ نحو مائة واثني عشر مترًا، ولها سُلَّم عريض جدًّا يوصل إلى باب الكنيسة المصنوع من البرنز الدقيق الصناعة، وعن يمينه باب آخر مسدود بالرخام يُسمَّى الباب المقدس يُفتَح كل خمس وعشرين سنة مرة، ويُعتقَد فيه أن الدخول منه يوصل إلى الجنة مباشرة، ولذا يقصد الحجاج رومة إبان فتحه للحصول على هذه النعمة، ويوجد باب مثله بكنيسة «ماري بولس» التي سنتكلم عليها فيما بعد.

وإذا عجبت لشيء في حياتي فعجبي عظيم جدًّا لرؤية داخل هذه الكنيسة التي جمعت كل أنواع الفن التصويري والتمثالي، وضخامة البناء وزخرف الحوائط وارتفاع القباب التي يعجز الكاتب القدير عن وصفها وما تدل عليه من الرموز الدينية التي تدخل في القلب روعة وجلالًا. منها تمثال من البرنز للقديس ماري بطرس جالسًا على كرسي البابوية وقد بُلِيت أصابع رجله اليمنى من التقبيل.

ويبلغ طول هذه الكنيسة نحو مائة وسبعة وثمانين مترًا في عرض مائة وسبعة وثلاثين، مقامة على أعمدة ضخمة، مرتكزة على قواعد عظيمة من الرخام تشبه عمد جامع الرفاعي بمصر مموَّه أسفلها وأعلاها بالذهب، تماثيلها من الرخام القديم الأبيض والمرمر وجميع سقوفها مغشاة بالذهب، وحوائطها محلاة بالتماثيل الدينية الكثيرة التي تُعَد من أعاجيب فن التصوير، وبها ألواح معلَّقة بحوائطها تمثل أهم أدوار حياة المسيح والحواريين والقسيسين وكلها من الفسيفساء فيراها الناظر كأنها زيتية وليست بزيتية.

وعن يمين الداخل عرش مرتفع عظيم الأبهة والجلال، به صورة السيدة مريم أمامها الشموع المضاءة ليل نهار في أنابيب من الذهب والفضة. وفي وسط هذه الكنيسة قبة مرتفعة تحملها أربعة أعمدة حلزونية الشكل من البناء، وتحتها سرير من البرنز أيضًا به أربعة أعمدة من البرنز المذهب، وتحته المكان الذي يقف فيه البابا وقت الصلاة ويسمونه المذبح وهو خاص بصلاة البابا، وبالعرش خارجة كالكنة (الترسينة) يشرف منها البابا ليلقي مواعظه ونصائحه وإرشاداته على الشعب.

وقريب من هذه القبة دائرة عظيمة في أرض الكنيسة محلَّاة جوانبها بفروع من الفضة المموَّهة بالذهب مُنارة بالشموع ليلًا ونهارًا، في أحد جوانبها باب إذا نزل منه الإنسان نحو عشر درجات يرى أمامه بابًا صغيرًا إذا فُتِح رأى فيه صورة السيدة مريم والمسيح من الذهب عليهما تاجان من الأحجار الكريمة وأمامهما صندوق من الذهب الخالص، تُوضَع فيه النذور والصدقات والنور الكهربائي من خلفهما يزيدهما بريقًا ولمعانًا يخطف الأبصار. ومن حُسن المصادفات أننا رأينا عروسين وراءهما جمع كبير قد قصدا إلى هذه الدائرة ونزلا إلى الحجرة التي فيها صورة السيدة مريم والمسيح، وجثوا أمامهما يؤديان الإخلاص الزوجي وباركهما القسيس القائم بحراسة هذه الحجرة، وقبل أن يبرحا المكان أديا التحية لهذين التمثالين بخضوع وخشوع تامَّيْن مع من يصحبهما من الجمع، فكان المنظر جميلًا مؤثرًا.

وأدهشني كثيرًا ما رأيت من تخضُّع الناس وخشوعهم أمام التماثيل الدينية الرمزية والتفاني في اعتقادها كأنها تضر وتنفع مما نسميه عبادة وثنية عندنا. وإنك لترى ذلك المعنى ماثلًا في خروج الناس بعد الزيارة إلى الوراء موجِّهين أنظارهم إليها بخشوع حتى يبعدوا عنها، ولا ينصرفون إلا بعد أداء الركوع إليها من بُعد.

وفي جنوب الدائرة التي مر وصفها دهليز صغير يُدخَل منه إلى كهف فيه كثير من قبور البابوات، وآخر «بابا» رُسِمت صورته من المرمر ووُضِعت فوق غطاء الصندوق المدفون هو فيه واضعًا ذراعيه على صدره بهيئة صليبية. وفي نهاية الكنيسة من الجهة الغربية عرش كبير جدًّا يكتنفه من الجانبين أربعة تماثيل من البرنز المموَّه بالذهب تدل على العظمة والرهبة. ويمتد من هذا العرش طرق كثيرة محوطة من الجانبين بسياج من الخشب مثبتة فيها مقاعد يجلس فيها المطارنة والقسوس والعظماء حين يمر البابا من هذا العرش إلى العرش الذي مر وصفه ليصلي فيه والشعب أمامه ينتظر دعواته الصالحة وتبركاته.

وأرض هذه الكنيسة جميعها من الرخام الجيد يبلغ مسطحها ستين ومائة وخمسة عشر ألف متر، ويقال إنها تسَع خمسة وعشرين ألف نفس. وأغلب ما بها من التماثيل يدل على رموز دينية تاريخية تبين فضل البابا وتسلطه على الملوك والعظماء وانتصاراته الإلهية التي تدل على مكانته واحترامه ونصر الله له على جميع مخالفيه من الملوك وإتيانهم إليه صاغرين خاضعين، لما يرونه من المعجزات البينات التي تدعو المخالف إلى الطاعة والخضوع والخشوع، كرسم مَلَكين عظيمين خلف البابا أحدهما شاهر سيفه والثاني قابض على مطرقة يهددان مليكًا خالف رأيه وهو يتضرع إليهما، ويرجع إلى البابا ليغفر له خطيئة مخالفته جاثيًا على ركبتيه مادًّا ذراعيه يتوسل إليه بأنواع التوسلات.

ثم سرنا حتى وصلنا إلى باب كبير في ناحية الكنيسة من الجهة الجنوبية داخله يدفع خمس ليرات ليرى ما فيها من النفائس والعجائب والهدايا، فدخلنا فيه فرأينا نحو سبع حجر يقف الإنسان أمام ما فيها حائرًا مذهولًا، بها جميع هدايا الملوك والأمراء والعظماء إلى البابوات في العصور المختلفة، وبها أيضًا ملابس البابا التي يلبسها في الحفلات الرسمية الدينية، وكذا لبس المطارنة والقسوس كلها آية في الغرابة والإبداع. وأغلب تيجان البابا محلاة بأحجار الماس الكبيرة وأنواع الأحجار الكريمة التي يقل نظيرها، وكل ملك من ملوك الأرض له هدايا للبابا حتى ملوك العثمانيين والخديويين بمصر. وهذه النفائس الغريبة تُقدَّر بملايين الجنيهات، ولا أبالغ إذا قلت إنه مهما مُنِح الإنسان دقة الوصف

وإتقانه فليس في مقدوره أن يصل بوصفه إلى تمثيل الحقيقة، ومن أراد الوقوف على الحقيقة فليشاهد بنفسه ليرى ما لا عين رأت.

ثم صعدنا فوق سطح الكنيسة ومنه دخلنا بابًا يوصل إلى سُلَّم عددت درجاته فألفيتها عشرين وثلاثمائة درجة ولقد كلَّت قوانا في صعودها، حتى إذا وصلنا إلى نهاية علوها الشاهق أشرفنا على رومة وضواحيها فرأينا الشوارع والناس تسير فيها كأسراب النمل، ورأينا حديقة البابا الخاصة التي يقضي فيها أوقاته غاية في الإبداع والاتساع، سنتكلم عنها عند ذكر قصر الفاتيكان.

وعلى الجملة فإن كنيسة ماري بطرس تُعَد من عجائب الدنيا، ولا يتسنى لواصف أن يدخل وصفه إلى نفس القارئ مهما أُوتِي من القدرة على الوصف، فإن ما تحويه من الزخارف والنفائس والهدايا التي قُدِّر بعضها بنحو مليونَي جنيه لهو أكبر دليل على تقدير الناس وتعظيمهم لهذه الكنيسة دون سواها.

كنيسة ماري بولس

هي أهم كنيسة بعد كنيسة ماري بطرس التي مر وصفها، وهي في ضواحي رومة وصلنا إليها بعد نصف ساعة بالمركبة الكهربائية «الترام»، خارجة عن سور المدينة القديم، وهي من أعمال قدماء الرومانيين، احترقت مرتين في حوادث سياسية وأُعِيد بناؤها بشكل جميل يشبه بناء الجوامع الإسلامية. أُقِيمت على خمسة وثمانين عمودًا من الأعمدة الضخمة الصوانية والرخامية، بها بهو عظيم جدًّا مستطيل على جانبيه صنفان من العمد الضخمة، وبها خمسة أروقة منها الرواق القائم على هذه العمد بأعلاه صور جميع البابوات بهيئتهم الطبيعية وأزيائهم المنوَّعة في عصورهم المختلفة، زُخرِفت صورهم بالفسيفساء مرتَّبِين بحسب قدمهم من ظهور أول بابا إلى البابا الحالي. وقد هُيِّئَت عدة أمكنة لوضع صور من يموت في المستقبل من البابوات، وهي لا تقل عن الثلاثين مكانًا داخلة في الحائط ومحاطة بدائرة من نحاس أصفر. وبالقرب من الباب عمودان عظيمان من الرخام الأصفر الجميل الشكل أهداهما إلى البابا والي مصر محمد علي باشا الكبير مع أربعة أعمدة صغيرة وعدة ألواح أخرى، وكلها من نوع الرخام الذي بُنِي منه جامع القلعة.

وبها عشرة شبابيك كبيرة من الزجاج الملون عليها رسوم القديسين والملائكة ورجال الدين دالَّة على حياتهم الدينية وأعمالهم، وبها عدة مذابح مُنارة بالشموع. وفي جميع

نواحيها التماثيل الدينية الكثيرة وصور عدة للسيد المسيح والسيدة مريم. وسقفها مموَّه بالذهب الوهَّاج.

وليس بها مقاعد ولا كراسي مثل بقية كنائس رومة، فالناس فيها يحضرون الصلاة وقوفًا أو ركوعًا. ومدخلها من أحسن مداخل الكنائس عظمة وجلالًا، رُسِم على أعلى بابها من الخارج عدة صور جميلة تمثل بعض الحواريين ورجال الدين المشهورين يرعون الأغنام ويداوون منها الكسير والمسيح يرعى الجميع من فوقهم، وعن يمينه ويساره رسولان من رسله المقربين إليه. وبالجملة فهي غاية في الإبداع وحُسن المنظر، لها جلال وعظمة خاصَّان بها لا يوجدان في كنيسة أخرى.

كنيسة ماري حنا

هي الثانية من الكنائس القديمة، أمامها متنزه واسع غُرِست فيه أنواع الأشجار والأزهار يقصده كثير من الناس لاستنشاق الهواء النقي.

وإذا دخلت هذه الكنيسة يهولك منظر ما فيها من التماثيل الرمزية الدينية المختلفة أنواعها وأشكالها.

ويقابل الداخل من الباب ثلاثة سلالم، الوسط منها مقدس لا يصعده الإنسان إلا جاثيًا على ركبتيه يُقبِّل ما أمامه من درجاته فيعاني في ذلك صعوبة كبيرة، وهكذا يستمر في الصعود وتقبيل أرض الدرجات حتى يصل إلى النهاية، وقد عددتها فألفيتها نحو الثلاثين درجة. والناس يفعلون ذلك لاعتقادهم أن المسيح صعد منه، وقد رأيت ستة من الرجال والنساء يصعدون عليه بالهيئة المتقدمة، فاستوقف نظري هذا المنظر الغريب الذي يدل على وجود الخزعبلات الدينية في عقول بعض الناس مع انتشار العلوم الحقة وعدم الاكتراث بخرافات الأديان القديمة، التي كانت تسوق الناس سَوْق الأغنام إلى أعمال لا تنطبق على عقل ولا دين.

ولما كان ذلك مخالفًا لتعاليم الدين الإسلامي صعدتُ في أحد السُّلَّمَين الآخرين.

وقد أُخبِرنا أن درجات هذا السُّلَّم المقدس كانت بقصر حاكم أورشليم أيام المسيح وقد كان صعد عليه وقت محاكمته، ثم نقلتها إلى رومة القديسة هيلانة. ولشدة تقديس القوم لهذا السلم لا يسمحون لأحد بالصعود عليه إلا جاثيًا على ركبتيه حتى إذا صعد إلى أعلاه نزل من أحد السُّلَّمين المجاورين له.

كنيسة السيدة مريم

هي خلف بناء الجندي المجهول، ويقال إنها أول كنيسة شُيِّدت بروما باسم السيدة مريم. بردهتها الواسعة كثير من التحف والتماثيل والنفائس القديمة ما ليس له مثيل في كنيسة ماري بطرس، وشكل مبانيها ونظامها وهيئة تماثيلها تخالف بقية الكنائس الأخرى من حيث دقة التماثيل وعظمتها. بها مذبح عظيم أُقِيم فيه تمثال للسيدة مريم غاية في العظمة والجلال لا نظير له في الكنائس التي زرناها، فإذا وقف الإنسان أمامه شعر برهبة واحترام، يجلس أمامه راهب قد أكل عليه الدهر وشرب بإزائه صندوق تُوضَع فيه النذور والصدقات، وكثير من الزائرين يقبِّلون يده. ومما لفت نظري في هذه الكنيسة حجرة صغيرة يحرسها قسيس لا تُفتَح إلا بالطلب محلاة بالنقوش البديعة غاية في الزخرفة والجمال، يقابل الداخل باب صغير في نهايتها فتحه لنا القسيس، فانكشف عن حجرة صغيرة مُنارة بالشموع وبها تمثالان ليوسف النجار والسيدة مريم وبينهما تمثال يمثل المسيح وهو صغير، وقد أدار القسيس يدًا جعلت تمثال المسيح يخرج من بينهما أمامنا.

وهنا يأخذك العجب ويستوقف نظرك التاج الذي على رأسه المرصع بالماس الكبير والأحجار الكريمة اللامعة التي تخطف الأبصار بريقًا ولمعانًا، ويكسو جسمه طبقة كبيرة من أنواع الحلي من سلاسل وساعات ذهبية وخواتم وخلاخيل وجميع ما يمكنك أن تتصوره من أنواع الحلي المستعمل الآن. وهذه نذور وهدايا قُدِّمت لتمثال المسيح وهي تُقدَّر بمبالغ طائلة، إذا استُعمِلت في عمل عادت بالفائدة وأنقذت كثيرًا من الفقراء وأهل الحاجات والمعوزين.

هذا ولو أردتُ استقصاء كنائس رومة ووصف ما فيها لاستحال عليَّ ذلك ولفات الغرض من هذه العجالة، ولا يتسنى لشخص أن يأتي على وصف نحو ثلاثمائة كنيسة تحويها رومة وحدها، وكل كنيسة مختصة بميزة لا توجد بالأخرى، لأنها بُنِيت يوم أن كان للدين سلطان قوي على النفوس واحترام أكبر شأنًا وأعظم قيمة منه في العصر الحالي. وليس في الإمكان الآن أن يؤثر الدين على الناس فيغريهم كما أغراهم قديمًا لجمع القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، فيشيدون بها كنائس تشابه كنائس رومة وغيرها من الكنائس التي لا تُعَد ولا تُحصَى في أوروبا خصوصًا في إيطاليا وروسيا.

ولقد شاهدت من أهل رومة حين زياراتهم الكنائس ووقوفهم أمام الهياكل والتماثيل خاشعين خاضعين تائهين في بحار الأفكار، كأنهم في يوم حشر أكثر مما يدعو إليه الدين؛ لأن ذهاب أصابع رجل تمثال ماري بطرس من تقبيل الزائرين وصعود الناس جاثين على

ركبهم في بعض سلم الكنائس، وتقبيل أحجار درجاته وعدم السماح لأي زائر بالنزول منه ولا الصعود فيه إلا بالهيئة التي مر ذكرها، ووفود الناس من جميع جهات الأرض لحضور فتح الباب المقدس في كنيسة ماري بطرس، واعتقادهم أن المرور منه يوصِّل إلى الجنة مباشرة، وغير ذلك من الأعمال البعيدة عن التعاليم الدينية السماوية على اختلاف أنواعها. وكنت أعتقد أن بعض عامتنا حين زياراتهم للأضرحة يأتون بأعمال ليست من الدين في شيء، وأنهم انفردوا بها دون غيرهم من الأمم الأخرى، فإذا بهم دون غيرهم بمراحل كبيرة، وإن أعمالهم وخرافاتهم إذا قيست بأعمال أهل إيطاليا مع انتشار التعليم في بلادهم وتقدمهم ورقيهم لا تُعَد شيئًا مذكورًا.

قصر الفاتيكان

قصر الفاتيكان أكبر قصور العالم، له مدخل بجوار كنيسة ماري بطرس غاية في الفخامة والعظامة، محروسة أبوابه وطرقه وردهاته الواسعة بجنود ضخام الأجسام، حسان الوجوه، لهم أزياء مختلفة وأشكال منوعة. والقصر فسيح الأرجاء لا يدرك الطرف آخره لسعته وكثرة مبانيه الداخلة والخارجة، يحوي نحو ألف حجرة تختلف ضيقًا وسعة، كلها آية في الزخرف والجمال، إلا أنها غير متناسقة الأجزاء فإنها لم تُبْن دفعة واحدة وعلى أنموذج واحد، بل بُنِيت أجزاء متفرقة في أزمنة مختلفة، ولذا لا يجد الزائر تنسيقًا وترتيبًا ونظامًا ما يجده في القصور الأخرى، ولكن مهارة مهندسيها جعلت هذا النقص غير ظاهر.

كان هذا القصر صغيرًا، وكان مع صغره مسكن البابوات، لأن الدين على بساطته وتعاليمه القويمة كان مرتبطًا بالنفوس أشد الارتباط، وكان البابوات بعيدين عن زخارف الدنيا، متجردين عن حطامها ومتاعها، سائرين على قدم السيد المسيح، فقد سُئِل مرة عليه السلام: لماذا لم تبنِ لك دارًا تأوي إليها؟ فقال ما معناه: هل يحسن بالمسافر أن يبني دارًا في طريق سفره؟

وأهم ما فيه مصلى لأحد البابوات يُسمَّى «سكستين» نسبة إلى البابا سكسيت السادس الذي شيده. وهو غرفة مستطيلة يبلغ طولها نحو عشرين مترًا في عرض أربعة عشر، جدرانها مغشاة بنقوش أشهر النقاشين مثل «ميشل أنج» يمثل فيها كيفية خلق الدنيا كما ورد في التوراة، وخلق حواء من أضلاعه والملائكة من حوله، وسفينة نوح وهي تمخر عباب البحار، وكيفية رسوها على الجودي، وغير ذلك من خيالات المصورين.

صورة المسيح مغطًّى بالأحجار الكريمة.

وبجدرانها تاريخ موسى عليه السلام، وتاريخ المسيح وصلبه وتقييده وسيلان الدم من رجليه، وصعوده إلى السماء.

وللقصر باب آخر خلف كنيسة ماري بطرس، وهو الذي أُعِد لدخول السائحين، يدفع الداخل منه خمس ليرات ليرى ما جُمِع من تحف أهم بلاد الآثار، ففيه عدة حُجَر كبيرة جُعِلت للآثار المصرية، غاية في الإبداع تبذُّ كل الآثار جمالًا. وبه بهو مستطيل جدًّا رُسِم فيه كثير من الصور الرمزية والحوادث التاريخية، وألواح كثيرة كبيرة منوعة رُسِمت فيها الأشكال والأزياء قديمًا، وعدة ألواح كبيرة أيضًا رُسِمت فيها أشهر أنهار العالم حتى النيل بفروعه القديمة، موضِّحًا فيها كيفية الملاحة بالسفن الشراعية. وإذا نظرت إلى بعض

صوره من بُعد يُخيَّل إليك أنها حقيقية، وتماثيل من الرخام والمرمر والجص منوعة كذلك بل لا حصر لها. وفي نهاية هذه الردهة الطويلة التي يبلغ طولها نحو الخمسين مترًا عدة حُجَر يفتح بعضها في بعض، غاصَّة بالصور والتماثيل الغريبة التي تدل على كثير من الحوادث التاريخية، وعلى كيفية تسلط البابوات على جميع العالم وإتيان الناس إليهم صاغرين خاضعين. وفي بعض هذه الحجر عدة مصورين رُخِّص لهم في نقل بعض الصور، فتراهم مجدِّين لا يلتفتون إلى الزائرين لكثرة تأملهم وحصر أفكارهم فيما يصورونه.

ومما هو جدير بالذكر من هذه الصور الكثيرة المنوعة صورة حريق في أحد محال رومة يندلع لهيبه، والناس يفرون منذهلين خائفين تلوح على وجوههم سيماء الذعر والاضطراب والبابا يشرف عليها من حجرة فوق كنيسة ماري بطرس مشيرًا إلى النار بإصبعه، فتأخذ في الهبوط حتى تخمد، مما يدل على مقدار اعتقاد الناس فيه وعلو منزلته عند الإله.

وبهذه الحجرة عدة صور تمثل العلوم الرياضية والحكمة والفلسفة، وللبابوات أن يفتخروا بما جمعوه في قصرهم من معجزات الفنون الغريبة التي لا تُعَد ولا تُحصَى، مما يحسدهم عليه الأمراء والعظماء والملوك، لأن من يكون لديه صورة من صنع المصور العظيم روفائيل أو ميشل أنج يعتبر نفسه أسعد الناس، فما بالك بمن جدران غرف قصره وسقوفها مغطاة من صنع هؤلاء المصورين الذين بلغوا في فنهم درجات الإعجاز؟

وبقصر الفاتيكان مجموعة من الصور والتماثيل من صناعة الرومانيين القدماء، سواء وُجِدت في المعابد الوثنية أو في أطلال رومة القديمة أو في مدينة بومبي، وتزيد كل سنة مما يُستكشَف من أعمال الرومان، تدل على أن المتأخرين من النحَّاتين والمصورين لم يأتوا إلى الآن بمثل ما أتى به الرومانيون خصوصًا ما وُجِد منها في مدينة بومبي ونُقِل إلى متحف نابلي، فإن الواصف يعجز عن وصف حسنها وإتقانها وإبداعها وجمالها الفني.

ومما يلفت النظر حجرة كبيرة مقفولة لا تُفتَح إلا في أوقات معينة، نزلنا إليها من الدور العلوي عدة درجات لا تقل عن الثلاثين، آية في الغرابة، كانت مصلى لأحد البابوات، مُثِّل فيه الناس يوم الحشر وعرضهم على الخالق، وظهور الجنة والنار، والمقترفون للذنوب في حالة الاضطراب التي تعتري الإنسان عند قدومه على أمر عظيم، وأهل الجنة يلوح على وجوههم الفرح والسرور. وقد أُتِيحت لنا فرصة لم تُتَح لبعض السائحين وهي رؤية إصطبل البابا، فترى على يمين الداخل سيارة كبيرة، يطوف بها البابا حديقته الواسعة التي تكاد لا تُحَد اتساعًا، ثم رأينا نحو تسع عشرة سيارة وعجلة مصفوفة عن يمين

الداخل ويساره، كلها آية في الزخرف والزينة، وكل عجلة داخلها كرسي مطلي بالذهب يجلس عليه البابا، وأمامه كرسيان لجلوس المقربين إليه من الكرادلة. وقد انتهى بنا المطاف إلى أم العجلات وواسطة عقدها ويبلغ ارتفاعها نحو ثلاثة أمتار، وهي مغشاة من الخارج بالذهب، ومحلاة بالتماثيل البديعة التي يعجز الواصف عن وصف جلالها وعظمتها، وهي التي يركبها البابا أيام الأعياد والاحتفالات الدينية، وقد رأينا سرجًا أهداه السلطان عبد المجيد أحد سلاطين آل عثمان إلى البابا غاية في الجمال محلًّى جميعه بالذهب والماس الكريم الذي يخطف الأبصار بريقًا ولمعانًا. وكل هذه العجلات والسيارات لها سُلَّم مطوي ينبسط عند ركوب البابا، فيصعد عليه ليجلس على الكرسي المعد له. وقد سُمِح لنا بالركوب في العجلة الكبيرة فداخلنا حينئذٍ الغرور وأحسسنا الخيلاء. وإذا أشرفت على حديقة الفاتيكان من أعلى قبة كنيسة ماري بطرس رأيت حديقة لا يحدها البصر، بها كثير من التلال المكسوة سقوفها وأعلاها بأنواع الأزهار والأشجار، تتخللها البحيرات الجميلة الترتيب والتنسيق، تحفها الخضرة النضرة والأزهار الجميلة المتنوعة، يصدق فيها قول شاعر الشرق الكبير شوقي بك:

ولقد تمر على الغدير تخاله والنبت مرآة زهت بإطار

يقطع البابا وديانها وروابيها، وأنجادها وأغوارها بسيارة خُصِّصت للسير فيها، فهو يقضي أغلب أوقاته في متنزهاتها، مستغنيًا بها عما عداها فلا يخرج للنزهة إلا فيها، ولا يركب زورقًا إلا في بحيراتها ومجاريها. وأعتقد أن أكبر ملوك الأرض ليس بقصره حديقة تشابهها أو تدانيها، فهي جنة عالية، قطوفها دانية، أكلها دائم، ظلها ممدود وطلحها منضود.

وبالجملة فالواصف القدير يعجز عن أن يوفي قصر الفاتيكان حقه من الوصف، مما يدل على ما للبابوات من السلطة على نفوس البشر، وعلى مقدرتهم التي فاقت مقدرة الملوك العظام، وعلى ما لهم من المكانة والمنزلة في قلوب المسيحيين.

الكلوزيوم

عندما تشرف على ظاهر البناء من بُعد يهولك منظره ويأخذك العجب لقيام الرومانيين بمثل هذا البناء الضخم، وتستدل منه على ما كان لهم من صبر وجلد وعلو همة.

داخل الكلوزيوم برومة.

وهو بناء ضخم جدًّا شُيِّد على هيئة أسطوانة، ويبلغ ارتفاعه عن سطح شوارع رومة ثمانية وأربعين مترًا في عرض سبعة وثمانين ومائة، وهو يؤلَّف من أربع طبقات، وفي وسطه مسرح يبلغ طوله نحو خمسة وثمانين مترًا، وداخله مدرج «أنفتياترو» يسع نحو الخمسين ألف متفرج، وقد شُيِّد خارجه بالأحجار الضخمة التي تقرب من أحجار الأهرام بالجيزة وداخله بالآجُرِّ (الطوب الأحمر)، وهو مقام على عدة حنايا (بواكٍ) بُنِيت بالأحجار الضخمة، يفصل كل حنية عن الأخرى ممر متسع يبلغ نحو ستة أمتار. وله أربعة أبواب ضخمة جدًّا، في كل واحد منها سلم عريضة يصعدها الإنسان ليصل إلى درجات المدرج داخل الكلوزيوم فيشرف على المسرح، وبين كل حنيتين باب أقل ضخامة من الأول. وكله نوافذ من الخارج، تصغر كلما ارتفع هذا البناء حتى تصير كوة صغيرة. ويخيل إليك بادئ ذي بدء أنه قلعة عظيمة جدًّا شُيِّدت لصد أكبر غارات الفاتحين.

وقد تهدم أكثره الآن، وأُخِذت أحجاره لبناء القصور والكنائس، كما أُخِذ منه جميع ما كان به من الرخام والبرنز والتماثيل. وبأسفله عدة أسراب شُيِّدت بالأحجار الكبيرة، أُعِدت لسجن أشد الناس إجرامًا، وكذا لاعتقال الأسرى وبعض الحيوانات المفترسة التي أُعِدت لافتراس المذنبين والمجرمين. وقد كان الكلوزيوم مشهدًا عظيمًا لاقتتال بعض المصارعين أو مصارعتهم الوحوش الكاسرة، فإذا تغلب المصارع على رفيقه وطرحه أرضًا لا يمسه

بأذى إلا بإذن من الشهود الذين أشرفوا على المصارعة، فإن كان المغلوب قد أحسن الدفاع عن نفسه أشاروا بالإبقاء عليه، وإن أظهر الجبن والخور ولم يحسن الدفاع أشاروا عليه بقتله بلا رحمة.

ومن عادة المصارعين أن يحيوا الإمبراطور عند دخولهم المصارعة بقولهم: «إن الذين سيموتون يقرئونك السلام.»

وقد هُيِّئت فيه أمكنة لاعتقال المسيحيين وتعذيبهم وتقديمهم للوحوش المفترسة التي كانت تمزقهم شر ممزَّق على مرأى ومسمع من الرومانيين ولا تأخذهم بهم رحمة، ليقتلعوا أصول الدين من نفوس هؤلاء المساكين، إلا أن هذا الاضطهاد وذلك التعذيب الشديد وتلك الأعمال الوحشية القاسية لم تأتِ بفائدة، ولم تضعف من قوة هذا الدين الذي كانت تعاليمه الحقة عالقة بنفوس القوم، بل أنتجت عكس ما يريدون فإنه أخذ ينمو شيئًا فشيئًا إلى أن اعتنقه الإمبراطور قسطنطين وزوجته هيلانة المعتبرة في نفس القوم قديسة يتبركون بها، ولها عيد مخصوص يحتفلون به كل سنة، وقبرها برومة في كنيسة «سان جواني دي لتران».

وكذلك كان مستعمَلًا لمصارعة الثيران كما هي الحالة في إسبانيا الآن، فكان ملهى للإمبراطور وعظماء الرومانيين يقضون فيه وقتًا طويلًا لرؤية هذه المناظر الوحشية، يميلون طربًا ويصفقون عجبًا لمشاهدة الدماء تسيل من الحيوان أو بني الإنسان، وسُمِّي بالكلوزيوم أو كلسيوم لوجود تمثال نيرون الجبار في جواره، فقد كان يُسمَّى «كلوس» أي الضخم العظيم، وهذا التمثال موجود الآن. ويقال إن الذي قام بتشييد هذا البناء العظيم هم أسرى اليهود.

على أني لا أعجب كثيرًا إذا ضاهيت هذا الأثر العظيم بأهرام الجيزة العظيمة، وآثارنا الكثيرة المنتشرة في الصعيد وفخامة القبور وزخرفها، إلا أن هذا لا يمنعني من الاعتراف للرومان القدماء بالسبق في النحت والتصوير وإتقان التماثيل والبلوغ بها في الحسن والجمال إلى درجة الإعجاز، فإن ما يوجد بقصر الفاتيكان برومة ومتاحف نابلي وفلورنس والكنائس وغيرها من القصور، لما يحيِّر الإنسان ويجعله عاجزًا عن وصف حسنها.

حمام الإمبراطور كركلا

هذا الحمام الكبير الواقع في أطراف رومة يصل الإنسان إليه بعد سير نصف ساعة بالعجلة، وقد امتطينا عجلة أوصلتنا إليه، وهناك هالني منظره لكبره وسعته وضخامة بنائه مع أن أكثره قد تهدم.

حمام كركلا برومة.

يدخله الزائر بعد أن يدفع خمس ليرات (خمسة قروش صاغًا)، فيرى عن يمينه ردهة واسعة جدًّا تبلغ مساحتها نحو ستمائة متر، أُعِدَّت لخلع ملابس المستحمين كما أخبرنا بذلك المترجم. وعن اليسار ردهة أخرى أكبر من الأولى اتساعًا، يدخل إليها الزائر من باب ضخم عظيم الارتفاع والاتساع يناسب هذا البناء، كانت تُستعمَل بعد الاستحمام للألعاب الرياضية بأنواعها، وفي أعلاها عدة شرفات (بلكونات) يشرف منها الإمبراطور «كركلا» والأمراء والوزراء على اللاعبين. ومن هذه الردهة يصل الإنسان إلى بناء واسع خلفها يحوي أربعة مغاطس للماء مصنوعة من الرخام في زوايا هذا البناء، ومن هذا البناء يُفتَح باب يوصل إلى ردهة واسعة جدًّا تبلغ مساحتها نحو سبعمائة متر، تُستعمَل لرياضة النساء وألعابهن المنوعة، وقد رأينا فيه آثار فرن كبير يولِّد تيارًا من البخار الساخن، فيه يُدْهَن الجسم بالزيوت العطرية ثم يدلَّك بطريقة فنية كالتي تُستعمَل الآن في بعض الأمراض؛ وحمام حار وآخر بارد يُستعمَل للسباحة، وكانوا يستغرقون في استحمامهم زمنًا طويلًا.

وقد كان للحمامات أيام الرومانيين شأن كبير، فكان الناس يقصدونها من جميع الجهات فيقضون فيها عامة اليوم، وكان بها محالُّ كثيرة للسباحة ومكاتب للمطالعة وقهوات، وغير ذلك مما يسهِّل على المستحم قضاء يومه في سرور وفرح عظيمين.

وحمام كركلا أكبر حمام وُجِد قديمًا وحديثًا، فإنه يشغل مكانًا مربعًا طول كل ضلع من أضلاعه ثلاثون وثلاثمائة مترًا في عرض أربعة عشر ومائة، وكان به على ما ذكر بعض المؤرخين ستمائة وألف حجرة إفرادية عدا الأروقة العمومية، وكانت كل جدرانه مكسوة بالرخام وأرضه بالفسيفساء، وكان مزينًا بالنقوش والتماثيل البديعة، وقد أفرغ فيه الإمبراطور أقصى همته ليجعله أكبر ملهى يقصده أعاظم الناس من جميع الجهات، ولكن لم يبق الآن منه شيء إلا حوائطه المتداعية وأرضه الوعرة ورخامه المتكسِّر، سطت عليه يد الزمان فقوضت منه الأركان، وامتدت إليه يد الإنسان فسلبته ما كان له زينة وفخرًا، فأصبح في خبر كان بعد أن كان زينة البلدان.

وقد كان يسع على ما قاله بعض المؤرخين ستة عشر ألف مستحِمٍّ في وقت واحد، وكان أهل رومة يقصدونه للهو واللعب والاستحمام، وكذا ملوك نابلي للإقامة فيه بعض أيام تُعَد من أيامهم اللذيذة.

الفورم

مبنى عظيم الاتساع تتخلله عدة ردهات، وطرق واسعة مقامة على عدة أعمدة من الرخام وغيره غاية في الفخامة والعظامة، وهو منخفض عن سطح شوارع رومة، طغت عليه يد الحدثان فحطمته تحطيمًا وأُخِذ ما فيه من العمد الكثيرة والتماثيل المتعددة لاستعمالها في تشييد الكنائس وبناء قصور الملوك، ولم يبقَ منه الآن إلا أنقاضه وبعض أعمدة محطمة، فإذا أشرفت عليه من بعض نواحيه العالية رأيت عظمته وفخامته. ينتشر السائحون في نواحيه يتأملون سعته ومبانيه، وقد رُخِّص لكثير من المصورين في رسم ما بقي من أطلاله فتراهم منكبين على تصوير مناظره، تارة باليد وأخرى بآلة التصوير الشمسي. شيده قدماء الرومانيين ليكون محل اجتماع أفراد الأمة للمناقشة والمباحثة في أمورها وأحوالها العامة، وللانتخابات الدورية والمظاهرات السياسية وكل أمر يهم الأمة ويرقيها ويعود عليها بالفائدة المادية والأدبية.

وكان به عدة محال للعبادة، وبعضها لاجتماع أشهر تجار البلد، وبعضها لاجتماع كبار رجال الحكومة.

ويشطره ممر كبير مرصوف بالأحجار، وعلى جانبيه طواران (تلتواران)، وعلى ذلك الممر أُقِيمت عدة أقواس للنصر، أقامها الرومانيون عقب انتصاراتهم على الأعداء تخليدًا لانتصاراتهم وبقاءً لذكرهم على ممر الدهور والأعوام. وبعضها باقٍ للآن بحالة جيدة ترى

على سطحه عدة نقوش ورسوم غاية في الإبداع، وهو قوس قسطنطين أول من اعتنق النصرانية من الملوك الرومانيين وهو الذي بنى القسطنطينية. وقد ذكر بعض المؤرخين سبب تنصره ننقله للقراء استطرادًا؛ قالوا: «إنه كان يحارب منافسًا له على الملك اسمه «مكسنس» وكاد هذا يتغلب عليه، وقبل ليلة الموقعة الفاصلة ظهر له السيد المسيح عليه السلام، ووعده بالنصر والفوز إن هو اعتنق الدين المسيحي، فاستيقظ قسطنطين من نومه معتقدًا ألوهية المسيح، فحارب عدوه فكان النصر حليفه فتنصر هو وجيشه.»

ومن ذلك العهد ارتفع الضغط والاضطهاد عن المسيحيين، وقد حوَّل كثيرًا من معابد الوثنيين إلى كنائس وبنى هو كنيسة في جانب من الفورم باقيًا منها إلى الآن ثلاث قباب غاية في التناسب والزخرف، ويقال إن كنيسة ماري بطرس بقيت على حالها.

وعلى جميع سطوح الأقواس الباقية إلى الآن نقوش بارزة، تمثل الوقائع الحربية وانتصاراتهم المتعددة.

وما بقي من تماثيل الفورم سالمًا نُقِل أغلبه إلى متحف الفاتيكان وإلى متاحف المدن الأخرى، وهي أجمل ما في المتاحف.

وأغلب ما في رومة من أعمال الرومانيين القدماء خربته الأمم الشمالية التي أغارت على رومة، وما بقي منه امتدت إليه الأيدي فسلبت محاسنه، والبعض منه طمسته الأتربة والأنقاض وبقي زمنًا طويلًا، حتى قام جماعة من المغرمين بالبحث عن آثار رومة القديمة فأخذوا يحفرون الأرض ويرفعون الأتربة المتراكمة، وأقاموا ما وجدوه من الأعمدة حتى يعيدوا إليه منظره وبهاءه، ونقلوا كثيرًا من النفائس ذات القيمة التاريخية.

قصر الملك

يُرَى القصر من الخارج معطَّلًا من الحلية والزخرف والتماثيل التي تكثر عادة في قصور الملوك خصوصًا في إيطاليا، إلا أن داخله يذهل العقل ويحير اللب ويستوقف النظر.

وللسائحين اهتمام خاص بمشاهدته، ولكنه لا يُفتَح لهم إلا مرتين في الأسبوع مقابل كل زائر ليرتين. وإنك لترى مدخله فخمًا جليلًا، وله سلم عريض من الرخام البديع مكسوة درجاته كلها. والترخيص يسبق الزيارة بيوم أو يومين. ويرى الزائر له حجرة هي غاية في الزينة والزخرف، مموَّهة بعض جدرانها وسقوفها بالذهب، محلَّاة بالتماثيل والصور البديعة الصنع والإتقان، والتي تدل على رموز مختلفة بين حربية ودينية وسياسية. وبالحُجَر الأثاث الفاخر من البسط والثريات الضخمة والطنافس والأرائك والتحف التي

لا تُعَد ولا تُحصَى، ولا سيما في الحُجر المعدة لجلوس الملك والوزراء فإنها آية في الغرابة والإبداع.

تمثال فكتور عمانويل الثاني بروما.

وقد أدى بنا المطاف إلى حجرة الجلوس بعد الفراغ من تناول الطعام، وهي حجرة يقف الزائر أمامها حائرًا ذاهلًا لكثرة المرايا والتماثيل الكثيرة تحمل سقفها أعمدة محلَّاة بالذهب. وكلما وصلنا إلى حجرة نعتقد أنه لا يوجد أحسن منها، فلا تلبث أن تظهر لنا الغرائب والعجائب من حُسن الحجر وزخرفها وجمال تماثيلها وتنسيقها وترتيبها، ولذا تجد أبصار السائحين معلقة شاخصة إلى سماء الحجر كأنهم قوم موسى ينظرون إلى الصخرة التي هددهم الباري بها، لا يلتفتون إلى من بجوارهم لكثرة التأمل والتفكير، وكيف وصلت يد الإنسان وفكره إلى ابتداع ما وُجِد فيها من التماثيل والصور والنقوش التي ترمز لحياة كثير من ملوك رومة، وما كانوا عليه في حروبهم واحتفالاتهم وانتصاراتهم، ومن أين أتت كل هذه الأموال التي ساعدت على إبراز هذا الحسن والكمال والجمال.

والذي يلفت النظر بنوع خاص حجرة الملك التي فيها يقابل الزائرين، فإن الواصف مهما أُوتِي من سعة الاطلاع ودقة الوصف لا يتسنى له أن يوفيها حقها من الوصف، ولا تقل عنها كثيرًا حجرة انتظار الأمراء والعظماء. وما زلنا ننتقل من حجرة إلى حجرة وسط زحام السائحين نتناكب ونتساند يدفع بعضنا بعضًا لشدة الزحام حتى وصلنا إلى حجرة كبيرة جدًّا مستطيلة فخمة أُعِدَّت لصلاة الملك، قد رُسِمت في صدرها صورة السيد المسيح عليه السلام عن يمينه ويساره الحواريون بصور بديعة، يُخيَّل للناظر إليها أنها خارجة عن الحائط وهي ليست بخارجة، ولذا كنت لا أصدق أنها صورة حتى ألمسها بيدي فتظهر لي الحقيقة كلها، وهي مصنوعة من الفسيفساء الجميلة. وقد دخلنا بعد ذلك حجرة واسعة مربعة الشكل رُسِم على جدرانها صورة حرب الإيطاليين والطرابلسيين، وكيفية انتصارهم وأخذ بعض أهل طرابلس رجالًا ونساءً وأطفالًا وأمراء وعظماء وقوادًا أسرى بأزيائهم وعاداتهم بحالة ذل وهوان، وغير ذلك مما لا قدرة لواصف على وصفه وتصوير حقيقته للقارئ. وبالقصر حديقة اشتُهِرت في رومة بالحسن والجمال، وهي غاية في حُسن التنسيق والترتيب.

وقد كان معنا في هذه الزيارة كثير من المصريين، منهم حضرة الدكتور الشوربجي وحضرة إسماعيل محمد بك ممثل مصر في إيطاليا، وحضرة الشيخ الخولي إمام السفارة في رومة. وإن ما في هذا القصر من الصور والتماثيل والنقوش البديعة والزخرف والزينة لا يقل كثيرًا عما في قصر الفاتيكان.

ميدان الشعب

ميدان فسيح الأرجاء، متسع النواحي، واقع شمالي رومة، أُقِيمت في وسطه مسلة مصرية بجانبها نافورتان تقذفان الماء من أفواه تماثيل من السباع، والمسلة مقامة على قاعدة واسعة جدًّا كالمسطبة يجلس عليها الناس لمشاهدة صعود المياه من النافورتين المذكورتين، وفي شرقي الميدان وغربيه نافورتان أخريان يخرج الماء منهما على منبسَط من النحاس (صينية) لينحدر من جميع النواحي. ويحيط بهذا الميدان سور من الشرق والغرب، أما من الجهة الشمالية فتُفتَح فيه ثلاثة أبواب ضخمة، وسطها باب عظيم الاتساع كان يُقفَل قديمًا من الساعة السادسة مساء فلا يدخل أحد من السكان ولا يخرج، ويتفرع من جهته الجنوبية ثلاثة شوارع مهمة الأوسط منها أطولها وأعظمها ويُسمَّى شارع «الكورسو»، وبه أهم الحوانيت المكتظة بالسلع الغالية والقهوات الجميلة فهو مركز حركة المدينة، وفي

طرفه الآخر ميدان البندقية وبه مجتمع خطوط الترام، وبالقرب من هذا الميدان تمثال هائل للملك فكتور عمانويل الثاني.

وفي الشمال الشرقي من الميدان المتقدم متنزه متسع جميل جدًّا يُسمَّى «بتشو» غُرِست أشجاره الضخمة وأزهاره الجميلة المنوعة على تلال عالية، يُصعَد إليه بطريق حلزوني سهل الميل تصعد فيه العجلات بسهولة، وإذا صعدت إلى أعلاه أشرفت على المدينة كلها ورأيت سطوحها ومبانيها تحت نظرك ذات منظر بهي جميل.

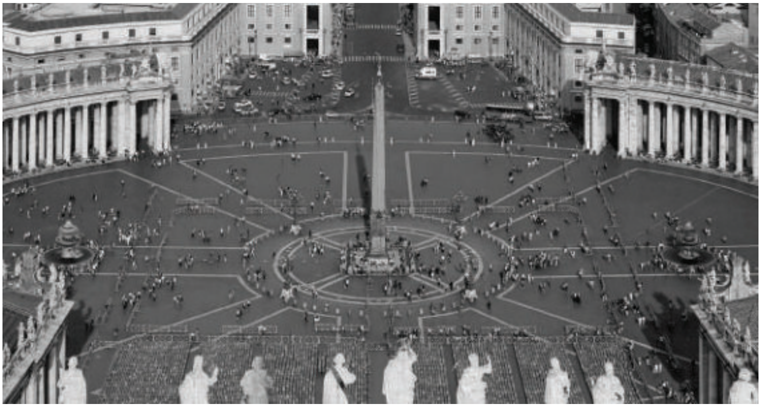

ميدان الشعب برومة.

مشاهدة الاحتفال في ميدان الشعب

وبعد تناول العشاء ذهبنا لنرى احتفال الأمة والحكومة بمساعدة الإنسانية في أشخاص من أُصِيبوا في الحرب بعاهات مستديمة، فوجدنا الشوارع الثلاثة الموصلة لميدان الشعب مسدودة بثلة من الجنود والشُّرَط الفاشستي لا يسمحون لأحد بالدخول إلا بعد أن يدفع خمس ليرات إذا لم يكن من الجنود، فدفعنا ما يدفعه الأهالي ودخلنا الساحة حيث كانت الساعة التاسعة والنصف مساءً، فوقفنا في الساحة بين الجماهير الذين لا يُحصَوْن عددًا، وقد حدث من العامة في هذا الاحتفال الكبير الصفير والصراخ والجلبة كما يحدث عندنا في الاحتفالات العامة.

وما زلنا منتظرين بين هذه الجموع التي لا تقل عن مائة ألف نفس ما بين رجال ونساء وأطفال، والصغار يلحون في أثناء ذلك بالبدء في الألعاب كما يفعلون في مسارح التمثيل عندنا حتى وافت الساعة العاشرة، وهنا انطلق مقذوف في الجو أحدث فرقعة هائلة اضطرب لها كل المتفرجين، ثم ابتدأت النيازك (السواريخ) تتابع كما يُفعَل عندنا في مولد النبي ﷺ، وإنما ظهرت أشكال وأنواع في هذه الألعاب لم أرها من قبل؛ ظهر فيها صور راكبي الدراجات يتسابقون حول دائرة فمنهم من سبق ومنهم من وقع ومنهم من عثرت دراجته فصار يعالجها معالجة كبيرة، مما جعل المتفرجين يغرقون في الضحك، وبعضها تسبح الأسماك فيها، وصور الطيور من النار تحلق في الجو. وفي لعبة ظهرت صورة الملك وبجواره السنيور موسوليني ورجال الفاشستي، فأخذ الناس هنا في التصفيق الحاد. وغيره مما لفت الأنظار. وفي أثناء ذلك تشق مقذوفات نيازك أخرى بطون الجو، ويتولد منها عدة كرات مختلفة الألوان والأشكال تُحدِث فرقعات منوَّعة، ثم تنتهي بفرقعة هائلة لها دوي يزعج الناس ويجعلهم ينكمشون من شدة دويِّها، وتتخلل كل ذلك أنغام الموسيقى المشجية. ثم انصرفنا حين وافت الساعة الحادية عشرة ولم تنته بعد.

فقلت: بالله ما أسرع الأمم المتمدينة الراقية إلى مدِّ يد المعونة إلى أبنائها البررة الذين فقدوا لذة الحياة من أجلها وأُصِيبوا بداء عضال في ميدان التضحية والمدافعة عنها! فهم الآن يقابلونهم بعطفهم، ويخففون ويلاتهم بجودهم وكرمهم، ويجففون دموعهم بسخائهم وذهبهم، ويردون غائلة الفقر عنهم بحنوِّهم، وينزعون من صدورهم الغل بمساعدتهم.

فِلَّا برجيزي

وبجوار ميدان الشعب متنزه «برجيزي» وهو متنزه واسع لا يدرك الطرف آخره، ذو أشجار ضخمة وأزهار كثيرة وطرق متسعة وحشائشه جمة، يقصده كل من يريد استنشاق الهواء العليل، به محالٌّ للحيوانات البرية المتوحشة يحيط بها سياج من الحديد المتين، وبه متحف جميل يدخله الزائرون مجانًا فيرى فيه ما اخترعه أهالي إيطاليا من المصنوعات داخل بلادهم وخارجها، مما يدل دلالة واضحة على ذوق الإيطاليين في الرسم والتصوير، واعتنائهم بعرض ما يصنعه المهاجرون الإيطاليون حتى يتمثل أمام الناظر صورة الجمال الفني الإيطالي.

والمتنزه كبير المرتفعات والمنخفضات داخله قهوات وبارات وملاهٍ كثيرة متعددة منوَّعة وبحيرات تسبح فيها الطيور والأسماك، وبه عاديات الرومان القديمة المشتملة على

بحيرة حديقة برجيزي برومة.

أدق التماثيل وأحسنها وأكبرها حجمًا، وتنتشر به الناس عصرًا انتشار الجراد يستظلون بظل أشجاره الوارف ويوغلون في عطفاته ومنحنياته، ويصعدون سلالم جميلة ليصلوا إلى أشجاره وأزهاره المغروسة فوق تلاله وهضابه ثم ينزلون من أخرى، وتخترق فجاجه المتسعة وطرقه المتعددة السيارات والدراجات والعجلات، وقد يضل السائر فيه لسعته وكبره وكثرة مسالكه وتشعب طرقه.

وقد عُنِي بالجزء المجاور لميدان الشعب فنُسِّق أحسن تنسيق ورُتِّب أحسن ترتيب وظهرت أزهاره بجمالها البديع ورونقها الجميل، يشتمل على أبهى المسالك وأحسن الطرق المرصوفة بدِقاق الحصى ومستوي الأحجار، وأُقِيمت في طرقه وجوانبه أفخم التماثيل لأعاظم الرجال.

ومن حُسن المصادفة أني دخلته يوم الأحد وهو يوم احتُفِل فيه بإعانة من أصابتهم الحرب بعاهة مستديمة، فانتشر في طرقاته الشرطي الفاشستي بملابسه الزرقاء والسوداء

فلبس حلة من الزينة وبرز في أبهى مناظره، وهم يغدون في طرقاته ويروحون. وقد علمت من هذا أن الاحتفال سيكون الليلة في ميدان الشعب.

وهنا أختتم الكلام على مشاهد رومة مقتصرًا على ما يهم القارئ، مقرًّا بعجزي عن وصف ما رأيت معترفًا بتقصيري، لأن للرومان من الآثار والمتاحف ما يملأ وصفها المجلدات.

من رومة إلى فلورنس

لما اعتزمنا السفر إلى مدينة فلورنس ركبنا عجلة من الفندق حين كانت الساعة الرابعة والنصف مساءً، ولما وصلنا إلى محطة رومة وأردنا الدخول لركوب القطار حجزوا بعض حقائبنا، وهذه أول مرة فيها تصدَّوْا لنا في سفرنا فأخذوا الحقيبة الكبرى، وجعلوها طردًا بعد أن دفعنا أجرتها ست عشرة ليرة، ثم انتظرنا في القطار حتى وافت الساعة الخامسة والنصف. وكان هذا اليوم من أشد الأيام التي رأيناها في رومة، إذ كانت الأعاصير شديدة والجو مجلَّلًا بالغيوم، فانتظرنا منه شرًّا وفيرًا ومطرًا غزيرًا. وقد قام القطار من المحطة، التي لا تضارع محطة القاهرة فخامة وسعة وعظمة، يخترق أرضًا ليست خصبة بل كلها تلال ووهاد ووديان ومزارع حقيرة، يرتعيها البقر الأبيض الذي يشوب بعض جلده الكدرة والخيول الحمراء وبعض الأغنام، فتارة يعلو بنا وتارة ينحطُّ وأخرى يجتاز نفقًا وطورًا يسير بين تلَّيْن عظيمين يكاد القطار يحف جوانبهما.

وإذا نظرت إلى الأرض من بُعد لا تجد بها جزءًا مدحورًا، بل جُلُّها تلال ووهاد وجبال تكسو سطوحها الأشجار الكثيفة، والوديان تجري بها مياه الأمطار نقطع فجاجها على قناطر معلَّقة فوق مجاريها، فيحدث من كل هذا منظر بهيٌّ ترتاح إليه النفس وتُسَرُّ منه العين. ولو سَرَّحت نظرك في عمرانها لوجدت القرى الجميلة منتشرة على سفوح الجبال وفوق التلال وفي بطون الوديان، لها طرق ممهَّدة جميلة تحفها من جانبيها الأشجار الباسقة، فيُخيَّل إليك أن القاطن بها لا يشكو مرضًا ولا علة، تنتشر بها المصابيح الكهربائية ليلًا في طرقاتها وشوارعها فتُحدِث منظرًا بديعًا. ولو وُجِدت هذه القرى مع مناظرها وتلالها وجبالها في بلادنا، لكانت مصيفًا شهيًّا تُشَدُّ إليه الرحال من كل صوب وحدب.

ولو ضاهيت قرانا بها لوجدت البون شاسعًا والفرق عظيمًا؛ هذه بؤرة القاذورات، ومسرح الجراثيم القتَّالة والأمراض، وعنوان التأخر في الصحة والانحطاط، بعيدة كل البُعد عن كل معدات النظافة، شوارع ضيقة وأزقَّة قذرة وأكوام من الأوساخ والأقذار متراكمة أمام المنازل وفوق السطوح وفي كل ناحية سلكت. أما تلك فهي عنوان الرقي والحضارة، شُيِّدت على نظام بديع وترتيب جميل، تكاملت فيها شروط الصحة، تحف بها الحدائق من كل جانب، وتعلو نوافذها الأزهار والأشجار الجميلة ذات الرائحة الزكية، يشتهي الإقامة بها كل إنسان من غير أن يشعر بسآمة ولا ملل.

وبعد أن سار القطار بنا نحو ساعتين في تلك المناظر والمشاهد الجميلة قصف الرعد وزمجر، ولمع البرق وأنذر، فأعقبهما هطول الأمطار التي كانت تكثر في طرقات القطار فتتسرب إلى الحُجَر والسقفُ من فوقنا يَخِرُّ والبرد آخذ في الشدة، فأمسينا في شتاء وبرد قارس.

ولو كان القطار مزدحمًا بالركاب لأصبحنا في حالة ضيق وعناء، لأنا كنا ننتقل من المكان المبلل إلى الجفاف.

ولقد عجبت كثيرًا لحكومة متمدينة من شأنها أن تسهر على راحة الأمة تهمل حالة السكك الحديدية إلى هذه الدرجة الممقوتة، فلا تحتاط لمنع تسرب الأمطار من سقف المركبات على الراكبين مع علمها بكثرة حدوث الأمطار في بلادها. وقد كان القطار بعد أن يقطع شوطًا كبيرًا يقف على محطات لا تضارع محطات بنها وطنطا وكفر الزيات وغيرها، بل كلها قرى صغيرة ليست ذات قيمة خالية من كل أسباب الراحة، فلا تجد فيها من الباعة غير بائعي الخبز المحشوِّ بلحم الخنزير (سندوتش) فإذا جاع المسافر فلا يجد ما يمسك به رمقه، ولقد ظمِئت فبحثت عن ماء فلم أحصل إلا على زجاجة ماء معدني بعد انتظار كبير من محطة إلى أخرى، وهذا الماء المعدني لم أعتَدْ شربه فكنت أتجرعه ولا أكاد أسيغه، ولكن:

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبًا فما حيلة المضطر إلا ركوبها

وتوجد مركبة أكل في كل قطار إلا أنها لا تُفتَح إلا في مواعيد تناول الطعام، فالحصول على شيء منها متعسِّر في غير تلك المواعيد.

وقد أخذ المطر يزداد شيئًا فشيئًا حتى انهال علينا من فوقنا ومن تحت أرجلنا فابتلَّت ملابسنا، فوقفنا في ناحية من المركبة تفاديًا من الخطر وماء المطر. وما زلنا كذلك

حتى وصلنا إلى محطة فلورنس في الساعة الثانية عشرة ليلًا، فقابلَنا مندوبو الفنادق على المحطة فاخترنا أن ننزل في فندق «أنجلو أمريكان»، فركبنا عجلة سارت بنا في شوارع هادئة ساكنة قد بلَّلها المطر فأمست لامعة بديعة المنظر، حتى وصلنا إلى الفندق، فقابلَنا أحد المستخدمين بنشاطه فتسلم حقائبنا بعد أن نقدنا الحوذي ثماني ليرات، وأصعدنا في الرافعة إلى الطابق الثاني وأدخلنا حجرة جميلة الشكل مفروشة ببساط جميل، فغسلنا وجوهنا ونمنا مستريحين إلى الصباح. وبعد أن استيقظنا من النوم وتناولنا طعام الإفطار، قصدنا مدير الفندق لنعلم منه مقدار أجرة المبيت وقيمة طعام اليوم، فأخبرنا أنها ست وسبعون ليرة. وقد كنا قرأنا في الجرائد أنها لا تزيد عن خمس وخمسين ليرة فأخبرناه بذلك، وما زلنا به حتى أجابنا إلى طلبنا خاليًا من ضريبة الحكومة والخدم وهي عشرة في المائة لكل منهما. والفندق جميل جدًّا ومن أعظم الفنادق في فلورنس من حيث الموقع والأجر والطهي، ولذا تجده دائمًا غاصًّا بالسائحين خصوصًا الأمريكان الذين لا يخلو منهم مكان. وجميع حُجَره مفروشة بالأبسطة الفاخرة، وأسرَّته غاية في الجمال والنظافة، بها صنبوران أحدهما للماء البارد والآخر للساخن، وأثاثها من أفخر الأثاث. وبه ردهة واسعة جدًّا، تزينها عدة أشجار جميلة ومعزف تعزف عليه الأمريكيات ويرقصن على نغماته الشجية. وبه مكان مخصص لمطالعة الجرائد والمجلات وآخر لكتابة الخطابات، وغير ذلك مما يريح السائح وييسر نفسه ويشرح صدره. وخَدَمه غاية في النظافة والنشاط، يلبون دعوة الداعي بنشاط ولطف. ومما يستحق الذكر أن أخلاق أهل فلورنس تخالف أخلاق أهل نابلي لما فيهم من اللطف والذوق والهشاشة، وليس لهم جفاء أهل رومة ولا فظاظة أهل نابلي، وأصحاب الحوانيت منهم يقابلون الزائرين بوداعة ويعرضون عليهم سلعهم بهمة ونشاط ورغبة، ويريحون الشاري ويبحثون عن رغبته بدون ملل.

(١) فلورنس

هذه المدينة واقعة في سهل منبسط، ولذا تجد شوارعها وطرقاتها مستوية ليس بها ارتفاع وانخفاض كشوارع رومة، ممتدة من الشمال إلى الجنوب بين جبلين قد كُسِيت سفوحهما وقممهما بالأشجار الباسقة.

يشقها نهر أرنو فيشطرها شطرين عظيمين، تزين شواطئه المباني الفخمة والقصور المشيدة والأشجار الظليلة، وماؤه هادئ الجريان، يعبره الإنسان خائضًا في بعض نواحيه، ويربط أجزاء المدينة بعضها ببعض عدة قناطر مقامة عليه تقابل كل شارع قنطرة يعبر عليها إلى الجهة الأخرى.

ومن أبهى القناطر وأحسنها قنطرة شُيِّدت عليها المباني من ناحيتها، يمر وسطها شارع جميل فُتِحت فيه حوانيت كثيرة مُلِئت بالنفائس والجواهر والحجارة الكريمة، لأن السائحين يعبرونها ليروا بعض الآثار في الجهة الأخرى، فيعرض أهل فلورنس نفائسهم فيشترون منها ما يروقهم.

ويسمي الإيطاليون هذه المدينة «فلورنس الجميلة»، وهي جديرة بهذا الوصف لأنها من أجمل مدن إيطاليا، بها كثير من الدور الفاخرة التي تنافس فيها أسرياء أهل إيطاليا قديمًا، فظهرت فيها آيات الزخرف والزينة والرسم والتصوير والنقش، ولأرباب الفن فيها من مثَّالين ونحَّاتين ومصورين ذوق مشهور، بها قبر المصور الشهير «ميشل أنج» أكبر أساتذة الرسم والنحت.

وقد نبغ من أبنائها كثير من تلاميذه، يقصدها أولو الفن والعرفان من جميع أنحاء المسكونة، لمشاهدة ما تحويه دورها من معجزات التصوير والتمثيل واتخاذها نموذجًا حسنًا ينسجون على منواله.

ولقد يشاهد المتجوِّل فيها من بُعْد جبال الألب العظيمة، تتقدمها تلال وهضاب عظيمة على مقربة من المدينة، وهي الضواحي التي اشتُهِرت عنها، بها قصور الأغنياء والموسرين من أهل فلورنس والأجانب خصوصًا الإنكليز فإنهم يقصدون هذه الضواحي في أيام عطلتهم. ومن أحسن ما يُرى في هذه الضواحي تمهيد الشوارع في هذه التلال العظيمة بحالة معوجَّة حلزونية بحيث يسهل فيها سير العجلات، فيرى السائر فيها مناظر بديعة منوعة من صفوف الأشجار وتنسيقها والأزهار وترتيبها التي لا نظير لها في مدن إيطاليا.

وخارج هذه المدينة متنزه جميل مستطيل الشكل يُسمَّى «كاشيني» به كثير من الأشجار والأزهار، يجتمع به خلق كثير لاستنشاق الهواء النقي، وتصدح فيه الموسيقى ظهر كل يوم.

وبالمدينة من الطرف الآخر متنزه غُرِست أشجاره وأزهاره على تل عالٍ يصعد إليه الإنسان في شوارع وطرق معوجَّة بعضها فوق بعض، تمكِّن الراجل والراكب أن يسير فيها حتى يصل إلى قمتها بعد دوران كبير، وتصعد إلى نهاية هذا التل المركبات الكهربائية. وقد ركبنا قطارًا من قطر الترام فسار بنا بين خمائل وحدائق غنَّاء، أغصان أشجارها المشتبكة تكوِّن فوق رءوسنا سقفًا من الخضرة، فالسائر فيها تحفه الأشجار والأزهار كأنها تداعبه وترحِّب بقدومه. وما زلنا سائرين مسرورين من هذه المناظر الجذابة حتى

وصلنا إلى أعلاه، فألفينا فيه ميدانًا متسعًا يُسمَّى «ميشل أنج» تمثاله قائم في وسطه غاية في الإبداع، وقد أُخِذت صورتنا الشمسية فيه.

ومن هذا الميدان أشرفنا على جميع منازل فلورنس، وهنا يسرك منظرها الجميل، وقد يتهيأ للناظر تحديدها والإحاطة بجميع منازلها وضواحيها فترى منظرًا جميلًا بديعًا تقف أمامه ذاهلًا. ومما يزيد الجمال والبهاء كثرة الحدائق والأزهار والأشجار التي تصعد متدرجة من أسفل التل إلى أعلاه، والمنازل المنتشرة هنا وهناك على قمته وسفحه تشبه كثيرًا منازل سويسرا فوق سفوح الجبال وقممها. وللمنظر أثر في النفس لا يقوى الواصف على وصفه، فإنه آية في الغرابة والإبداع، ولم أشاهد منظرًا مثله إلا في نابلي وسويسرا، فإن المباني منتشرة فيه بيضاء كالحمائم الحائمة.

ويمكن أن يقال إن ضواحيها من أحسن المصايف في العالم يصح أن يقصدها كل عليل ليستنشق هواءها الجميل، وقد دعاني جمال المنظر أن أنزل من هذا الميدان راجلًا فاتَّبعت طرقه المتعرجة الجميلة المحاطة بالأشجار والأزهار، فإذا هي من أبهى ما يكون. ويزيد جمال فلورنس جمال ضواحيها، فإنها من أحسن ما اكتحلت بمرآه العين.

(١-١) أهم آثار فلورنس ومتاحفها

متحف بيتي

أول زيارة ابتدأنا بها في مدينة فلورنس متحف قصر بيتي الملكي، وهو من أجمل القصور التي رأيتها، يفوق من جهة الزخرف والزينة والنقوش قصر الملك بمدينتي نابلي ورومة. وهذا القصر شيده تاجر قديم ذو ثروة طائلة عقب حديث دار بينه وبين محدثيه في فخامة القصور وزخرفها، فحلف ليبنينَّ قصرًا لا نظير له في إيطاليا، فشيده وزخرفه وزيَّنه ونسَّقه حتى فاق جميع قصور الملوك في رومة. وقد تم بناؤه في القرن الرابع عشر، وهو الآن ملك الحكومة ينزل الملك الحالي في جناح منه حين زيارته مدينة فلورنس. وإن ما حواه هذا القصر من آيات الحسن والجمال لما يدهش الناظر.

وقد زرناه في يوم كثير الأمطار في جمع كبير من سياح الأمريكان وغيرهم، دخلناه من باب كبير يحرسه جنديان الفاشست، والداخل إليه يدفع ثلاث ليرات، ويأخذ ورقة تسوِّغ له الزيارة، ثم صعدنا إلى الطبقة العليا وهي أهم ما فيه. تحوي حُجَره بدائع ونفائس الفن وشيئًا كثيرًا من الصور الزيتية ترمز إلى حالة دينية أو سياسية أو حربية أو زراعية.

قصر بيتي مع الكنيسة بفلورنس.

وجميع سقوفه مغشَّاة بالذهب، وفيه عدة دُمًى منوَّعة محكمة الصنع بالغة من الإتقان كل مبلغ، وكل حوائطه مغطاة بالصور التاريخية من الجدار إلى السقف، وهي غاية في الإبداع والقيمة الفنية، وكلما انتقلنا من حجرة إلى أخرى أخذنا العجب لكثرة ما فيها من الصور الغريبة والأشكال البديعة، وكان في أكثر حجره رسام أو رسامة من عشاق الفن، وكلٌّ مكبٌّ على رسم بعض صوره البديعة، وبعضهم يبيع للسائحين ما يريدون من الصور، وأغلب المشترين من الأمريكان الذين يتفاخرون باقتناء الصور والتماثيل. وسقف كل حجرة من حجره قبوٌ تزينه التماثيل الداخلة والخارجة فيه، وكل حجرة تُسمَّى باسم مأخوذ مما بسقفها من النقوش الخيالية؛ فالأولى تُسمَّى قاعة المشتري، والثانية قاعة آلهة الخصب، وهكذا.

وأغلب هذه الصور للرسام الذائع الصيت «روفائيل»، وقد تفنن في رسم عشيقته الجميلة التي هام بحبها زمنًا طويلًا، ويقال إن حبها من الأسباب التي قرَّبت أجله فمات عن سبع وثلاثين سنة بلغ فيها من إتقان الرسم ما لم يبلغه رسام قبله ولا بعده. وقد أحصى بعضهم صور هذا المتحف فبلغت نحو خمسمائة.

وكل صورة من صوره لها دليل يشرح تاريخها وما رُمِز إليها من المعاني الخيالية أو الحقيقية، وإن هذا القلم الضعيف ليعجز كل العجز عن وصف ما أبرزته يد الإنسان من بلوغ درجة الإعجاز في الزخرف والزينة والتصوير.

ولا أبالغ إذا قلت: إذا أراد الإنسان أن يقف على ما حواه هذا القصر الفخم، فلا يتسنى له ذلك إلا أن يحضر بنفسه ليشاهد ما لم يقوَ إنسان على وصفه مهما أُوتِي من سلامة ذوق وحصافة عقل وفصاحة لسان وحُسن بيان.

قصر بلانس فيكيو (القصر القديم)

القصر القديم بفلورنس.

بُنِي هذا القصر القديم في القرون الوسطى، وهو آية في الفخامة والعظامة، شيدته أسرة قديمة حكمت فلورنس عدة أجيال. دخلنا فيه بعد أن دفع كل واحد منا ثلاث ليرات، وبعد أن صعدنا على درجات سلم من الرخام قابلتنا حجرة كبيرة جدًّا مستطيلة الشكل، مرتفعة السقف، حيطانها وسقوفها محلَّاة بالصور الزيتية، وأكثر هذه الصور تدل على ما كان لهذه الأسرة من الشأن الأكبر في الحروب وتغلبها على أعدائها بعد اشتباكها معهم في عدة معارك ووقائع هائلة. ومع ارتفاع هذا السقف فإن أبوابها واطئة جدًّا لا تناسب ضخامة هذا البناء، وهي تشبه كثيرًا الأبواب في المنازل الإنكليزية.

ومما يُلاحَظ أن سقفها قائم على الكتل الخشبية كما كانت الحالة قديمًا، وهي تدل على القدرة والعظمة والأبهة، وفي نهايتها الشرقية عند مدخلها تجد بناء مرتفعًا قليلًا عن سطح الحجرة. ودخلنا حجرة أخرى بديعة الشكل والجمال والزخرف عُلِّق على حيطانها ألواح من الخشب رُسِم عليها أشهر أنهار العالم ومن جملتها نهر النيل العظيم، وقد ارتاحت نفوسنا كثيرًا لرؤيته وسُرِرنا لمشاهدته، وقد رُسِمت أفرع الدلتا وترعها بحالة تخالف هيئته الآن، ويظهر أنه رُسِم بحالة تشبه حالته عند قدماء المصريين.

ثم صعدنا إلى حجر كثيرة، بها أثاث وكراسيٌّ مما كانت تستعمله هذه الأسرة، وكذا عدة صناديق للنقود، وأشياء كثيرة منوعة غاية في الجمال والقيمة التاريخية والفنية. وفي حجرة صغيرة مظلمة تضاء بالشمع صورة السيدة مريم والسيد المسيح، وهما آية في الحسن والجمال، يراهما الناظر من بُعد كأنهما حقيقيتان. وفيها صور ورموز يعجز الإنسان عن إدراك معناها.

وقد أدى بنا المطاف إلى حجرة كبيرة واسعة على شكل دائرة، مقاعدها تشبه مقاعد البرلمان المصري، أمام كل مقعد منضدة مكسوة بالمخمل الأخضر وُضِعت عليها محبرة وقلم وفي نهايتها عدة منصات عالية، يظهر أنها كانت تُستعمَل للاجتماع العام للنظر في شئون الأمة وأحوالها، ومنها كانت تصدر الأحكام، وهي مستعملة اليوم للاجتماع وإلقاء الخطب في الأمور الهامة، وكل أرضها مفروشة بالبساط الأخضر، والناظر إليها يأخذه العجب لفخامتها وزخرفها وعظمتها مما يدخل في القلب الرهبة والجلال.

وبناء هذا القصر يشبه بناء قصور المماليك بمصر، لأن به عدة دهاليز صاعدة ومتعرجة ودواخل في الحيطان وخوارج، وحجره ليست في استواء واحد، بل منها ما يُصْعَد إليها بعدة درجات، ومنها ما ينحدر إليها بعدة درجات كذلك، ومنها الواسعة والضيقة ومرتفعة السقف وواطئته. وغالب الحجر بها عدة تماثيل لعظماء هذه الأسرة العريقة في المجد والحكم وهي عائلة «ميديسي».

ولقد رأينا ساعته القديمة العجيبة، التي يقصدها الناس من كل الجهات ليروها، وُضِعت داخل إطار في واجهة القصر، وهي تدق دقات عظيمة مستمرة من أول أن وُضِعت قديمًا إلى ذلك الحين، ولم يطرأ عليها خلل حتى الآن.

(٢) أهم آثار فلورنس ومتاحفها

بعد أن متعنا النظر بتحفه الجميلة ومبانيه الضخمة، خرجنا منه وسرنا حتى وصلنا إلى ميدان واسع يحوي ثلاث بنايات فخمة شهيرة في فلورنس، وهي:

(١) الدومو: وهي كنيسة جميلة غاية في الفخامة، ما رأيت كنيسة مزخرفة من الخارج بأنواع النقوش والتماثيل والدواخل والخوارج والطلاء البهي والألوان الزاهية مثل كنيسة الدومو الشهيرة، أما باطنها فلا يشبه ظاهرها في شيء فهو خلوٌّ من الزخرف والزينة. وتمتاز عن بعض الكنائس بارتفاع سقفها الشاهق. وهي مقامة على حنايا ضخمة جدًّا تنتهي بقبو مرتفع، وبها نوافذ كبيرة كلها بالزجاج الملون الجميل كالزجاج الذي يُستعمَل في المساجد القديمة عندنا، رُصَّت عليه عدة صور دينية. قبتها عالية جدًّا تقترب في الارتفاع من قبة كنيسة ماري بطرس برومة، وتكتنفها قبتان عظيمتان أقل منها قليلًا. وقد دُفِن في هذه الكنيسة عدة رجال عظماء لهم الأثر البيِّن في نهضة إيطاليا علميًّا واقتصاديًّا وحربيًّا، وغيرهم من العلماء والفلاسفة الذين عاد فضلهم على العالم أجمع.

(٢) البرج: بجوار كنيسة الدومو برج عالٍ جدًّا يبلغ ارتفاعه أربعة وثمانين مترًا، مبانيه من نوع مباني كنيسة الدومو رسمًا وشكلًا وزخرفًا وزينةً وطلاءً. ولم أقوَ على الصعود فيه لأني قد تعبت كثيرًا من الصعود والنزول في رؤية المتاحف والآثار هذا اليوم. وهذا البرج مع الكنيسة يعطيان منظرًا جميلًا يؤثر في النفس.

(٣) كنيسة المعماد: أمام كنيسة الدومو في هذا المعبد كنيسة المعماد. شُيِّدت من الخارج بالرخام الأبيض الجميل، وهي واطئة البناء، ليس بها من الزخرف والزركشة شيء يُذكَر، ولكن يحفها الجلال والإعظام، يظهر أنها قديمة البناء. وهي على شكل دائرة عظيمة. ولم ندخلها لأنها كانت مقفولة.

(٣) مكتبة أسرة ميديسي الشهيرة

هذه المكتبة لأسرة عريقة في المجد والشرف حكمت رومة زمنًا طويلًا، وهي جزء من كنيسة شيدتها هذه الأسرة. قصدنا زيارة هذه المكتبة الذائعة الصيت، فدخلنا باب

الكنيسة فوجدنا الصلاة قد أُقِيمت فيها، فوقفنا زمنًا طويلًا لنرى كيفية الصلاة ونظامها عندهم، فألفينا القوم غاية في التخضع والتبتل، وأغلب المصلين من الطاعنين في السن، بينهم فتيات صغيرات. ولما انتهت الصلاة طفنا أنحاء الكنيسة فإذا هي من أعظم الكنائس. وقد ضربت صفحًا عن وصف كنائس فلورنس إلا كنيسة «الدومو»، لأني ذكرت كثيرًا من أوصافها في رومة. ثم صعدنا من باب داخل الكنيسة إلى الطبقة العليا، فرأينا ما بهر عقولنا وحيَّر ألبابنا، رأينا مقاعد تشبه مقاعد جلسات المحاكم، وأمامها حاجز منبسط من الخشب وُضِع عليه الكتاب مفتوحًا، ومغطًّى بلوح من الزجاج حتى يتمكن الزائر من رؤية خطه ونظامه وزينته. يبلغ عرض هذه الردهة نحو عشرة أمتار تقريبًا في طول الثلاثين، وقد رُتِّبت على صفين متقابلين، بينهما طريق يمر فيها الزائر فيرى الكتب على يمينه ويساره في قماطرها، غاية في الإبداع وحُسن الخط والقصص الموضحة بالرسوم الجميلة. ثم خرجنا من هذه إلى عدة حجر فيها كتب نفيسة مذهبة، محلًّى أغلبها بصور غاية في الإتقان تدل على مهارة مصوريها. وما زلنا ندخل في حجرة ونخرج منها إلى أخرى حتى متعنا النظر بجمال هذه الكتب مع الاستغراب والإعجاب.

وأكثر هذه الكتب مخطوطة بالخط الجيد ظاهرها يدل على أنها من أنفس الكتب قيمة، وعلى أن هذه الأسرة كان لها القدح المُعَلَّى في اقتناء الكتب والتفنن في جمعها وحفظها حتى بقيت محفوظة سالمة إلى الآن، يتمتع بما فيها من الذخائر والنفائس الإيطاليون وخصوصًا أهالي فلورنس.

(٤) بيت دانتي

تطلعت أنفسنا بعد ذلك إلى زيارة بيت دانتي الشاعر الإيطالي المشهور، فسرنا ننتقل في الشوارع والأزقة حتى وصلنا إليه بعد الجهد والتعب فألفيناه في زقاق من أزقة فلورنس، وهذا المنزل متوسط البناء له بابان في زقاقَين. فأول شيء يراه الزائر لوح رخام في أعلى بابه كُتِب عليه هذه العبارة: «إن الشاعر دانتي وُلِد في هذا البيت»، وقد وجدنا الباب موصدًا فطرقناه ففُتِح، وقابلنا رجل يعرف اللغة الإنكليزية فسار أمامنا حتى أوصلنا إلى الحجرة التي كان قد أعدها لجلوس أسرته حين اشتغالهم بصناعة الحرير، وهي حجرة مرتفعة السقف قد جُدِّدت أغلب حوائطها، لا تزيد على خمسة أمتار في أربعة، وهي الآن تُستعمَل لتعليم الصناع فن الطباعة. وقد وجدنا فيها مجلدًا كبيرًا نُقِلت فيه قصائده المشهورة بالتصوير الشمسي، وهي بخط يده. وقد بُنِي في بعض الحجر أجزاء

من السقف الأصلي، تحتوي على عدة نقوش ورسوم جميلة. والبيت كله يحوي خمس حُجَر وفناء صغيرًا، وقد أخبرنا الدليل أنه كان يحتوي على حجر أكثر من هذه ولكنها تهدمت. ويدخله كثير من السائحين لرؤية منزل هذا الشاعر الكبير الذي أدخل التحسين والرقة والذوق على اللغة الإيطالية، فالأدب الإيطالي مدين له بهذا التطور الكبير في أساليب تلك اللغة وتراكيبها.

كنيسة سان كروسي وتمثال دانتي بفلورنس.

(٥) قصر الخديو إسماعيل باشا

لما علمنا بأن الخديو إسماعيل باشا له قصر فخم في فلورنس كان يسكنه أيام منفاه، اعتزمنا زيارته بلهفة وشوق، فصرنا نسائل الناس عنه حتى عثرنا عليه رقم ٩٥ شارع «برج بيتي». فلما وصلنا إلى الباب وأردنا الدخول أخبرنا الخادم بأن الدخول ممنوع

لأنه مسكون، فتلطفنا به فسمح لنا بمقابلة رجل بيده الأمر فأخبرناه بقصدنا فمنع أولًا فعرَّفناه أننا مصريون ويهمنا جدًّا رؤية هذا القصر فسمح لنا. فصعدنا سلمًا عريضًا من الرخام الجميل كلها مفروشة حتى وصلنا إلى الطبقة الثانية، ففتح لنا حجرة كبيرة غاية في الأبهة والعظمة حوائطها محلَّاة بالصور البديعة والنقوش الذهبية الغريبة، سقفها مزيَّن بعدة صور كأعظم قصور العظماء في إيطاليا، وما زلنا نخرج من حجرة وندخل في أنفس منها حتى أتينا على آخره ونحن بين الدهشة والعجب. ويحوي حديقة كبيرة قد نُسِّقت بها الأشجار والأزهار الجميلة البديعة تكتنف القصر من جهتيه الشرقية والشمالية، وهو الآن تسكنه جمعية تخدم الإنسانية وتساعد الفقراء والبائسين.

وقد كان إسماعيل باشا اشتراه من رجل يقوم بخدمة الإنسانية أيضًا، ويظهر أن إسماعيل باشا كان موفَّقًا للحصول على النعيم والترف والرفاهية في العيش حتى في منفاه.

من فلورنس إلى ميلانو

لما فرغنا من زيارة أهم متاحف فلورنس وآثارها سافرنا إلى مدينة ميلانو، فركبنا من الفندق سيارته في الساعة الواحدة مساء وقصدنا محطة فلورنس، ولما وصلنا إليها ألفيناها فسيحة ضخمة البناء تفوق محطة رومة أبهة وعظمة. ونقدنا سائق السيارة عشر ليرات، كما أعطينا الحمَّال ستًّا. وبعد نصف ساعة من وصولنا إلى المحطة قام بنا القطار ولم يكن مزدحمًا، وسار بنا نحو ساعة ونصف ساعة وسط مروج يانعة خضراء وحدائق غنَّاء وتلال عالية تحف القطار من جانبيه، مكسوة بالأشجار الباسقة. وبعد هذا اخترق القطار بنا جبال الألب العظيمة يتبع في سيره ما ذُلِّل منها، يلتوي التواء الثعبان فتارة ينعطف وأخرى ينثني وطورًا يدخل في نفق تحت جبل شامخ وآخر يعبر قنطرة عظيمة تحتها وادٍ عميق.

ولا أبالغ إذا قلت إنا كنا كل عشر دقائق ندخل في نفق تحت جبل عالٍ حتى ضاقت أنفاسنا وأخذنا الدوار، لكثرة استنشاق دخان الفحم المحصور في الأنفاق، والذي يتسرب إلينا من نوافذ القطار فنضطر إلى إقفالها.

وقد يدرك الإنسان الخوف والفزع لمروره تحت هذه الجبال الشامخة خصوصًا من لم يتعودها، ولو اتصلت هذه الأنفاق بعضها ببعض لكوَّنت نفقًا أطول من نفق سمبلون الذي سنذكره عند سفرنا إلى سويسرا. كل هذا ونحن نشاهد المنازل منتشرة فوق سفوح الجبال وقممها وبطون الوديان، تفصلها بعضها عن بعض مسافات كبيرة، تغمرها جميعها الأشجار والأزهار فمناظرها من أشهى ما رأت العين. ولقد يأخذك العجب وتدركك الحيرة لمشاهدة هذه المنازل لأول مرة، لحسنها وجمالها، وبداعة ترتيبها وتنسيقها، وعظيم موقعها، وكيف يعيش سكان المنازل المنتشرة هنا وهناك في أمان واطمئنان على أنفسهم وأموالهم، ومن أين يحضرون ما تحتاج إليه منازلهم من ضروريات الحياة، وما الذي

يساعدهم على الصعود إلى المنازل فوق قمم الجبال والتلال ذهابًا وجيئة! وكل منزل من هذه المنازل يُمهَّد له طريق جميل تحفه الأشجار من الجانبين، يغني السير فيه عن رؤية الحدائق واستنشاق هوائها، ولا يتسنى لكاتب مهما بالغ في الوصف أن يصف تلك المناظر البديعة والمشاهد الجميلة.

ولا ترى في هذه المسافات الكبيرة إلا أجزاء صغيرة من الأرض مدحوَّة لا تكاد تُذكَر بجانب المرتفعات، ولذا كان القطار لا يجد جزءًا سهلًا يسير فيه بل تعترضه الجبال العالية، فلا يتخلص منها ولا يتغلب عليها إلا بمروره تحتها وانحنائه لعظمتها وجبروتها والالتجاء إلى أحضانها وخضوعه لكبريائها، وكلما خرج القطار من نفق أسرعنا إلى فتح النوافذ لنستنشق الهواء النقي ولنرى ما هيأه الله من مناظر الطبيعة وجمالها وحسنها وبهائها الذي يأخذ بالألباب، ولنرى قدرة الله الباهرة القاهرة التي كوَّنت تلك المناظر ورفعت الجبال وخفضت الوديان وأجرت المياه وأنبتت الأشجار الضخمة الباسقة.

في كل ناحية سلكت ومذهب　　　جبلان من صخر وماء جاري

ولقد كنت أقف أمام عظمة هذه الجبال وانخفاض الوديان وخرير الماء باهتًا خاشعًا متعظًا.

وما زلنا على هذا الحال حتى وصلنا إلى محطة «بلوتي» في الساعة السادسة، وفيها انتظر القطر أربعين دقيقة، وهي محطة كبيرة واسعة ملتقى عدة خطوط، وفيها يغير المسافرون طريقهم فمنهم الذاهب إلى «ميلانو»، والذاهب إلى «فنيسيا»، والذاهب إلى «تورينو».

وبعد أن بارح القطار هذه المحطة سار في سهل لومباردي المشهور، وهنا يعجز القلم عن وصف نظام مزروعاته، وحالة الري فيه، وخصوبة الأرض: ترى المزارع مقسمة تقسيمًا هندسيًّا بديعًا، فترى في نحو كل عشرين مترًا صفين من الأشجار القصيرة التي لا تزيد على أربعة أمتار، في جذع كل شجرة منها كرمة عنب تعلق فروعها بتلك الأشجار فتقوم مقام الحوامل عندنا «التكعيبة» لقرب الأشجار بعضها من بعض، وتمتد فروع العنب من شجرة إلى أخرى فتعلق بها فتكوِّن حبالًا من الخضرة تربط كل الأشجار بعضها ببعض، وتتدلى عناقيد العنب من خلال الأشجار فيحدث لونان من الخضرة؛ خضرة الأشجار وفروعها، وورق العنب وعناقيده، فترى منظرًا تشتهيه النفس وتتمتع به العين وينشرح له الصدر.

فالسائر فيه لا يرى مزارع كما يرى في بلادنا، وإنما يرى حديقة غنَّاء فيحاء لا نهاية لها مشتبكة الأغصان، وحبالًا من الخضرة الجميلة النضرة ممتدة بين الأشجار لا يدرك الطرف آخرها، وهذا كله بفضل المهندسين وعناية أصحاب المزارع بها، والبحث وراء ما يمكن الانتفاع به من حقولهم ومزارعهم. مع أنك لو ضاهيت أرضهم بأرض الدلتا لوجدت أرض الدلتا أخصب منها، ومع ذلك لا ترى فيها شيئًا يلفت نظرك كما ترى في سهل لومباردي، لا ترى فيها ترتيبًا وتنسيقًا ونظامًا واعتناءً. ولو عُنِي بها أهلها كما عُنِي الإيطاليون لأصبحت جنة يانعة قطوفها دانية، وفاقت كل سهول العالم إنباتًا وإنتاجًا. ومن هذا يظهر الفرق بين الأمم المتمدينة التي تخلق من الصحراء جنة خضراء، وبين الأمم الأخرى التي تهمل الأرض الخصبة الجميلة حتى تصبح قاحلة جرداء.

وإنك لترى الفلاحين في أوروبا يزرعون قمم الجبال والتلال، وينقرون صخورها ليبذروا فيها أنواع الحبوب، فيجنون منها ما يقوم بحاجاتهم. وأكثر مزروعاتهم في سفوح الجبال والتلال وعلى قممها، لأنك لا تجد أرضًا سهلة مدحوَّة كما تجد في بلادنا إلا نادرًا. ولم أرَ في سياحتي هذه سهلًا منبسطًا إلا سهل لومباردي وجزءًا من شمالي فرنسا، وأما غير ذلك فكله تلال وجبال ووديان تتخللها أجزاء قليلة جدًّا مدحوَّة، مع أن عندنا كثيرًا من الأرض الواسعة السهلة التي تصبح بعد إصلاح هين من أخصب الأراضي.

وقد قضيت أكثر المسافة بين فلورنس وميلانو واقفًا لأمتع النظر بتلك المشاهد الجميلة والمزارع النضرة، وما فيها من التنسيق والنظام.

وقد يمر على ركاب الدرجة الأولى والثانية خادم معه تذاكر يقدمها لمن يريد تناول الطعام في القطار، فأخذت منه تذكرة فلما حان وقت العشاء دق الجرس في كل حجرة من حجر القطار إذ كانت الساعة السابعة مساء، فذهبنا إلى ردهة الأكل وهناك قُدِّم لنا طعام شهي جميل، يدعو النفس إلى الرغبة في تناول الطعام بشهوة، وفي أثناء ذلك كنا نمتع الطرف بتلك المناظر والمشاهد الجميلة. وقد دفعنا في هذه الأكلة إحدى وعشرين ليرة بما في ذلك زجاجة من ماء «أفيان»، ولم أكن قد تناولت الطعام في قطار في أوروبا قبل ذلك، ولذا كنت مسرورًا جدًّا من هذه الأكلة الشهية ونظامها وجودة الخدمة، وقد استغرقنا فيها نحو ساعة ونصف ساعة. ونظام الأكل هناك أحسن بكثير من نظامنا في قطرنا من حيث الخدمة والطهي والثمن ونظافة الخدم والنشاط والحركة، ولكثرة الراغبين في الأكل لا تسعهم العربة دفعة واحدة ولذا فإنهم يأكلون على دفعتين.

وما زال القطار يجدُّ في السير بسرعة كبيرة حتى وصلنا إلى مدينة ميلانو في الساعة العاشرة والنصف، فيكون القطار قد قطع المسافة بين فلورنس وميلانو في ثماني ساعات.

ومحطة ميلانو فخمة وكبيرة جدًّا، وقد يستمر القطار سائرًا في ضواحيها نحو عشر دقائق. وقابلنا مندوبو الفنادق كالعادة فاخترنا النزول في فندق «جراند»، ثم ركبنا سيارته الضخمة التي تناسب ضخامته وفخامته وسارت بنا حتى وصلنا إليه بسلام، وهو يُعَد من أفخم الفنادق في ميلانو. وبالطابق الأول منه ردهة فخمة مفروشة بأفخر الأثاث والرياش تزينها عدة أشجار وأزهار نضرة، ثم أصعدنا الخادم في المصعد إلى الطابق الثاني فألفينا غرفه من أفخم الغرف تحتوي كل غرفة على ما يريح السائح حتى المسرة «التليفون» بجوار السرير بحيث تطلب ما تريد من الفندق أو خارجه وأنت مضطجع على مهدك، حوائطها مزخرفة بأحسن الزخرف حتى يُخيَّل للرائي أنها مكسوَّة بالمخمل المزركش، وعلى الجملة فكل غرفة فيها معدات الراحة مع الأبهة والعظمة. وأجرة مبيت الليلة مع تناول الطعام ثمان وثمانون ليرة عدا ضريبة الترف التي تُضرَب على كل نازل فيه، فإن الحياة فيه تكاد تكون من الطراز الأول، وكذلك غير ضريبتَي الخدم والحكومة التي تختلف ما بين ١٠ و١٥ في كل مائة. وقد استرحنا في هذا الفندق ونمنا نومًا هادئًا ملء جفوننا، وفي البكور تناولنا طعام الإفطار ثم خرجنا لنرى مشاهد المدينة والحركة فيها.

(١) ميلانو

هي قصبة إقليم لومباردي الشهير بالإقليم العالي في إيطاليا، ولها أهمية كبرى لأنها من أكثر مدن إيطاليا سكانًا كما كانت كذلك قديمًا. وقد اشتُهِرت في القرن الخامس عشر بأشياء كثيرة أهمها صناعة التصوير، ولا تزال تلك الشهرة حتى الآن، وقد رأينا كثيرًا من التصاوير في أغلب مدن إيطاليا كُتِب عليها «طُبِعت في مدينة ميلانو»، وقد نبغ فيها في ذلك العهد عدد كبير من المصورين الذين اشتُهِروا في إيطاليا وغيرها، وهي الآن من أهم مدن إيطاليا حركة وتجارة وثروة وصناعة، خصوصًا صناعة الحرير التي فاقت فيها أكثر مدن أوروبا، والذي ساعدها على ذلك كثرة ما يُزرَع من شجر التوت في إقليم لومباردي الذي هو الغذاء الوحيد لدودة القز.

ولم أرَ في جميع المدن التي زرتها في إيطاليا مدينة أكثر منها معادن وصناعة، حتى إن القُطُر التجارية تدخل مساء في بعض شوارعها العظيمة تنقل كثيرًا من العمال الذين يتهافتون تهافت الفراش على النار فيملئون داخله ويركبون سطوحه ونوافذه إلى محالِّ سكناهم في ضواحي المدينة، وقد يكون المنظر غريبًا خصوصًا لمن لم يرَ بلاد عمال قبل ذلك. وشوارعها كأحسن الشوارع التي رأيتها في مدن نابلي ورومة وفلورنس من

داخل تياترو ألاسكالا في ميلانو.

حيث الاتساع والنظافة والنظام، وتزدحم ازدحامًا كبيرًا عند الغروب حتى يسير الناس متكاتفين. ويهولك منظر الجلاريا التي هي على مثال جلاريا نابلي، والناس يقصدونها عصرًا للتفرج على دكاكينها وقهواتها وما بها من السلع وأنفس البضائع التي تسر النفس، فيختلط الرجال بالنساء ذهابًا وجيئة، فيكون لاجتماع الناس فيها منظرًا يلفت النظر. والجزء المشيد بها حديثًا من أحسن ما يرى الرائي، لأنه قائم على نظام واحد وترتيب جميل شوارعه متسعة متوازية تسير على اتجاه واحد، تقاطعها عدة شوارع أخرى متوازية أيضًا كأنها قُسِّمت ونُظِّمت ونُسِّقت بيد مهندس بارع واحد وشُيِّدت مبانيها في زمن واحد على طراز واحد على أحدث ما يكون من النظام الحديث الجميل. وقد سُرِرت جدًّا من منظرها، ولم أرَ مثل اتساع هذه الشوارع إلا في مدينتَي باريس ولندن، ولقد ترى حوانيتها غاصَّة بأنواع السلع الجميلة البديعة، ومع أنها مدينة صناعية فإن سلعها أغلى قيمة. وأهم هذه الشوارع شارع «فيكتور عمانويل»، وهو يشطر المدينة شطرين عظيمين ويتصل بشارع «فنيسيا»، وهما يوصلان إلى حديقة المدينة العمومية، وهي واقعة في ميدان فسيح الأرجاء يُسمَّى ميدان «كافور»، يقصدها الناس بياض النهار وهزيعًا من الليل ليستنشقوا هواءً نقيًّا. وقد دخلتها فإذا هي جنة عالية قطوفها دانية ظلال أشجارها وارفة، أفنانها

كثيرة ممتدة يشتبك بعضها ببعض فتكوِّن سماء من الخضرة الفاخرة تحوي كثيرًا من الأشجار التي تعبق منها الروائح العطرية، ويحمل نسيمها إلى الأنوف شذا عَرْفها الزكي فينعش النفوس الخامدة. فجذبني جمالها وحُسن منظرها وضخامة أشجارها ونضرة أزهارها إلى الجلوس على أحد مقاعدها التي صُفَّت على جانبي طرقاتها وشوارعها، فأقمت بها ساعة قيدت فيها مذكراتي عما شاهدته في ذلك اليوم. وتمتاز عن حديقتَي رومة ونابلي بأنها منسَّقة مرتبة عامرة، أُقيمت في ثنايا أشجارها وأزهارها عدة تماثيل مختلفة الأشكال والرموز لكثير من عظماء الرجال في إيطاليا. وقد خرجت منها قاصدًا مشاهدة كنيسة ميلانو الشهيرة، وهي أهم ما يقصده السائح في هذه المدينة القليلة الآثار. وإني وإن كنت قد مللت وصف الكنائس في رومة وغيرها إلا أني أعد نفسي مقصِّرًا إذا تركت وصف هذه الكنيسة التي تُعَد من عجائب الدنيا، والتي لا تزيد عنها سعة إلا كنيسة ماري بطرس برومة، ولأن السائح لا يقصد زيارة ميلانو إلا ليرى كنيستها العظيمة.

(١-١) كنيسة ميلانو

كنيسة ميلانو واقعة في ميدان فسيح وسط المدينة، وهي من كنائس الدرجة الأولى في زخرفتها وجمالها وضخامة بنائها وجمال منظرها وأبهتها وعظمتها وما فيها من تماثيل القديسين من الأحجار والرخام في سقفها وجدرانها داخلًا وخارجًا، لها منظر من الخارج ليس لكنيسة في الأرض مثله، وكل مبانيها داخلة وخارجة مزينة بالتماثيل الجميلة الكثيرة المنوَّعة. ولقد ينظر إليها المرء فتهوله الحراب المصوَّبة إلى كبد السماء بأيدي التماثيل الكثيرة كأنها تتهيأ للطعن والنزال، وهي في نهاية قباب مدرجة تعلو بعضها بعضًا، وفي رءوس مبانٍ كالمسلات المصرية ينتهي أعلاها كتلك التماثيل ويُخيَّل للناظر إليها أنها ليست مباني، بل هي رسوم وأشكال هندسية جميلة كأنها أخشاب مخرمة تُمثَّل فيها تلك الأشكال والرسوم، وقد أحصى بعضهم ما فيها من التماثيل داخلًا وخارجًا فألفاها ستة آلاف. فإذا صعد الإنسان على سلم الكنيسة يرى أمامه خمسة أبواب أكبرها الأوسط، فيدخل منه الزائر فيرى أعمدة ضخمة عريضة كالحنايا (البواكي) تنتهي في أعلاها بتيجان محاطة بالتماثيل، وتنتهي هذه بقباب غاية في الإبداع مخرمة كالتي تُصنَع في نوافذ المساجد عندنا، وفي جوانبها وأركانها عدة مذابح للسيدة مريم حاملة السيد المسيح عليه السلام وهو صغير، وأمام بعضها كاهن يصلي بالناس وهم ركوع يستمعون لما يُتلَى عليهم غاية في الخشوع والتبتل.

كنيسة الديمو بميلانو.

ومما يلفت النظر من هذه المذابح مذبح عظيم موقدة أمامه الشموع الكثيرة فيه تمثال السيدة مريم محلَّاة بالجواهر والأحجار الكريمة يكتظ أمامها الزائرون، وأمام تمثالها صندوق في أعلاه ثقب يقذف فيه الزائرون كثيرًا من النقود. ويرى الداخل أمامه مذبحًا كبيرًا يلتف حوله كثير من الرهبان يتلون شيئًا وهم وقوف، يُسمَع لهم ضجيج كضجيج مرتلي «دلائل الخيرات» في الأضرحة. وكل مسيحي يركع أمام تمثال السيدة مريم قبل مبارحة الكنيسة. وتبلغ مساحة هذه الكنيسة العظيمة أربعة عشر ألف متر وتسع نحو أربعة آلاف نفس، ويبلغ طولها من الداخل اثنين ومائة متر في عرض ستة وتسعين، وعلوُّها نحو مائتين وعشرين قدمًا.

والكنيسة كلها مشيدة من الرخام الجميل، مقامة على اثنين وخمسين عمودًا يبلغ محيط كل منها اثنى عشر قدمًا، سقفها من الرخام المختلف الألوان وبها عدة شبابيك ونوافذ صُنِعت ألواحها الكبيرة من قطع الزجاج المختلف الألوان، ويبلغ ارتفاع بعضها نحو خمسة عشر مترًا في عرض خمسة أمتار، رُسِم عليها عدة أشكال تمثل حوادث الإنجيل والتوراة. ولا يقل عدد هذه القطع في كل نافذة عن خمسين وثلاثمائة، وهي من أثمن ما رُسِم على الزجاج من الصور المتقنة يُخيَّل للناظر إليها أنها حقيقة لولا ما ينقصها من الحركة. ويد الإصلاح والزخرف دائمة العمل فيها من يوم أن أُنشِئت إلى الآن، والعين المجردة لا تتبين ما في سقفها من الزخارف والنقوش، ولذا تجد كثيرًا من السائحين يستعينون بنظاراتهم لرؤية ما بسقفها من دقائق الصناعة والزخرف والنقش. ولهذه الكنيسة برج عالٍ يصل الإنسان إلى أعلاه بعد أن يصعد ثلاثمائة درجة. ولما كانت هذه المدينة قليلة الآثار والمتاحف لم نمكث فيها كثيرًا.

من ميلانو إلى سويسرا

قمنا من مخادعنا مبكرين وقد اعتزمنا السفر إلى مملكة سويسرا الساعة السابعة صباحًا، وبعد أن أعددنا حقائبنا امتطينا سيارة الفندق إلى المحطة، وهناك وجدنا مرشدًا من خَدَمته في انتظارنا فأرشدنا إلى القطار، ولكنه لم يعين لنا المركبة التي تسافر إلى سويسرا حتى لا نُضطَر إلى التغيير في محطة أخرى، لأن القطار يجر عدة مركبات كُتِب على كل منها الجهة التي يقصدها المسافر لأنها تنفصل منه عند محطات معروفة، وقد أخطأنا المركبة التي تذهب مباشرة إلى مدينة لوزان من مدن سويسرا، ولكن كان في الوقت بقية فنقلنا حقائبنا قبل فواتها، ولذا تمكنَّا من وجود محلَّين لي ولزميلي، وقد ازدحم القطار بعد ذلك ازدحامًا شديدًا. وفي قُطُر أوروبا يمكنك أن تحجز محلًّا لك قبل السفر بيوم أو أقل منه برقم يُكتَب على تذكرة السفر يوافق رقم المحل الذي حجزته، ولك الحق أن تطلب من الجالس فيه أن يتنحَّى عنه فلا يتأخر متى أظهرت له رقم المحل على تذكرتك.

ولما وافت الساعة السابعة دقت الأجراس التي تشبه أجراس الكنائس إيذانًا بقيام القطار فتهيَّأنا لرؤية ضواحي المدينة من نوافذه، فإذا بها منازل متفرقة تفصل كلًّا منها عن الأخرى حديقة غنَّاء تحيط بها الخضرة والمزارع إحاطة السوار بالمعصم. وبعد ساعة من سير القطار ظهرت لنا جبال الألب العظيمة الشاهقة، فسار القطار فيها منعرجًا ذات اليمين وذات اليسار تبعًا لما زُلِّل منها. وكان لسير القطار منظر يأخذ بالألباب فتارة يصعد بنا فوق ربوة عالية وأخرى يدور حول الجبال وطورًا يدخل في نفق ودخان القطار يعمل فينا عمله، وأخرى يعبر قنطرة ممتدة فوق وادٍ عميق مثبَّتة أطرافها في جبلين متقاربين فترى الوديان والمنازل هنا وهناك كأنها الحمائم الطائرة في حدائق عامرة، وجميع سفوح الجبال مكسوَّة بالأشجار الباسقة فتزيدها عظمة وجلالًا. ومرةً ينزلق بين جبلين متقاربين يكاد الراكب يلمسهما باليد مع العلو الشاهق الذي يرجع البصر خاسئًا

وهو حسير، وكان المنظر مؤثرًا في النفوس خصوصًا لمن لم ير مثل هذه الجبال التي تكاد تناطح السماء بعلوها الغريب، ولذا كنت لا أسمح لنفسي بالجلوس لأمتع النفس والنظر بتلك المشاهد الجميلة التي أثرت في نفسي أثرًا لا تقوى على محوه يد الزمان.

ومما يدعو إلى العجب أنه لا يوجد في هذه الجبال جزء خالٍ من الأشجار الضخمة والمزروعات الكثيرة التي يقوم بها فلَّاحو تلك الجهات، فإن لهم صبرًا كبيرًا على معاناة الزراعة على سفوحها. وما زلنا سائرين نمتع الطرف بتلك المشاهد والقرى والفلاحين ومواشيهم حتى وصلنا إلى محطة الحدود بين إيطاليا وسويسرا، وهنا كثر الزحام واختلط الحابل بالنابل لتغيير الناس مركباتهم إلى الجهات التي يقصدونها. ولقد جاء مفتش إيطالي لتفتيش حقائبنا لعله يجد فيها شيئًا ممنوعًا حمله، ولما كان القطار شديد الزحام والحقائب كثيرة مكدسة بعضها فوق بعض كان يسأل عما في حقائبهم أسئلة تنم عن الكسل فيجيبونه بما يصرفه عنهم، ويتبع المفتش خمسة من الرجال يساعدونه في ذلك حتى يتم تفتيش القطر، وقد أخذ منا جواز السفر «الباسبورت» ورده إلينا بعد التأشير عليه حين قيام القطار، وقد لبثنا في هذه المحطة ساعة وربع ساعة ثم برحها القطار متجهًا نحو أرض سويسرا. وهنا يقف القلم حائرًا متعثرًا في أذياله كيف يصف فخامة المنظر وتجليها بأبهى مناظرها وأبدع معانيها وقد ابتدأت الجبال تعترض القطار بكثرة، ولذا كثر اختراقه للأنفاق وانتشر دخان الفحم في المركبات حتى ضاقت أنفاسنا وبلغت الروح الحلقوم، وما زلنا كذلك ندخل في نفق ونخرج من آخر طول هذا الطريق — وقد يبلغ عدد الأنفاق نحو الستين — حتى وصلنا إلى أطول نفق فيها وهو النفق المعروف باسم «سمبلون» أو «سان غوثار».

(١) نفق سمبلون

هذا النفق يخترق جبلًا شاهقًا من جبال الألب العظيمة المشهورة التي ليس في أوروبا أرفع منها قمة ولا أفخم منظرًا ولا أوعر مسلكًا، ولَمَّا مُدَّت السكك الحديدية في أغلب ممالك أوروبا وربطت أجزاء الممالك بعضها ببعض، كان من الضروري أن ينشأ خط حديدي يربط أغلب الممالك بعضها ببعض خصوصًا إيطاليا وسويسرا وألمانيا، ولَمَّا كان لا مفر من اختراق هذه السكة جبال الألب وكانت النفقات باهظة لا تتحملها مملكة واحدة، تعاونت على إنشائها إيطاليا وسويسرا وألمانيا واستغرقوا في تذليلها وتمهيدها مدة لا تقل عن تسع سنين، أنفقوا في خلالها مليونًا وأربعمائة ألف كيلوجرام من الديناميت لنسف تلك الجبال

الهائلة. يدخل القطر في جوفه فتظلم الدنيا وتصبح في ليل دامس ويظل سائرًا سيرًا حثيثًا نحو خمس وعشرين دقيقة، وهنا يعتري المسافر فزع وخوف ورهبة تمنعه من الكلام متى فكر أنه يسير تحت الأرض تعلوه جبال الألب العظيمة. ومتى دخل القطار جوف النفق سار بالكهرباء وحبس دخانه الذي كان يضايق الناس قديمًا حتى سئموا المرور منه والسير فيه، وكل عدة أميال يظهر لنا محل تسطع منه الأنوار الكهربائية فتضيء جزءًا كبيرًا منه، ولشدة سير القطار وسرعته لا يقوى الإنسان على الانتقال من مركبة إلى أخرى والوقوف في طرقاتها، والناس إذ ذاك في سكون رهيب فتهلع القلوب وتكفهر الوجوه، ومتى خرجوا منه تهللت وجوههم بشرًا وأخذ كلٌّ يقص على أخيه ما كان يجول بخاطره في الفترة التي قضاها في جوف الأرض.

(٢) سويسرا

آية في الكمال والجمال ولا يسهل على واصف وصف مناظرها الطبيعية وجمال جبالها ومحاسن بحيراتها ورقي أخلاق أهلها ومرُوجها ومزارعها، فهي كعبة المتفرجين ووجهة المتنزهين ومهبط السراة والموسرين ومصيف السائحين، وهي فردوس أوروبا وجنتها الفيحاء وحديقتها الغناء وعلَمها المنشور ولواؤها الخفاق، ريحانة النفوس وسلوة المحزون وجنة الضَّجِر وملجأ الخائف وملاذ العائذ، تجمعت فيها محاسن الطبيعة وتجلت بأبهى مناظرها وأكمل بدائعها فجمعت محاسن الجبل والوادي والسهل والنهر، تتخللها بحيرات كثيرة جميلة تحفها الأشجار والأزهار تناسقت فيها تناسقًا يسحر الألباب ويريح النفوس ويزيل الكروب والهموم، بها جبال شاهقة تناطح السماء بعلوها فيتقطع السحاب فوق قممها وتتوجها الثلوج اللامعة المحتاطة بالدوحات الباسقة، فكأنها مرآة يحيط بها إطار من سندس.

بأي لسان أعبر، وبأي بنان أسطر عن تلك المشاهد والمناظر، التي تجمعت فيها قوى الطبيعة وتضافرت، وعرضت من أنواع المحاسن ما يملأ النفس عظة واعتبارًا؟! فبينما تسير في سهل نسقته يد الطبيعة بأبهى الأعشاب وأبهج أنواع الزهر والأشجار، إذ بك على حافة جدول لمائه خرير يلذ له السمع وينشرح له الصدر، كأنها أوتار أعواد حركتها يد عازف حاذق فأثرت في النفس تأثيرًا عميقًا، وقد رُصِفت الجوانب بوَشْي من الخضرة، وأنواع من الزهر تحيط بك من كل جانب. حتى إذا غاب فكرك فيما أبرزته يد الطبيعة وما أبدعته يد القدرة، وجدت نفسك فوق جسر عظيم ثُبِّت طرفاه في ناصيتَي جبلين وتحته الوادي تجري فيه الأنهار وتحف به المزارع والأشجار.

حتى إذا اجتزت ذلك الجسر سرت إلى جانب المجرى متعرجًا ذات اليمين وذات اليسار، كأنما القطار أفعى تنساب بين الحشائش والوديان فيبهرك ذلك المنظر ولا تدري إلى أي الجانبين تنظر، أإلى الوادي وما فيه من المروج الأريجة والضفاف البهيجة، ومنازل قد التفت حولها الأغصان على شكل بديع وتنسيق غريب، وماء ينسكب فينسيك متاعب الحياة وأحزانها، أم إلى الجانب الآخر حيث ارتفعت الجبال وطالت حتى غاصت في أحشاء السحاب التي تتساقط منه كرات البَرَد كأنما هي اللؤلؤ المنظوم والدر المنثور، ومما يزيدها بهاء تتويج قممها بالثلوج، ومن دون الثلج صخور تكسوها الأشجار الوارفة، وقد جرت من بين تلك الصخور والجبال جداول من ماء معين يتدفق في تلك المسالك الجميلة تدفقًا يروق الناظر ويسر الخاطر ويتساقط من سفوح الجبال، فيريك أعجب ما ترى من أشكال الجنادل، وخصوصًا عندما تغيب آونة وتظهر أخرى بين تلك المسالك التي يعشق القلب حسنها مما تمثل للرائي منتهى الإعجاز في الجمال الباهر!

ومهما بالغ الإنسان في وصف تلك المسالك وأراد أن يبرزها في ثوبها الحقيقي، فإنه يرجع من وصفه بخفَّي حنين ويرضى من الغنيمة بالإياب.

كناطح صخرة يومًا ليوهنها　　　فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

(٣) سويسرا

ما زلنا سائرين في وسط هذه المروج وعلى سواحل البحيرات الكثيرة المتعرجة، التي تسحر الألباب وتذهل العقول. وتزيد هذه الشواطئ رونقًا وبهاءً وحليةً وجمالًا المنازل المنتشرة عليها كأنها الدر المنثور في نحور الحور، حتى أشرفنا على جبال لوزان النضرة وتلالها المكسوة بأنواع الأشجار والأزهار بعد سفر ثماني ساعات فداخلني سرور امتزج بكل ذرة في جسمي، وقلت: أصحيح أنني في بلاد أشبه بحديقة غنَّاء في وسطها مصايف من أجمل ما بنى المهندسون ونقش النقاشون؟! فالدُّور على اختلاف هندستها تفيض بهجة ونضرة ونظافة وزينة فهي جنة أوروبا، بل جنة الدنيا بأجمعها ومدرسة العمل العليا، وأبهج مصيف ومشتى لملتمس الراحة والسلوى. إن نفسي ستطمئن ويرتاح فؤادي من الإقامة في مدينة من أبهى مدن سويسرا، التي ضمت شمل المدنيات العصرية ووضعت على مفرقها تاج البدائع الأرضية والسماوية، بلاد خُصَّ كل شبر منها بمزية وتناولتها الأيدي بالتحسين، فلا يتصور العقل الآن أرقى من نظامها ولا أبدع من طرازها وهندامها، فهي

زبدة جهاد القرون والأعصار، المغبوطة من جاراتها بل من أهل الغرب أجمع، فلم تسل سيفًا لقتل النفوس لتمتلك الأحرار وتصفدهم بقيود الذل والاستعباد، ولا ظلمت شعبًا هادئًا مطمئنًّا لاستصفاء حقله وامتصاص دمه وابتزاز أمواله، ولا هتكت أستارًا وأعراضًا لتغنم عروضًا وأعراضًا، بل رحبت بالمظلوم وحمت الفار من أيدي الظلمة والجبارين، ولم تهمل حق من التجأ إليها واحتمى بحماها واستظل بظلها، فلسان حالها يقول:

لنا جبل يحتله من نجيره　　منيع يرد الطرف وهو كليل

فهي أكرم مثوى لوافد مغموم ومحزون محروم، ومعهد يعلم الطالب تعليمًا مجردًا من النزغات المذهبية والنزعات السياسية، ومسلاة كل متعب راغب في التفرغ لنفسه.

لقَّنت الأمم معنى الحكومة الصالحة والأنفس العالية، فقد سمعت وأنا بها أنه احتُفِل في محكمة من محاكمها بمضي خمس وعشرين سنة لم يُحْكَم فيها بجناية! فهي تحتفل برقي الأخلاق وكمال الآداب ومعرفة الواجب، وتضرب المثل الأعلى للأمم والشعوب، ومثَّلت لهم احترام حق الغير أحسن تمثيل، وجوههم هاشَّة باشَّة للقريب والغريب. شعب غني بآدابه بعيد عن المعايب والنقائص، فما أسرع إقبالهم عليك إذا رأوا منك ميلًا للاسترشاد بهم! بأدب يشف عن مكارم أخلاق وحُسن ذوق ورقة شعور، ترتاح نفسك إليهم وتشفق من إلقاء السؤال عليهم.

يُخيَّل للناظر أن هذه البلاد الواقعة بين أربع ممالك راقية فرنسا وإيطاليا وألمانيا والنمسا، قد أخذت من مدنيات هذه الممالك أطيبها ومحاسنها، فأصبحت علَمًا ومنارًا يُهتدَى بها ومجمع الآداب في الآفاق وآية المحاسن والجمال.

تدخل الفنادق الكبيرة أو الصغيرة ومنازل الأغنياء والفقراء تجدها كلها متناسقة في نظامها وحُسن ترتيبها وهندامها، وتشاهد المخازن والحوانيت على هذا الطراز صباح مساء.

وما أنسى نظافة الفندق «أوتيل عدن» الذي نزلنا به بمدينة لوزان المطل على بحيرة ليمان ومن ورائه جبال الألب، به عدة أطناف كنا نجلس فيها ونمتع الأنظار بجمال الطبيعة، التي تُذهِب عن المكروب كربه وعن الحزين أحزانه.

ثلاثة يذهبن عن القلب الحزن　　الخضرة والماء والوجه الحسن

ومما يزيد النفس سرورًا كثرة البواخر التي تمر أمامك تشق مياه هذه البحيرة حاملة المتفرجين والمتنزهين والراغبين في رؤية المدينة، التي نُظِّمت ونُسِّقت على شواطئها، ومشاهدة ما اشتُهِرت به من المناظر البديعة وصنوف الجبال وقُطُر السائحين والمتفرجين. ولقد كنت أعجب كل يوم من رؤية الخادمات وما يقمن به من تنظيف البلاط إلى تنظيف الستور والنوافذ، ونظام أغطية الأسرة والكراسي والمقاعد والمناضد وترتيب التحف والصور الصغيرة، إلى غير ذلك مما لا يخلو منه فندق. وليست هذه النظافة خاصة بالمنازل والفنادق، بل تشاهد ذلك في الشوارع والأزقة فإن الأوساخ الخفيفة لا تلبث أن تُطرَح حتى تُكنَس.

والأمم النظيفة هي التي تعشق النظافة وتحب أن ترى كل شيء في مكانه، وتتألم ألمًا مبرِّحًا إذا شاهدت عكس ذلك. والنظافة عندهم تستوجب من الأفراد والحكومة عملًا متواصلًا، وتستدعي أن تحث عليها الحاكم والمحكوم حتى يتعاضد الكل في العمل كما هو الحال في بلاد سويسرا، ولذا فإن بلدياتها تنفق كثيرًا من المال لتجعل البلاد في هذه الحالة من النظافة، التي يعجب لها أرقى الأمم حضارة.

وإذا نظرت إلى بلادنا وجدت انصرافًا عن النظافة كبيرًا، فلا يكاد يقع نظرك إلا على أقذار في الشوارع والأزقة والساحات بل في البيوت والحوانيت، لأن الأفراد لم يشبوا عليها ولم يألفوها فنَبَتْ عنها طباعهم مع عدم اهتمام الحكومة بها، كأنها لم تأخذ ضرائب على المنازل والحوانيت. وما كانت النظافة حديثة عند السويسريين بل هي نتيجة تربية طويلة وملاحظة شديدة، حتى تعوَّدوها وزاولوها مزاولة انطبعت في نفوسهم وامتزجت بدمائهم فأصبحوا فيها أرقى من الطليان والفرنسيس.

وللتربية العلمية والعملية المقام الأول في نظافة هذه الأمة ونهوضها وبلوغها درجة تقرب من الكمال في كل شيء، حتى فاقت جميع الأمم رقيًّا وأخلاقًا وعملًا وحرية وطمأنينة على أنفسهم وأموالهم، ولذا فإن كل فرد يسير في عمله مطمئنَّ البال هادئ النفس مرتاح الضمير.

وقد قال بعض الباحثين: إن هذه الأخلاق الراقية نشأت عن امتزاج الفكر الجرماني بالفكر اللاتيني، فأخذ السويسري عن الألماني صفات التدين والرزانة والشعور بالتضامن والنظام والثبات، واقتبس من اللاتيني البشاشة والأدب وجودة الحكم وحُسن التقليد والظُّرف.

والسويسري على اختلاف أصوله ولغته فرنسيًّا كان أو ألمانيًّا أو إيطاليًّا قليل الفضول، لا يسألك في الفندق ولا في الشارع إذا تعرفت إليه عن مقاصدك ولا يتبع

عوراتك، ولَّما ترك السويسريون الناس وشأنهم في هذه البلاد نشأ في أمم أوروبا وأمريكا حُسن الظن بهم، فاختاروا سويسرا مصيفًا ومشتًى.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

(٤) مدينة لوزان

هذه المدينة بديعة المناظر فخمة المباني مشيدة على سفح جبل أكسب مناظرها جمالًا وعظمة، شوارعها منحدرة إلى بحيرة جنيف، غاية في النظافة مرصوفة بالأحجار والأسمنت، منسقة تنسيقًا بديعًا، ترتاح النفس إليها وترغب السير فيها، وإن كانت كثيرة الصعود والانحدار، منازلها غاصَّة بالحدائق والأشجار، تتدلى فواكهها في الشوارع فلا تلمسها يد لامس مع أنها قريبة المنال، والسائر في ضواحيها كأنه يسير وسط حدائق غناء، فاكهتها كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة. مساكنها ليست ضخمة البناء ولا عظيمة الارتفاع كما في إيطاليا وفرنسا، فلا يزيد أكثرها عن ثلاث طبقات مزينة في أطنافها وشبابيكها بالأزهار وأنواع الأشجار المتسلقة التي تصعد حتى آخر البناء، فلا يظهر منها إلا نوافذ مكتنفة بالحشائش فأراضيها خضراء وحوائطها خضراء وسقوفها حمراء.

فكأنها أعلام ياقوت نُشِر نَ على رماح من زبرجد

يفصل كل منزل عن الآخر حديقة شهية الأزهار، جميلة التنسيق، بديعة الترتيب، فكأن المنزل روضة عظيمة امتدت أغصانها واشتبكت أفنانها وتدلَّت فواكهها، تفتن الألباب بحسنها وجمالها وزهرها وأغصانها مما يقر العين ويشرح الصدر.

وقد شُيِّدت على خمسة تلال ممتدة على شاطئ بحيرة جنيف، وقد زرنا ضاحية من ضواحيها يحف منازلها البحيرة، فرأينا آيات الجمال والفخامة وحُسن المنظر مما يعجز عن وصفها الواصفون ويقصر عن نعتها الكاتبون، تجولنا في شوارعها وطرقاتها ومنحنياتها ومنعطفاتها، مضينا فيها مدة كانت من أشهى أوقاتنا. وقد دعانا جمال البحيرة، وما نُظِم على شواطئها من المباني والقصور والحدائق إلى أن نركب زورقًا، فاخترنا من أجملها واحدًا، وسار يخترق بنا ماء البحيرة الهادئ الذي يتجعد سطحه من النسيم فينحسر عن زرقة جميلة، يحف الزورق كثير من الطيور والبجع، فجمعنا بين طرق وُشِّيت جوانبها بأنواع الأشجار إلى زرقة في الماء وزرقة في السماء وجمال طيور تسبح في الماء.

وبمناسبة تلك النزهة أذكر أننا ساومنا صاحب الزورق في الأجر فكانت أكثر مما كنا ننتظر لما أُضِيف إليه من أجر المجذِّف، فأردنا أن نعتذر له بأن ليس معنا من الدراهم المصروفة ما يكفي أجر الزورق فأجابنا بكل لطف وهدوء بأنه إذا لم يكن معكم ما يكفي فأحضروه غدًا، فذُهِلت لإجابة هذا النوتي وقلت: عجبًا لرجل يعرف أننا من السائحين ولسنا من أهل بلده، ويأمن أن نرجع له بالأجر غدًا بعد أن ننصرف عنه، وما عهدنا عاملًا قبله صنع مع من لا يعرفه مثل ما صنع! ما هذه التربية التي غُرِست في نفس هذا العامل الصغير حتى جعلته يأمن من لا يعرفه؟! لأنه شب على هذا وعامل الناس بها فلم يعرف غيرها ولم يتسرب إلى نفسه الخبث والشر، فيظن غيره مثله فيعامله بما طُبِعت عليه نفسه من الشرور والآثام. فما أطهر قلبه وأتقاه! وما أنفس هذه التربية التي جعلت أحط طبقة في الأمة كأكبر رجال الأخلاق والآداب! إذا كان هذا شأن نوتيٍّ في الأمانة وطهارة قلبه من الرجس والأدران فما يكون حال الطبقة المتهذبة الراقية؟ أعتقد أنهم لا يأتون عملًا ينافي الذوق والآداب، محافظين على احترام القوانين، عرف كل واجبه فنُزِع الغل من صدورهم فأصبحوا إخوانًا متآلفين لا تحدث نفس أحدهم أن يرتكب جريمة ضد الواجب والقانون، لا يعامل أخاه بما لا يحب أن يعامل به نفسه. فاستراح الشرطي واطمأنت نفوس الناس على أموالهم وأرواحهم، فسار كلٌّ في عمله هادئ البال مطمئن الخاطر مرتاح الضمير، فلا تقع عينك على شرطي يراقب حركات السائرين والراكبين ليرشدهم إلى واجبهم، ولم أرَ شرطيًّا إلا مرة واحدة في بعض شوارع مدينة جنيف. وبعد أن حللنا مدينة لوزان رأينا أننا انتقلنا من جو إيطاليا الحار إلى جو بارد قد كُسِي بالغيوم السوداء واحتجب عنا ضوء الشمس إلا قليلًا مع انسكاب الأمطار أغلب اليوم، فاعتقدنا أننا أصبحنا في شتاء لشدة البرد وتوالي سقوط المطر والرعد القاصف والبرق الخاطف، فأسرعنا إلى تغيير ملابسنا الصيفية بملابس شتوية، لأنا قد حسبنا هذا الحساب من قبل، وكنت لا أقوى على الجلوس في حجرتي بدون معطف ثقيل يحول بيني وبين البرد.

ومما يسر الناظر أنك لا تجد قطرة من المطر تبقى بعد نزوله على الأرض لكثرة الاستعداد لتصريف مياه الأمطار، ولذا فإن عقب سقوط الأمطار تصبح الشوارع كأنها مرشوشة رشًّا خفيفًا، ويكون لمنظر حدائقها المرصعة بقطرات الماء بهاء ورواء.

وهناك كنا نأكل في اليوم ثلاث أكلات ممتعة بشهوة عظيمة مع الهضم السريع المنظم، فلا يشكو الإنسان سآمة ولا مللًا ولا وجعًا ولا ألمًا، وقد أحسسنا بنشاط وصحة وعافية. ويغلب على ظني أن هواء لوزان وجوها من أحسن الأجواء في سويسرا، وقد

بحيرة ليمان.

لاحظت على وجوه أهلها دلائل الصحة والعافية، يترقرق في وجوههم ماء الحياة علتها حمرة الورد، سواء في ذلك الرجال والنساء الكبار منهم والصغار.

ومما يشاهَد في نساء لوزان أنهن يتصفن بالنشاط والقوة وحب العمل، والبساطة في الملبس، وعدم التبرج والخلاعة، فلا يستعملن الأصباغ ولا ينثنين في مشيتهن ولا يلتفتن يمينًا وشمالًا، بل يسرن لما يقصدنه من أعمالهن فهن كالإنكليزيات من بعض الوجوه.

والنساء من الطبقة المتوسطة يخرجن لقضاء لوازم منازلهن الساعة السادسة مساء، وبعد قضائها يرجعن إلى منازلهن يحفهن الجلال والإعظام. وقد شاهدت عكس ذلك من نساء مدينة جنيف وذلك لقربها من فرنسا، مع أن المسافة بين لوزان وجنيف لا تزيد عن ساعة في القطار السريع.

وليست في لوزان آثار ومتاحف تستحق الزيارة، غير أني قصدت زيارة الجامعة فألفيتها في ميدان فسيح، شُيِّدت على رابية مرتفعة، بناؤها ضخم، يرفرف فوق بابها علم الحرية الخفاق، فدخلتها من بابها الكبير الذي يُصعَد إليه بعدة درجات، فرأيت مدخلًا فخمًا عُلِّقت على حوائطه أطر بها تعليمات لطلبة الجامعة. ثم طلبنا مقابلة مدير الجامعة فلم نجده وأرشدونا إلى النائبة عنه فقابلتنا بلطف وبشاشة وتحية عظيمة، فأخبرناها

بقصدنا فأسفت جدًّا وأخبرتنا أن هذا اليوم عطلة ليس بالمدرسة طلبة ولا مدرسون، فأظهرنا أسفنا الشديد لذلك، ثم أعطتنا برنامجًا لما يُدرَس في الجامعة من العلوم أثناء العطلة الصيفية. وقد تمكنا من رؤية بعض حجرات الدراسة، وهي على أحسن ما يكون من النظام والترتيب والتنسيق والزخرف، جدرانها وسُقُفها مزينة بالصور الجميلة، أرضها متحدرة إلى منضدة المعلم التي تكتنفها شجرتان جميلتان أعطتا الحجرة رونقًا وجمالًا. وللجامعة متحف جُمِع فيه من أنواع الطيور والحيوان البري والبحري مُصبَّرةً شيء كثير رأيته من أبواب زجاجية واسعة. وهنا اعتقدت أن هذا الاستعداد العلمي الكبير هو الوسيلة العظمى في نجاح الطلاب، لأنهم يفهمون دروسهم فهم مشاهد مدرك حقيقة ما يشرحه المعلم، فيثبت في ذهنه ثبوتًا لا يمحوه كر الأيام والسنين والأعوام. وليست نظريات العلوم التي يلقيها المعلمون على الطلبة مجدية نفعًا ما لم تصحبها المشاهدات.

وهنا تذكرت جامعة مصر وتمنيت أن لو كان لها من العلوم والمعدات ما لجامعة لوزان، حتى يُدرَس فيها العلم الصحيح النافع في الحياة ويفهم طلاب مصر ما يفهم طلاب لوزان مع أن لوزان بلد صغير والقاهرة بلد كبير، ولكن هناك حرية وعقول مفكرة وأيد عاملة بعيدة عن القيود فنمت نموًّا حسنًا وفكرت بهدوء وراحة واطمئنان، فأنتجت نتائج حسنة عادت على الأمة بالفائدة المرجوَّة. ومن لنا بهذه الحرية الغالية فينمو العقل المصري المشهود له بالذكاء الفطري فيبحث وينقِّب، فينتج لنا النتائج والمخترعات التي نشاهدها الآن في الأمم المستقلة الحرة؟ ومن يأخذ بيدنا ويصعدنا إلى سلم العلوم والمعارف الحقة حتى نكون مثل تلك الأمم الراقية التي عرفت علاج نفس أبنائها فداوتهم بدوائها الناجع؟

وإذا عرفت ما تحويه هذه المدينة الصغيرة من المدارس لأخذ منك العجب مأخذه وعلمت أننا من التأخير بمكان سحيق، تحتوي هذه المدينة كما أخبرنا على مائة مدرسة للبنات ومدارس تحتوي على ستة آلاف طالب، فانظر يا رعاك الله إلى درجة انتشار التعليم في تلك البلاد ووازنها بحالة التعليم في بلادنا، تجد البون شاسعًا والفرق عظيمًا والشُّقَّة بعيدة، فلا تجد لحكومتنا السنية من مدارس البنات ما يُذكَر بجانب تلك، مع أن تعليم البنت من أقوى الأسس لرقي الأمم ونهضتها:

البنت مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعراق

ويا حبذا لو كان تعليم البنت في مدارسنا يؤهلها لأن تكون صالحة للعمل في بيتها، بل بالعكس يفسد عليها حالها ويجعلها لا تهتم إلا بالتأنق في ملبسها وزخرفه وتبرجها،

مما يكلف القائم بشأنها نفقات باهظة تدعوه إلى كرهها وبغضها، وفي الوقت نفسه لا تعمل عملًا نافعًا يعود عليها وعلى أسرتها بالفائدة، ولا أنكر أن قليلًا منهن يقمن في منازلهن ببعض الواجب.

والمرأة السويسرية مشتهَرة بأنها لا تحب الظهور كل ساعة للناس، وهي مخلصة كل الإخلاص في عملها تؤْثر تعهد بيتها على كل شيء، وتفكر كثيرًا فيما يعود على حياتها البيتية بالمنفعة، فتترك السفاسف من الأمور والزينة والتبرج لا يشغل من قلبها مكانًا، فهي امرأة منزل وعمل تهتم لبيتها اهتمامًا غريبًا وتظهر حبها للنظام بدرجة فائقة.

فما من بلد في الأرض ساوت فيه المرأة الرجل كما هي في سويسرا فهي قرينته في عمله، وهذا ناشئ من تربيتها على حب العمل.

وهنا أنقل عبارة عن بعض الكُتَّاب قال:

> وقد بلغ سنة ١٩١٠ عدد السويسريات اللاتي يعملن في الصناعات المختلفة من زراعية وتجارية وصناعية نحو ١٥٧٥٠٠٠ امرأة، هذا في شعب أقل من أربعة ملايين، فإذا فرضنا أن النساء مليون وتسعمائة في سويسرا وأخرجن منهن العاجزات وصغار البنات، لا يبقى إلا عدد لا يُذكَر غير عامل من النساء، فالمرأة العاطلة عن العمل ليست بضاعة سويسرية.

والعاملات من النساء على نسبة العاملين من الرجال، وقد أحرزن منذ زمن طويل الحق بأن يكون منهن الطبيبات والمحاميات ومشاركة الرجال فيها، وقد قال أحد محرري جرائد لوزان إن الناس هنا يعملون مهما كانوا أغنياء، ولا تكاد تجد عشرة في مدينة لوزان لا عمل لهم على كثرة أغنيائها وأرباب الأملاك فيها.

(٤-١) المستشفى

قد علمت وأنا بلوزان أن بها مستشفى من أحسن المستشفيات فقصدنا زيارته، ولما وصلنا إليه أدهشنا بناؤه وراقتنا حديقته، شُيِّد على ربوة عالية أنظف من الكف وألطف من الهواء. جُلْت في طرقاته وأفنيته الكبيرة الموشَّاة بالأزهار وأشجار الصنوبر والكافور تنتشر منها الروائح الزكية، غاية في حُسن المنظر لنظافته ونظام بنائه وتنسيق طرقاته ومنحنياته.

وقد استأذنا في زيارة حُجَر المرضى لنرى نظامها وكيفية علاج المرضى فيها فلم يُسمَح لنا بذلك، إلا أنه من حُسن الحظ أن صودف أثناء سيرنا في طرقاته وجود عدد

كبير من الأطباء، يتقدمهم رجل أبيض الوجه عظيم اللحية تظهر عليه القوة والنشاط والذكاء، وهو الطبيب الخاص بأمراض النساء، هؤلاء يقصدون حجر المرضى من النساء ليروا بعض أمراضهن، فاختلطنا بهم وسرنا معهم حتى دخلنا حجرة من حجر المريضات حيطانها لامعة، وأسرَّتها غاية في النظافة وحُسن الترتيب، أدواتها تامة كأنها لم تُستعمَل.

أكثر المريضات نائمات على وجوههن، وقد رفعن رءوسهن حين دخولنا فرأينا وجوهًا نضرة تعلوها الحمرة، شعورهن ممشطة ملمومة يعلو بعضها الورد الأحمر حالتهن لا تنم عن مرض، حتى قال صاحبي حين نظر إليهن: «إنهن مريضات بالصحة!» وهنا تقدمت مريضة الذراع عند مرفقها، ويظهر أنه طال مرضها واستعصى شفاؤها، جلست على كرسي باسمة الثغر وقد اجتمع حولها الأطباء، وأخذ الطبيب الخاص بمعالجتهن يشرح مرضها بعبارات جميلة خلابة وإلقاء جذاب مع المداعبة والفكاهة من حين إلى آخر، فيضحكهم وهم يصغون لكلامه تمام الإصغاء. لبث كذلك يشرح مدة طويلة حالة المرض، ويريهم صورة المرض التي أُخِذت بالأشعة.

ولما كنا لا نفهم كثيرًا هذه الاصطلاحات العلمية وطال بنا الوقوف، تسللنا من بينهم معجبين بالاعتناء بحالة المرضى ونظافتهن وما يلوح على وجوههن من الراحة والاطمئنان، ومغتبطين بضخامة المستشفى ونظافته وحُسن تنسيقه وترتيبه. وفي ظني أنه لا يدخله مريض حتى يتم له الشفاء إن كان في عمره بقية.

(٤-٢) أثمان التجارة في لوزان

أثمان السلع في لوزان مرتفعة ارتفاعًا فاحشًا من ملبس ومأكل ومشرب، وقد أخذني العجب حينما رأيت ثمن علبة «السردين» التي تُشترَى بقرشين في مصر تُبتَاع بثمانية قروش صاغًا، والبذلة الإفرنكية التي تبتاع في مصر بثلاثة جنيهات تبتاع هناك بسبعة جنيهات، وقس على ذلك جميع الحاجيات حتى أجرة الترام والسكك الحديدية، وهذا الغلاء يُلاحَظ في مدينة جنيف أيضًا. إلا أن العيشة في الفنادق رخيصة جدًّا، فإن السائح يجد الراحة التامة والطعام الشهي، يأكل وينام بقيمة لا تزيد عن ستين قرشًا مياومة مع الخدمة التامة والمعاملة الحسنة ونظافة الخَدَم وجودة الطهي، والزبدة هناك كثيرة شهية تُقدَّم مع كل أكلة.

والفضل في هذا الرخص يرجع إلى الحكومة التي ألزمت أصحاب الفنادق بتخفيض الأثمان تخفيضًا كبيرًا حتى يرغب السائحون في الإقامة بسويسرا التي تستفيد منهم

فائدة كبيرة. ولقد كان بعض البقاع في سويسرا منذ ثلاثين سنة من أفقر بلاد أوروبا، فبفضل هذا الرخص وما أُنشِئ فيها من الفنادق، وبذل أقصى ما يمكن لاستجلاب رضا السياح والمصطافين؛ أَثْرَت تلك الأصقاع، وأصبحت سويسرا تعتمد في ثروتها على القادمين إليها من جميع أقطار الأرض ونواحيها حتى سموها «فندق أوروبا». وهذه الثروة الكبيرة الطائلة التي يبذرها الأجانب فيها لم يُحصَل عليها مصادفة واتفاقًا، فإن علم جلب الغرباء وترغيبهم قد أصبح في سويسرا علمًا حقيقيًّا، له أساليب وقوانين وجرائد ومنشورات وكتب منوعة الطريقة.

وقد علم السويسريون بالتجارب والاختبار أن السائح يُستمال بأشياء كثيرة، منها نشر الإعلانات الكثيرة الغريبة التي تلفت الأنظار، وللصور المقام الأول فيها. وكل إدارة أو نقابة توزع منشوراتها بالمجان، وكثيرًا ما تكون كتابًا كبير الحجم يحتاج طبعه إلى المال الكثير، ولكن الثمرات التي تعود من ذلك قد قُدِّرت بثلاثة أضعاف ما يُنفَق عليها.

ومنها أن كل صاحب فندق لا تحدثه نفسه باحتكار السياح، بل يهتم أولًا بنجاح المدينة ثم الناحية وأرباحها ثم النجاح العام، وهذا لم يتم إلا بالتضامن بين أبناء هذه الحرفة، فتشترك جميع الفنادق في أن يعملوا عملًا يسر جمهور النازلين والوافدين إلى فنادقهم.

وقد ألَّف معظم أرباب الفنادق نقابات عمت المقاطعات، ثم ألفت المقاطعات كلها نقابة واحدة فأصبحت فنادق سويسرا كفندق واحد.

ومنها أن كل سائح يجد راحته في الفنادق على اختلاف أنواعها واختلاف أذواق الناس واقتدارهم؛ فمن أراد الرفاهية وجدها، ومن أحب التوسط كان له ما أراد، وكذلك من أحب أقل من المتوسط.

ومنها إظهار العناية بالسائح عناية تجعله لا يمل الإقامة، وإرشاده إلى كل ما يريد بكل لطف وذوق وإنسانية، فقد علمت أن بها أكثر من مائة مدينة وسبع توجد فيها مكاتب لإرشاد الغريب والقريب يسأل الإنسان فيها عما يشاء مجانًا، وقد نُظِّمت هذه بمعرفة الشركات المحلية، ولا عمل لعمال هذه المكاتب إلا أن يجيبوا الناس عما يسألون من الصباح إلى المساء.

ومنها أنك لا تجد أحدًا يضايقك في معاملاتك، فلا تجد حوذيًّا يلح عليك في أن تركب مركبته ولا عاملًا من عمال الفنادق يلح عليك أن تسير معه إلى فندقه، بل كلهم يلبون طلبك بلطف.

وما برحت شركة الفنادق تتفنن في ترغيب السائحين وراحتهم وتنشر الكراسات والكتب التي لا تقصِّر في توزيعها، ومما أنشأته مدرسة لتعليم إدارة الفنادق يتعلم فيها مدير الفندق تعليمًا يجعله عالمًا بأساليب جلب رضاء السائحين، لأن ضرورة المباراة وحاجات النازلين في الفنادق وصعوبة الحياة الحديثة تجعل صناعته مشكلة يومًا بعد آخر، ولذلك أحدثوا مدرسة داخلية في ضواحي لوزان واسعة الأرجاء مطلة على البحيرة، وجُعِلت أجرة الدرس والأكل فيها لا تزيد عن ١٣٠ فرنكًا في الشهر لأبناء سويسرا ومائة وستين للغريب، ومدة الدراسة فيها ثمانية أشهر، ويُسأَل الطالب فيها في الأكثر في اللغات الحية، ويجب أن يكون سنه من ١٦ إلى ١٨.

وتُدرَس في هذه المدرسة (١) اللغات الحية كالإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية. (٢) الحساب. (٣) الجغرافيا العامة وجغرافيا المواصلات. (٤) تاريخ سويسرا. (٥) حُسن الخط والحساب. (٦) أصول معاملة الفنادق والمعاملات التجارية على أصول الدفاتر. (٧) معرفة الحاصلات. (٨) نظريات في الخدمة والتنظيم وحُسن الهندام. (٩) كيفية تقديم الطعام وحفظ الصحة والرياضة البدنية والألعاب والرقص.

فانظر بمَ ترقى الأمم وتنهض وتتسنم ذروة المجد وتبلغ مدى ما يمكن بلوغه في الحضارة والمدنية، وكيف يجلبون الأرزاق إلى بلادهم، وثقتهم في العمل إلى حد لا تباريهم فيه أمة أخرى إذا استثنينا الأمريكان، ونزع الغل والحسد من صدورهم وتكاتفهم في العمل متساندين متعاضدين متآلفين. بهذا ترقى الأمم وتسعد وتعيش عيشة هناء ورخاء، وبهذا يُنشَر فضل الأمم ويُذاع صيتها وتحسن سمعتها ويشاد بذكرها في كل جهات المسكونة، وبهذا تنمو الحرية ويزخر بحرها ويعج عجاجه ويكثر خيرها.

ولقد يهولك فيها كثرة صناديق البريد، وذلك يظهر كثرة البيع والشراء والأخذ والعطاء ونمو التجارة وازدياد الصادر والوارد، حتى لقد ذكرت إحدى الصحف ما معناه «ينم عن ارتقاء الشعب كثرة البريد وكثرة ما يبتاعه من الصابون والسكر.» وقد امتازت الدانمرك بكثرة بُرُدها فإن لكل ٢٣٤ ساكنًا فيها صندوق بريد، وفي سويسرا لكل ٢٨٦ نسمة صندوق بريد، ولكل ٢٣٠ في لكسمبرغ صندوق، ثم تجيء ألمانيا ففرنسا فالنمسا فالبرتغال فالعثمانيون، إذ ليس عندهم غير صندوق واحد لكل ٦٩٥٣٠٠ نسمة.

هذا بعض ما علمته عن سويسرا وما يأتيه الأفراد والشركات والحكومات لجلب السياح إليها، حتى أصبحت فندق أوروبا حقًّا وصدقًا.

من لوزان إلى جنيف

أزمعنا السفر من لوزان إلى جنيف فقصدنا محطتها الساعة التاسعة والنصف صباحًا، فسار القطار يخترق مروجًا فيحاء وجنات واسعة تابعًا شاطئ البحيرة في سيره، ووصف هذه المناظر لا يزيد كثيرًا عن أوصافنا التي وصفنا بها أرض سويسرا حين قدومنا إليها. غير أن الجزء الذي قطعناه من لوزان إلى جنيف كان قليل الجبال والتلال، ومما يمتاز به هذا الجزء جمال المناظر والقصور المنتثرة على شاطئ البحيرة هنا وهناك وكثرة الحدائق والجنان حتى مدينة جنيف، وقد وصلنا إليها الساعة العاشرة صباحًا.

(١) مدينة جنيف

مدينة فخمة المباني، متسعة الشوارع، كثيرة الحوانيت، مُشيَّد جزء منها في منبسط من الأرض على ضفاف البحيرة المسماة باسمها، منازلها مستديرة حول البحيرة، حيث تستدق عند خروج نهر الرين منها الذي يشطرها شطرين عظيمين، وقد أُقيمت الجسور الكثيرة على مجراه لتربط أجزاء المدينة بعضها ببعض. صُنِعت عدة منحدرات في مجرى النهر عند خروجه من البحيرة، يُنتفَع بها في توليد الكهرباء وإدارة بعض المعامل والمصانع، فترى الماء عند انحداره كأنه فيروز ينتثر على الأحجار. وقد امتازت هذه البحيرة بصفاء مائها وزرقته، تمخر فيها الجواري الحسان المزينة جميعها بالأعلام، تحمل السائحين والمتنزهين والمتفرجين الذين يقصدون المدن الجميلة الواقعة على شواطئها، مثل مدينة أفيان وفيفيه ولوزان وغيرها من المصايف المشهورة. ويحيط بهذه البحيرة جبال بهية مجلَّلة قممها بالثلوج الناصعة البياض، والتي تتلون بألوان جميلة زرقاء وخضراء وبيضاء في غضون مرور الشمس عليها، يقصدها أكابر البلاد وأغنياؤها والسائحون، وفي أكثرها قصور

لبعض الأغنياء وفنادق جميلة شُيِّدت على قمم الجبال، تستهوي الأفئدة بمناظرها الفتانة وشكلها البديع.

ولا أكذب القارئ إذا تحدثت إليه بذهولي لرؤية هذه المناظر مجتمعة؛ زرقة ماء، وجبال شماء، وثلوج ناصعة بيضاء، وقصور فيحاء، وحدائق غناء.

ولجنيف شهرة كبيرة بمدارسها الجامعة، يقصدها الطلاب من كل الأنحاء، وبها معامل كثيرة لصنع الساعات، وأهلها يتكلمون الفرنسية لمجاورتها لفرنسا. وأعظم متنزهاتها البحيرة وما يحيط بها من آكام وجبال شُيِّدت فوقها القصور، وطرق وُشِّيت بالأشجار، وحدائق رُصِّعت ببدائع الأزهار خصوصًا ما وقع منها على شاطئ البحيرة. وقد أُنشِئ عليها شارع طويل جدًّا عبارة عن متنزه يكتظ بالمتنزهين الذاهبين والآيبين، فيكون لذلك أثر في النفس وراحة في القلب، به أنواع كثيرة من الأشجار ضَخُمت جذورها، واشتبكت فروعها، زُيِّنت جوانبه بأنواع الأزهار والحشائش، ولا غرابة في أن يكون أهل جنيف أهل رقة ولطف وذكاء متوقد.

ولقد شعرنا بتغيير الجو فجأة، حيث انتقلنا من جو لوزان البارد إلى جو جنيف الحار، مع أنها لا تبعد عن لوزان إلا بمقدار ساعة في القطار السريع، ويظهر أن تشييد لوزان على سفح الجبل أكسب جوها برودة.

ولقد داخلني سرور لا يُوصَف لرؤية منبع نهر الرين من نهاية البحيرة المستدَقِّ عند جنيف، حيث أُقيمت عليه عدة قناطر (كباري) تربط أجزاء شوارع المدينة بعضها ببعض، وبين كل جسرين تكوَّن جزء صغير من النهر يسبح فيه البجع والزوارق البخارية التي تحمل المتفرجين والمتنزهين تغدو وتروح بهم فرحين مسرورين. وقد ركبنا زورقًا اخترق بنا عدة أجزاء منها مارًّا من فتحات القناطر، وقد تكوَّنت في بعض هذه الأجزاء من المياه جزيرة صغيرة، يصل الإنسان إليها من طريق ممتد من أحد الجسور المقامة على النهر، بها متنزه جميل وأشجار باسقة وقهوة جميلة، أُقِيم في وسطها تمثال فخم للعالم الفيلسوف الذائع الصيت «جان جاك روسو».

ومما زاد سرورنا أننا نزلنا في فندق على شاطئ البحيرة (يُسمَّى روجينا)، واخترنا حجرتنا في الطابق الرابع فظهرت لنا البحيرة ليلًا تتلألأ بها الأنوار الساطعة اللامعة، فينعكس ضوءها في الماء كزئبق رجراج أو فضة نُثِرت عليها أحجار الماس، والزوارق تغدو وتروح بالسائحين يجتلون مناظر هذه البحيرة الجميلة التي أبدعت تنسيقها يد الطبيعة.

(٢) عصبة الأمم

في اليوم الذي وصلنا فيه إلى جنيف قصدنا زيارة دار عصبة الأمم، فرأينا بناء ضخمًا فسيحًا يشرف على بحيرة جنيف تزينه حديقة كبيرة فاستأذنا في الدخول فأُذِن لنا، وقد صحبنا في زيارتها أحد مستخدميها العارفين فأرانا الحجرة التي يجتمع فيها أعضاء العصبة ومقاعد محرري الجرائد فيها، والمتفرجون يجلسون خلف محرري الجرائد إذا كانت الجلسة علنية. والحجرة واسعة جميلة المنظر مزيَّنة بالرسوم والنقوش، وفي آخرها الجنوبي مبنى يرتفع قليلًا وُضِعت عليه المنضدة المكسوَّة بالمخمل الأزرق وحولها كراسي أُعِدَّت لجلوس الأعضاء، وقد فُرِشت أرضها ببساط أزرق من لون غطاء المنضدة.

وبدار العصبة مكتبة من أحسن المكاتب نظامًا وتنسيقًا، مباحة لكل من يريد الاطلاع على أنواع العلوم والفنون، صُفَّت فيها المناضد والمقاعد ليجلس عليها بعض المغرمين بالاطلاع ردحًا من الزمن.

وقد رأيت في هذه الدار حجرة واسعة مستطيلة، رُصِّت فيها الكراسي على هيئة مدرج «أنفتياترو» قليل الانحدار، وقد أُعِدَّت هذه للجمعية العمومية لعصبة الأمم لإلقاء الخطب والمحاضرات في الشئون الهامة، يحضرها كثير من ذوي الحيثيات والمقامات الرفيعة، مزينة جدرانها وأسقفها بالصور الجميلة والنقوش البديعة. وقد سألنا مرشدنا عن عدد الدول التي انتظمت في سلكها، فأخبرنا أنها تبلغ نحو أربع وخمسين دولة، ولأربعة وأربعين دولة موظفون بهذه الدار يقومون بشئون دولهم فيها. وقد اتفق وجودنا وقت انصراف الموظفين فرأيناهم يتقاطرون رجالًا ونساء من جميع جهاتها مختلفي الوجوه والألوان والأزياء، فنراهم بادئ ذي بدء سائحين يزورون هذه الجمعية كما نزور، فسُرِرت جدًّا لمشاهدتها، وتذكرت ما يحكم به هؤلاء الأعضاء على الأمم والشعوب المهيضة الجناح، ويقضون فيما يقع بينهم من المشاكل والمنازعات السياسية. وهي مفيدة نافعة إذا تجرد أعضاؤها عن الهوى، وعدلوا وأقاموا الوزن بالقسطاس ولم ينحازوا إلى أممهم ويعملوا لصالح بلادهم فحسب ويقضوا القضاء المبرم على الأمم العاجزة التي لا حول لها ولا قوة فتقع فريسة بين مخالبهم الحادة المهلكة.

وهنا وددت لو كنا مستقلين استقلالًا حقيقيًّا متمتعين بحريتنا حتى نصبح في عداد الأمم الحية الحرة، التي نفضت عنها غبار الذل والهوان ورتعت في بحبوحة العز والهناءة وكسرت قيود الاستعباد، ويكون لنا ممثلون يشغلون محلًّا في دار هذه العصبة ويعملون لخير بلادنا ويدفعون عنا غائلة الأمم القوية الفاتكة.

(٣) جامعة جنيف

واقعة في الجزء المرتفع من المدينة على شمالي البحيرة ونهر الرين، أمامها ميدان فسيح به بعض التماثيل، غير أن بناءها أقل ضخامة من جامعة لوزان. رأينا فيها حجر الدراسة مشغولة بالطلاب والطالبات، ملتفِّين حول منضدة طويلة والمعلم جالس في نهايتها يلقي دروسه بهدوء وسكينة، بحيث لا يُسمَع له صوت خارج حجرته. وبعض الحجر هُيِّئت على نظام مدرج، والطالبات والطلاب مختلطون لا حاجز بينهم حين تُلقَى دروسهم من المعلم.

وقد كان الدرس في هذا اليوم يبتدئ الساعة التاسعة صباحًا، فلما حان الوقت وجدنا الطلاب والطالبات والسائحين والمتفرجين يتقاطرون من كل الأنحاء. وحضور الدرس مباح لكل شخص مقابل جزء قليل من الدراهم، فأردنا أن نأخذ جوازًا بحضور درس من الدروس حتى نطَّلع على نظام التدريس وكيفية الإلقاء، ولكنا أُخبِرنا أن الجواز يُؤخَذ قبل الدرس بيوم.

والجامعة واقعة في حديقة كبيرة جدًّا، في نهايتها الشرقية تماثيل عدة لعظماء رجال السياسة والعلم من أهل سويسرا، وقد كُتِب على كل تمثال منها بعض أعماله العظيمة التي تدل على مقدار ما له من الفضل والهمة في رقي أمته.

وهكذا تعيش الأمم الحية بتمثيل عظماء رجالها لأبنائها حتى يتسنى لهم النسج على منوالهم والاقتداء بأعمالهم، فينشئون على حب الفضيلة والعمل لأمتهم وإنكار الذات وتضحية المصالح الخصوصية بجانب المصالح العمومية، فيسعى الكل متكاتفين متساندين في رفعة أوطانهم وترقية شئونها مادِّيًّا وعلميًّا واقتصاديًّا، فيعيش الأفراد ناعمي البال مطمئنِّي القلب.

ومما يلفت النظر في سويسرا بنوع خاص أن دواوين الحكومة ومصالحها ليس بها حُجَّاب ولا خدم يرشدونك إلى محل رؤسائهم.

ولقد ذهبنا إلى زيارة مصلحة الصحة بناءً على ما كتبه مفتش الحدود بين إيطاليا وسويسرا على الجوازات من ضرورة عرض أنفسنا على طبيب الصحة، فلما ذهبنا إليه لم نجد من يرشدنا إلى حجرة الطبيب الخاص لعدم وجود خدم ولا حجاب ولا سعاة على الأبواب الخاصة بالموظفين، بل يدخل الإنسان دار الحكومة كأنه داخل في محل خالٍ من الموظفين، لأن كل موظف داخل حجرته المغلقة. وما زلنا نتنقل من طرقة إلى أخرى ومن محل لآخر ونسأل من يصادفنا من الناس حتى وصلنا إلى حجرة الطبيب، فاطَّلع على الجوازات وأعطانا شهادة بأننا أصحاء الأجسام.

وقد كُتِب على باب حجرة كل موظف هذه العبارة: «ادخل بدون استئذان»، وحينئذٍ خطر ببالي — والضد أقرب خطورًا بالبال — ما يُكتَب على أبواب الموظفين هذه العبارة «ممنوع الدخول»، كأنه يأتي أمرًا منكرًا داخل حجرته، مع ما يهولك من كثرة الخدم والسعاة الواقفين على بابه. فإذا أردت الدخول في مصلحة من المصالح المصرية لقضاء شأن من الشئون أخافك من يقابلونك من الخدم والسعاة والحُجَّاب، فلا يمكنك مقابلة الرئيس حتى تقابل الحاجب ثم كاتم السر (السكرتير) إلى الانتظار الممل، بل إن لم ينظر الكاتم إليك نظرة عطف ورحمة خرجت في بعض الأحيان من المصلحة بدون مقابلة الرئيس فتتعطل أعمالك ويذهب وقتك النفيس سدى، فتفضل عدم قضاء مصلحتك على ما تراه من الذل والهوان في سبيلها.

فمتى يأتي الوقت الذي يعرف فيه الموظف المصري واجبه، ويحترم حقوق الناس ويسعى في إنجازها، ويعلم أنه ما جلس على كرسيه إلا لخدمة الناس وقضاء مصالحهم، وأنه يأخذ أجره من عرق جبينهم، وتمتنع هذه الكلفة والفوارق الهائلة التي تجعل الهوة سحيقة بين الموظفين والأهلين، ولا تكون مصالح الحكومة كالتكايا يقيم الموظفون فيها بدون إنجاز أعمال الناس؟ والويل لك إذا دخلت مصلحة لم تعرف بها أحدًا! فإنه لا يُقضَى لك أمر ولا يُنجَز لك عمل، وإذا طالبت بحقك سمعت ما تكره، وربما كان ذلك سببًا في أنه لا تُقضَى حاجتك إلا إذا توسلت بالرئيس وكان عادلًا لطيفًا.

وقد عجبت كل العجب من عمل السويسريين ونظامهم في أعمالهم، وإنجازها بالترتيب لا فرق بين قريب وغريب وحقير وعظيم.

وعلى الجملة فقد جمعت سويسرا بين محاسن الطبيعة ومحاسن الأخلاق والنظام في الأعمال.

ولكون هذه المدينة لم تحوِ آثارًا ولا متاحف لم تطب لنا الإقامة فيها كثيرًا، وقد غادرناها إلى مدينة باريس قصبة فرنسا إن شاء الله.

من جنيف إلى باريس

بعد أن فرغنا من زيارة أهم ما يزار في مدينة جنيف قمنا منها قاصدين مدينة باريس، فركبنا القطار الذي يقوم من محطة جنيف الساعة الحادية عشرة والنصف صباحًا، فوصلنا إلى باريس الساعة العاشرة والنصف مساء، وحُجَر القطار فاخرة تحوي ثمانية مقاعد كل مقعد عليه رقمه ليتيسر لكل من يحجز الأمكنة معرفة مكانه، وكل مقعدين يفصلهما فاصل مكسوٌّ بالمخمل الأحمر. وقد سار القطار بنا ينهب الأرض نهبًا نحو ساعة ونصف ساعة في مناظر سويسرية جميلة تأخذ بالألباب وتسحر الأفئدة، حتى وصلنا الحدود الفرنسية عند محطة تُسمَّى «ديوان التفتيش»، فمكثنا بها نصف ساعة ومر بنا المفتش خلفه خمسة رجال يساعدونه، فيسأل الراكبين: هل عندكم شيء ممنوع حمله؟ فيكتفي منهم بقولهم لا أو نعم. وبعد ذلك سار القطار في أجزاء من بلاد فرنسا تشبه مناظرها المناظر السويسرية، إلى أن وصلنا إلى محطة غيَّر منها القطار اتجاهه، وهنا سار في أرض سهلة متوسطة الخصوبة، يتخللها قليل من جبال وتلال ووديان وماء جارٍ ومزارع واسعة، ترتع فيها الماشية محتاطة بسياج من الأشجار يمنع الماشية من تجاوزها مرعاها.

وعند الساعة الثالثة دُعِينا في المرة الثانية لتناول طعام الغداء مقابل سبعة عشر فرنكًا، وأنواع الأطعمة لذيذة شهية، وهي:

(١) كامخ (سلطة)، وهي: سردين، قوطة، بيض ممزوج بشيء شهي. (٢) شُرْبَة. (٣) بيض مقلي ممزوج بلحم الخنزير، ولذا لم يكن لنا نصيب فيه. (٤) قطعة من اللحم العجالي الصغير (بتلو) تُسمَّى «روزبيف»، يصحبها بطاطس محمرة. (٥) جبنة رومي. (٦) جيلاته. (٧) موز وتفاح.

وقد انتهينا من الأكل الساعة الرابعة والنصف. ولما لم يكن يصحب هذا الأكل ماء غير المشروبات الروحية، اضطُرِرت لأخذ زجاجة ماء معدني ثمنها ثلاثة فرنكات قيمة الفرنك بالقطع قرش وربع قرش.

وقد أخذ القطار يسير بسرعة عجيبة، ولم يقف بعد أن جاوزنا حدود سويسرا غير مرتين حتى وصلنا إلى محطة باريس، وهنا يعجز القلم عن وصف الأنوار التي تتقدم محطة باريس على مسافة بعيدة، وقد ظهرت المحطة والضواحي تتلألأ بالأنوار الساطعة الخلابة التي تأخذ بمجامع القلوب وتسحر الألباب، وتترك في النفس أثرًا لا يُمحَى خصوصًا لمن لم يرها قبل ذلك.

وقد يُخيَّل للرائي أنه يسير وسط ثريات وأنوار ساطعة كأنه في احتفال بمهرجان عظيم، وقد سار القطار مسافة طويلة فيها.

وبعد أن وصلنا إلى محطتها نادى كل مندوب باسم فندقه، وقد قرأنا في الجرائد أسماء الفنادق والعيشة في الأُسَر وأثمان كلٍّ، فاخترنا النزول في بنسيون «عيشة الأسر»، فركبنا سيارة تطوي الأرض طيًّا وسط شوارع واسعة كثيرة الأضواء المتلألئة، وما زالت سائرة حتى وصلنا إلى المكان الذي نقصد إليه فلم نجد فيه حجرة خالية، فرجعنا بالسيارة نبحث عن فندق حتى عثرنا على فندق يُسمَّى «مصر» فارتاحت نفوسنا إلى ذكر هذا الاسم المحبوب عندنا ومنَّيْنا أنفسنا بالراحة فيه ولكن الأمر كان بعكس ذلك، فإن صاحبه طلب منا في الحجرة التي تحوي سريرين ستين فرنكًا عدا الأكل وهي قيمة كبيرة بالنسبة له، ولذا نمنا فيه تلك الليلة وفي الصباح قمنا مبكرين وكان هذا اليوم باردًا، فتناولنا طعام الإفطار وخرجنا نبحث عن السفارة المصرية حتى أُرشِدنا إليها. وهناك قابلنا حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ البنا إمام السفارة مقابلة شفَّت عن لطفه المعهود وأدبه الجم، وحضرة صاحب العزة سيزوستريس بك الذي كان قنصلًا لمصر في البلجيك في ذاك الوقت، وهو غاية في الأدب وحُسن الخُلق ورقة الحديث، وحضرة عبد السلام بك الجندي المملوء همة ومروءة وذكاء، وغيرهم من موظفي السفارة، فارتاحت نفوسنا واطمأنت قلوبنا، وأصبحنا كأننا في مصر لوجودنا بين أبناء وطننا العزيز، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث عن مصر وحالتها العامة برهة من الزمن. ثم سألناهم عن الفنادق التي يعرفونها، فأرشدونا إلى فنادق جميلة اخترنا منها واحدًا موقعه أمام القنصلية المصرية وأجرة النوم فيه خمسون فرنكًا بما في ذلك الأكل، فأحضرنا حقائبنا إليه وتناولنا فيه

طعام الغداء واسترحنا إلى الساعة الرابعة. وبعد ذلك خرجنا لنرى أهم شوارع باريس، وهنا يقف القلم ويجمد الفكر ولا يعرف كيف يصور الكاتب أو يصف ما يقرِّب جمالها وحُسنها إلى ذهن القارئ، لأنها جمعت من المحاسن نصيبًا وافرًا، ولكن أجدني مضطرًّا إلى ذكر شيء مجمل عن وصف باريس وما حوته من الجمال والإبداع.

(١) باريس

هي بإجماع آراء الكُتَّاب والزائرين لها والقادمين عليها والساكنين فيها أول مدائن الأرض عظمة وضخامة، وزهاء وبهاء، ورونقًا وجمالًا، وحُسنًا وجلالًا، لم يرَ الناس من يوم أن قامت للحضارة والمدنية قائمة نظيرًا لها يناظرها، ولا شبيهًا يشابهها في جمال شوارعها، وضخامة مبانيها، وعظمة ميادينها، ومتاحفها وحاناتها ومتنزهاتها، وتنسيق حدائقها، وقصور ملوكها، ورقة أهلها.

فهي مركز دائرة التمدين الحالي، ونبراسه الذي ينير ما حوله من البلدان والممالك، مقصد الطلاب، وقبلة السائحين، ونزهة المهمومين، ومفرجة كرب المكروبين، يؤمونها من فجاج الأرض على اختلاف مللهم ونحلهم وأجناسهم، ويتسللون إليها من كل حدب وصوب، فلا تخلو هذه المدينة العظيمة من الآلاف المؤلفة تنساب إليها من جميع الأقطار والنواحي القاصية والدانية سواء في الصيف أم في الشتاء، ليمتعوا أرواحهم بجمالها، ويغذوا نفوسهم بزيارة معاهدها ومتاحفها وآثارها، ويرتضعوا لبان علومها ومعارفها، ويرتشفوا من منهلها العذب، ويرجعوا إلى بلادهم متضلعين في العلوم والمعارف وأنواع الفنون والصنائع. فهي مطمح القاصد، ونجعة الرائد، ومورد الظمآن، وجنة الضَّجِر، وسلوة المحزون، منبع الأزياء ومصدر الكياسة واللياقة واللطف والظرف، أس الحضارة وفهم الإشارة وموطن الرقة والرشاقة. يقفو المتمدينون أثرها، ويتبعون خطواتها، وينسجون على منوالها، ويحتذون حذوها فيما يستجد فيها من التمدين.

طليعة المدائن العظمى في العلوم والمعارف والمخترعات، عليها اعتمد الناس في ترقية النشء، وأرسلت إليها الممالك المختلفة البعوث الكثيرة ليرقُّوا بلادهم بما تعلموه واستناروا به من علوم هذه المدينة العظيمة وفنونها، فيعلو شأنها وتصبح أمة حية ناهضة بين الأمم الراقية.

ولقد كان لها الفضل الأول في ترقية أفكار المصريين المرسَلين إليها زمن محمد علي باشا وخلفه، فرجعوا منها حاملين لواء العلم ونالوا في ميدانه القدح المُعلَّى فأصبح يُضرَب

بذكائهم المثل، ولهم الأثر البين في النهوض بأمتهم وترقية أحوالها ماديًّا وأدبيًّا، وفي رواج الصناعة والتجارة وتنظيم الجيوش ونظام الشوارع والمدن والحدائق وسن القوانين والنظام الذي ضمن سير الأمور على محور الاستقامة والعدل.

فيها من المعارض والمتاحف ودور العلم وبيوت الصناعة ما يعجز القلم عن وصفه وتعداده وبيان قيمته الفنية والعلمية، التي تدل دلالة واضحة على ما لفرنسا من القوة العلمية والمجد التالد وضربها في العلوم والمعارف بسهم وافر، حتى أصبحت علَمًا يُهتدَى بها ومنارًا يُسترشَد به في دياجير الظلمات ومُدلَهِم الخطوب والنوائب، ولطالما تغنَّى المادحون بمدحها وأجاد الواصفون في وصف تلك المشاهد والمناظر التي تسر الناظرين وتفتن عقول السامعين.

يُخيَّل إلى السائرين في شوارعها وطرقاتها ومنحنياتها أنه في عيد عظيم واحتفال جسيم، لأن أهلها في هرج ومرج، غادين رائحين، لبس وخلاعة، جمال ورشاقة، وجوههم مسفرة، ضاحكة مستبشرة، تحسبهم لم يُخلَقوا إلا للنعيم ولم يعيشوا إلا في هنائه، لا يعرف الشقاء ولا البؤس لهم بابًا، يُهرَعون إلى هاتيك المتنزهات اليانعة، والرياض النضرة ذات الأزهار الجميلة، يكبون على الملاهي ويتهافتون عليها تهافت الفراش على النار، فهي بهم غاصَّة وبمناظرهم الجميلة مزدانة.

يدلك على مقدار تهافتهم على دور التمثيل والملاهي أنى قصدت مرة أن أحضر رواية «تاييس» في الأوبرا حتى أرى بعيني ما شوَّقني إلى رؤيته الواصفون، قصدت نافذة التذاكر لابتياع تذكرة منها الساعة الحادية عشرة صباحًا، وقد تأخرنا عن الميعاد المضروب لفتح نافذة التذاكر خمس دقائق؛ فلم نتمكن من الوصول إلى النافذة إلا الساعة الثانية عشرة وربع الساعة، فكيف يكون الحال لو تأخرنا نصف ساعة وقد بلغ الازدحام غايته؟! ولذا تجد رجال الشرطة في عناء وتعب لكثرة الوافدين بين أهلين وأجانب.

وإنه ليعسر على الذي يزور باريس، وهذه حالها وتلك آيات جمالها، وصفها وصفًا يقرب حقيقتها إلى ذهن القارئ.

وإن الشوارع الباريسية، محور الجمال والإتقان، ينفق عليها مجلس بلديتها المبالغ الطائلة في كل عام حتى تبقى بحالة تليق بعظمة المدينة ومكانتها، فترى فيها أحسن ما اكتحلت بمرآه العين من قصور فخمة للأثرياء، أو لحفظ الآثار، أو للفائدة العامة، ومخازن جمعت ما تناهى في الحسن وغرابة الصنع، رُتِّبت فيها البضائع على نسق بديع، وجواهر تسطع أنوارها وتتلألأ من وراء ألواح زجاجية نقية. وهي في الليل أوفر بهاء

وزخرفًا منها في النهار، إذ يلقون عليها النور الكهربائي فتزهو فوق زهائها وتتلألأ بضوئها الساحر، فيجذب بريقها الساطع آلافًا من المتفرجين. وعلاوة على ذلك فإن في كل الشوارع أناسًا يخطرون بأبهى الحلل وسيدات يرفلن في الدمقس والحرير وبديع الأزياء، ولهن في حركات السير والتثني فن عجيب يصدق عليهن قول الشاعر:

إذا قامت لحاجتها تثنَّت كأن عظامها من خيزران

فلو أنك زرت باريس ولم تشهد ضواحيها ولم تدخل متاحفها وقصورها الباذخة وجناتها اليانعة، بل اقتصرت على التجوال في شوارعها الفيحاء؛ لكفاك منظرًا ترتاح إليه نفسك، وتشهد بغرابة هذه المدينة التي لم يشيد الناس إلى هذا اليوم نظيرًا لها.

(١-١) شارع الشان إليزه

هذا الشارع يمتد من ساحة الكونكورد إلى بناء قوس النصر الذي شرع نابليون الأول في بنائه، لانتصار جيوشه على جيوش أوروبا.

وهو يُعتبَر متنزهًا عامًّا لأهل باريس تحفه الحدائق الغنَّاء من الجانبين، قد نُضِّدت على جوانبه المقاعد الكثيرة للحكومة ولبعض الشركات، فإذا جلست على كرسي للشركة جاءك عامل يطلب منك أن تدفع له نصف فرنك أو أقل من ذلك مقابل جواز (تذكرة)، تبيح لك التنقل على تلك المقاعد طول اليوم. وهذا الشارع مقسَّم إلى ثلاثة أقسام: قسم لسير السيارات الغادية والرائحة، وقسمان للغادين والرائحين مشاة.

وجميع هذه الأقسام غاصَّة بالأشجار الباسقة والأزهار الجميلة، يتخللها كثير من النافورات. تسير فيه السيارات متصلة بعضها ببعض كالقطار يظن الناظر إليها أنه في احتفال بملك كبير أو فاتح عظيم. فإذا أراد الإنسان قطع هذا الشارع عرضًا فلا يتمكن من اجتيازه إلا بصعوبة، فالناس فيه كأنهم في يوم حشر، تحيط به العمائر العالية من الجانبين تناطح السماء بعلوها الشامخ تحوي منازل الأغنياء، وقصور الأثرياء، والقهوات ومسارح اللهو والفنادق، فلو سرت فيه يوم الأحد لرأيت من أشكال الناس وأزيائهم وجماعاتهم ما يبهرك. وتحسب أن السعادة والجمال صُوِّرا في ذلك الشارع، فأينما قلَّبت الطرف رأيت جمالًا يروقك ومنظرًا يسرك، تسير فيه المركبات الضخمة التي تُسمَّى «أمنبوس» وهي كثيرة في شوارع باريس ولندن.

شارع الشان إليزه.

(١-٢) ساحة الكونكورد

هي ساحة واسعة لا نظير لها في الأرض كلها كما علمت، ولم تصنع أمة من الأمم مثل هذه الساحة العظيمة الشأن، يرى السائر فيها أبهى المناظر وأحسنها. في وسطها مسلة مصرية أهداها المغفور له محمد علي باشا إلى لويس فيليب ملك فرنسا، وهي قائمة على قاعدة عظيمة، ومن حولها المماشي والممرات الواسعة يسير فيها المتنزهون والمتفرجون. وقد شُيِّد في ناحية منها عدة فساقي جميلة، تخرج نافوراتها من أفواه صور أسماك تحضنها تماثيل فتيات من أحسن ما أقامه المثَّالون، فهي آية في الإبداع والجمال.

وساحة الكونكورد كما علمنا قديمة العهد اشتُهِرت أيام الثورة الفرنسية، شهدت في تلك الثورة ما لم تشهده الساحات والميادين في العالم من الأهوال والفظائع، حدث بها من الحوادث ما تشيب لهولها الولدان وترتعد لذكرها الفرائص، فإن رجال الثورة جعلوها مقر فظائعهم ومظالمهم، فأقاموا فيها المشانق وأطاروا مئات رءوس من العظماء والأمراء ورجال الدين، صُبِغت جوانبها بدماء المقتولين، ولقد قال بعض المؤرخين: إن الذين قُطِعت أعناقهم في ساحة الكونكورد مدة سنتين، من سنة ١٧٩٣ إلى سنة ١٧٩٥،

لم يقلوا عن ألفين وثمانمائة شخص من عظماء فرنسا، منهم الملك لويس السادس عشر وزوجه ماري أنطوانت وأختها أليصابات وأخوه الدوك دورليان وابن عمه فيليب وأعوانهم وكثير ممن ينتسب إليهم.

ميدان الكونكورد.

فسبحان الملك الديان الذي يغير الشئون من حال إلى حال! فبعد أن كانت مصرعًا للرجال ومقرًّا للمظالم والنكبات والأهوال، أصبحت مسرحًا للغواني الحسان، ومركز البهاء، ومقر الظرفاء، ودعامة العمران، ترتاح لمنظرها النفوس، وتُسَرُّ لرؤيتها القلوب، مذهبة الأحزان ومخففة الأشجان لما حوته من المناظر الفتانة والتماثيل البديعة الصنع.

وينتهي شارع الشان إليزه من الجهة الأخرى بقوس النصر العظيم.

(١-٣) قوس النصر

هو بناء ضخم شاهق البنيان، عظيم الأركان، له أربع حنايا ضخام، مقام وسط ميدان عظيم، تتفرع منه عدة شوارع من أكبر شوارع باريس المعدودة في أوائل شوارع مدن العالم زينة وبهاء.

شرع نابليون الأول في بنائه تذكارًا لانتصاره على جيوش أوروبا وأتمه من بعده فيليب، تحوي حناياه رسوم المعارك العظيمة التي أحرزت فيها الجيوش الفرنسية نصرًا على الأعداء.

وقد أُقِيم في أعلى هذه الحنايا الأربع عدة تماثيل غاية في العظامة تمثل رجالًا وفتيات وحيوانات، رمزًا وتصويرًا لحالة فرنسا وحروبها وغلبتها في المعارك والوقائع الحربية الكثيرة.

وهو أكبر قوس للنصر في الأرض كلها كما علمت، ويُعرَف باسم «قنطرة الكوكب» رمزًا للكوكب الذي تنبعث منه الأشعة والأنوار في كل جانب، كما تنبعث منه الطرق وتتفرع منه الشوارع وهي اثنا عشر شارعًا من أجمل الشوارع وأحسنها توصلك إلى داخل المدينة وخارجها، قد زُيِّنت جميعها بالأشجار الباسقة والأزهار النضرة والقصور الشامخة والعمائر الباذخة والمصايف الجميلة البديعة.

ومن أهمها الشارع الذي يوصل إلى غابات بولونيا، فهو لا يقل كثيرًا عن شارع الشان إليزه من حيث السعة وإنشاء الحدائق على جانبه حتى يتصل بغابات بولونيا، رُصَّت على جانبيه المقاعد داخل المتنزهات وخارجها.

ولعظم هذه الشوارع وتشابهها يضل الإنسان فيها ولا يعرف الشارع الموصل إلى محل قصده، وقد ضللنا مرة فيها وحسبنا أننا نسير في الشارع الذي يوصل إلى فندقنا فإذا بنا في شارع غيره. وهذه الشوارع كلها مركزها قوس النصر، فإذا وقف الإنسان تحته ومد بصره رأى هذه الشوارع عبارة عن حدائق غناء، فأصبحت بذلك مجتمعًا لأهل الترف ومتنزه جماعات الحظ واليسار، يأتون إليها من سحيق الأقطار ليمتعوا بمحاسنها الطرف، يجتمع فيها كل يوم من أهل المدينة ونزلائها الآلاف المؤلفة ليجلوا محاسن مناظرها، يسير أكثرهم في سيارات جميلة المنظر والأزاهر من هنا وهناك والشجر الأنيق في كل جانب وماء البحيرات الصناعية يتدفق من أنابيبها، فكأن السائر فيها يسير في أرض جمعت أنواع المحاسن. ولا غرابة بعد هذا الجمال إذا توافد عليها الناس من جميع فجاج الأرض بخيلهم ورَجِلهم، حتى إن المسير يتعذر على الناس خصوصًا أيام الآحاد فتضطرب صفوف السيارات وتسير الهُوَيْنا.

ولم يكن يحلو لي إلا الجلوس في حدائقها والسير في جنباتها، خصوصًا غِبَّ المطر الذي يكسبها منظرًا حسنًا وهواءً عليلًا ونسيمًا بليلًا.

وفي وسط أرض قوس النصر مدفن الجندي المجهول، تذكارًا للتضحية التي قامت بها فرنسا في الحرب مع ألمانيا من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨.

قوس النصر بباريس.

ومما يلفت النظر فتحة في نهاية القبر تتصاعد منها النيران ليل نهار. يحيط بالمدفن الذي لا يرتفع عن سطح الأرض أكاليل الأزهار الكثيرة يُحضِرها من فقدوا أقاربهم في الحرب ولم يعرفوا عنهم شيئًا، وهو رمز لكل جندي فُقِد في ساحة القتال. وهذا القبر محروس بجنديين يقفان أمامه دائمًا، وقد كُتِب على سطح القبر ما ترجمته: «هذا قبر الجندي المجهول الذي قُتِل مدافعًا عن وطنه.»

وكل شخص يزور هذا القبر يخلع قبعته ويقف أمامه خاشعًا خاضعًا، وقد وقفت أمامه ولم أتنبه لذلك فجاء إليَّ الجندي وأرشدني بلطف إلى خلع القبعة فخضعت لإشارته.

وكل من حل هذه المدينة تدعوه نفسه إلى رؤيته، ولذلك تجد السائحين والزائرين يفدون إليه بكثرة عظيمة.

وكل يوم أحد تقوم فرقة من الجيش بموسيقاها تحمل أعلامًا وإشارات كثيرة تقف أمامه وتؤدي التحية العسكرية له ويتبعها كثير من الناس، ثم ترجع بهذه

الأعلام والموسيقى تصدح بألحانها المحزنة مخترقة الشوارع، فيكون المنظر مؤثرًا والحزن والسكون والرهبة بادية على وجوه السائرين.

والجندي المجهول يُدفَن في أضخم محل تتجه إليه أنظار السائحين والزائرين، فقد رأيته في رومة في أضخم بناء يحرسه جنديان تغطيه الأزهار والأكاليل، ورأيته في لندن في أكبر معبد وهي كنيسة «وستمنستر» التي خُصِّص أكثرها لدفن مشاهير رجال إنكلترا، الذين لهم الأثر البين في نهوضها أدبيًّا وماديًّا وعلميًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا، إكرامًا لهم وإذاعة لمجدهم وتخليدًا لذكرهم.

(١-٤) متحف اللوفر بباريس

لا يقوى مثلي على إبراز ما رآه وشاهده في متحف اللوفر بباريس في صورة تجمع شتاته وتعطي للقراء صورة حقيقية، لأن هناك معاني تقوم بنفس الإنسان وليس في مقدوره أن يلبسها اللفظ الذي يرضاه لها. على أني سأجتهد بقدر ما تسمح لي الحالة في وصف ما شاهدته فيه من التحف والآثار، حتى لا أحرم القارئ من الاطلاع على بعض ما عند القوم من الآثار الخالدة والاهتمام الكبير بحفظ ما تركه السلف للخلف، ليكون درسًا عمليًّا تحتذيه الأبناء فيعملوا مثلهم ويقوموا بمثل ما قاموا به من جلائل الأعمال وعظائم الأمور، وتكون أنشودتهم:

لسنا وإنْ أحسابنا كرمت ... يومًا على الآباء نتكلُ
نبني كما كانت أوائلنا تبني ... ونفعل مثل ما فعلوا

في صبيحة يومٍ قمنا مبكرين قاصدين زيارة متحف اللوفر العظيم، الذي يتحتم على كل زائر باريس أنْ يفكر في رؤيته قبل كل شيء لأهميته وعظمته واعتباره من أشهر المتاحف والمشاهد في العالم، لاشتماله على كثير من الآثار المهمة المنوَّعة من آثار أغلب الممالك القديمة والحديث التي لها شهرة في التاريخ، فذهبنا لنركب المركبات الكهربائية التي تسير تحت الأرض وهي أشبه بالقطار منها إلى الترام.

ينزل الإنسان إلى المحطة من فتحة في الشارع يحيط بها سياج من حديد قليلًا، معلَّقة عليها خارطة تعين الطرق التي يقطعها القطار تحت الأرض، فقطعنا نحو عشرين درجة في النزول وسرنا تحت قبو من الصيني حتى وصلنا إلى فتاة داخل نافذة الجوازات

(التذاكر)، يقدم لها الإنسان الأجرة المطلوبة فتعطيه الجواز (التذكرة) إلى المحل الذي يقصده. ثم سرنا قليلًا منحدرين على درجات سلم آخر حتى وصلنا إلى فتاة أخرى أشَّرت على هذا الجواز، ومنها اجتزنا بابًا إلى محطة نُضِّدت فيها المقاعد، فجلسنا حتى حضر القطار الذي لا يغيب أكثر من خمس دقائق، وإذا وقف القطار فُتِحت أبوابه للركاب ومتى تحرك قُفِلت هذه الأبواب من تلقاء أنفسها وأُدِيرت مزالجها وحدها أيضًا، ثم يسير القطار بسرعة عظيمة.

وجميع المحطات محلَّاة بصور الإعلانات الكثيرة، وبأغلبها دكاكين لبيع بعض الأشياء كالكتب والصور وغيرها، وبها عدة صناديق على هيئة الموازين في المحطات مملوءة بـ «الشكولاتة»، وبكل عدة فتحات كُتِب على كل منها ثمن ما يريده الإنسان فيضع الثمن في فتحة من تلك الفتحات، فينحدر ما دفع ثمنه من «الشكولاتة» بعد أن يدير يدًا فيه.

وللراكب في بدء أمره دهشة عظيمة متى خُيِّل إليه أنه يسير تحت الأرض بهذه السرعة، وكيف يكون حاله إذا خرَّ عليه السقف أو فسد الهواء في هذه الأنفاق الكثيرة التي ليس لها منافذ إلا فتحات المحطات، ويبقى عدة أيام بين استغراب ودهشة حتى يألفه. والناس تركب فيه بكثرة فيكون مكتظًّا دائمًا بالراكبين، ولم أتذكر مرة أني ركبت فيه ووجدت بعض مقاعده خالية إلا قليلًا خصوصًا عند الساعة السادسة، وقت خروج العمال من محالِّ أعمالهم، فإن الإنسان لا يقوى حتى على الوقوف بينهم.

وجميع هذه الأنفاق منارة بالكهرباء ليلًا ونهارًا، ومسقوفة من الداخل بالصيني اللامع على هيئة قبو، ويبلغ اتساع هذه الأنفاق في بعض مواضعها كالمحطات نحو اثني عشر مترًا.

وقد عددت درجات بعض السلالم من سطح الأرض إلى المحطة فألفيتها نحو ثلاثين سلمًا، وبعض المحطات بها رافع يصعد فيه من لا يقوى على صعود السلم لعلوه مقابل شيء من النقود.

والناس في المحطات في هرج ومرج خصوصًا عندما يغيرون الركوب من قطار إلى آخر، فإنهم يسرعون في السير رجالًا ونساءً وأطفالًا في أنفاق مختلفة الاتجاهات نازلة وصاعدة، قد يضل فيها الإنسان وإن كانت مرسومة عليها الاتجاهات وقد ضللنا طريقنا مرارًا فيها، وهم يهتمون بتطهيرها دائمًا خوفًا من فساد الهواء حتى تكون صالحة للتنفس وإلا مات تحت الأرض خلق كثير.

وهذه الأنفاق تمر تحت نهر السين في جهات كثيرة منه، فهو آية في العظمة وعمل خطير يدل على المقدرة الكبيرة، فلم يكفهم مشاركة الطيور في سمائها والأسماك في مائها

حتى ذللوا باطن الأرض للسير فيها لتكمل لهم المواصلات بأنواعها، ولتسهل لهم الحركة في أعمالهم الكبيرة وتخف الحركة الهائلة فوق الأرض. ولك الحق أن تركب بجوازك هذا جميع الخطوط تتنقل من خط إلى آخر ما دمت تحت الأرض، ومتى ظهرت فوقها بطل عمله.

ما زلنا سائرين تحت الأرض حتى وصلنا إلى محطة قريبة من اللوفر، فصعدنا من باطن الأرض إلى ظهرها من فتحة في الشارع محتاطة بسياج من حديد كأننا بُعِثْنا من قبورنا. وبعد أن سرنا قليلًا لاحت لنا فخامة متحف اللوفر وعظمته.

(١-٥) متحف قصر اللوفر

هذا القصر العظيم كان في أوله مسكنًا لملوك فرنسا، بدءوا في بنائه سنة ١٥٤١ وأخذوا في تحسينه ووسعوا بناياته جيلًا بعد جيل، وكان آخر ملك زاده حسنًا الإمبراطور نابليون الثالث فإنه أوصله بقصر «التولري» الذي أعده لسكنه، حتى بلغت مساحة القصرين معًا في عهده نحو ١٩٥٠٠٠ متر مربع فكانت لهما الشهرة العظيمة، حتى خرب جزء من التولري في إحدى الثورات فلم تهتم الحكومة الجمهورية لإصلاح القصر، ولكنها أبقت منه حديقته الجميلة واهتمت بإصلاحها وجعلتها من متنزهات باريس العامة المشهورة بجمالها وتنسيقها وحُسن أزهارها، حتى صار يُضرَب بها المثل بما فيها من الأشجار الباسقة والحسن والجمال والإتقان تقصدها الأسر للنزهة فيها والتمتع بحسنها في وقت الفراغ من الأعمال.

دخلنا من بابه الأول إلى فناء واسع مستطيل تحيط به أجنحة من القصر، وبعد أن سرنا في هذا الفناء ما يقرب من مائة وخمسين مترًا قابلنا رجلًا يبيع صورًا للمتحف فسألناه عن ميعاد فتحه للزائرين، فأخبرنا أنه لا يُفتَح إلا الساعة العاشرة وكانت الساعة حينئذٍ التاسعة، فاجتزنا هذا الباب إلى ساحة عظيمة أيضًا تحفها مباني هذا القصر في وسطها حديقة أُقيمت فيها التماثيل المختلفة رمزًا إلى حوادث تاريخية، وتتصل هذه الحديقة بحديقة «التولري» التي مر ذكرها، يفصلهما شارع كبير تمر فيه المركبات والسيارات، فجلسنا على مقعد من مقاعدها نمتع الطرف بالأزهار والأنوار والتماثيل البديعة، حتى حان الوقت فقصدنا الباب الذي تقاطرت عليه أفواج السائحين والمتفرجين، ففُتِح ودخلنا مع الجميع متراصين متساندين، وقد تفرق هذا الجمع بعد سيره قليلًا في نواحي المتحف. وهذا القصر أفخر وأعظم قصور باريس على الإطلاق، بل قيل إنه أوسع

قصور الدنيا بأسرها، وقد يهولك منظره عند دخولك إلى أول ردهة منه لما به من العظمة وحُسن الترتيب وفخامة البناء وغرابة التماثيل.

رأينا الطابق الأسفل وبعضه يشمل آثار القسم الشرقي بعجائبه وغرائبه، وهو أقسام منها ما هو خاص بالآثار المصرية القديمة، ومنها ما هو للآثار الرومية والرومانية والفارسية والآشورية وغيرها من الممالك الشرقية القديمة، وجميعها وُضِعت في حُجَر متداخلة يصل الإنسان من بعضها إلى بعض بطرق متعرجة.

وللآثار المصرية بنوع خاص بهجة ورواء دالة بأوضح بيان على ما كان للمصريين من القدح المعلَّى في فنَّي النقش والنحت، وتماثيل يظهر لأول وهلة أنها أحسن تماثيل قام بنحتها ونقشها أشهر النحاتين والمثَّالين، وقد مُلِئت بها عدة حجر سُمِّيَت بأسماء مختلفة، منها قاعة إيبيس وقاعة الأموات لما فيها من الآثار التي تدل على مقدار ما كان يبذله المصريون لحفظ أجسام الأموات وما كانوا يعتقدونه من خلود الروح وبناء القبور العجيبة، وغير ذلك مما يعرفه من اطَّلع على دار العاديات المصرية ولا يتسع المجال لشرحه الآن.

وهناك متحف للصور المجسمة التي صُنِعت في القرون الوسطى، وهو يشتمل على عدة قاعات غاية في الإبداع والاتساع مكتظة كلها بالنفائس من التماثيل المنحوتة من الأحجار، ترمز أغلبها إلى حالات دينية وسياسية.

وعلى الجملة فلكل أمة من الأمم القديمة آثار على أشكال مختلفة وأنواع منوَّعة؛ منها ما هو من البرنز، ومنها ما هو من المرمر، ومنها ما هو من الرخام. والأحجار أغلبها يدل إما على حوادث تاريخية أو أحوال سياسية أو حروب دينية أو ما كان يتخيله هؤلاء من النجوم وحوادثها، فيدلون عليها بتماثيل حسب ما يتخيلون مثل رسم صنع تمثال للزهراء على هيئة فتاة غاية في الإبداع وحُسن الصنع، ومثل إله نهر تبر وُجِد تمثاله في حديقة برجيزي في رومة، وأجمل تمثال لآلهة الجمال في اليونان يُسمَّى «مترف» أجمل ما وُجِد الآن من رسم الآلهة، وغير ذلك من التماثيل التي تمثل تاريخ الرومانيين، وعظمة الفراعنة، مما يقف الناظر أمامها مذهولًا.

وهناك صور وتماثيل تدل على معانٍ مختلفة لا يتسنى لي ولا لغيري وصف بعضها في كتب ضخمة، لأن في هذا القسم ما يشرح حالة الرومانيين من العظمة برسم مشاهير عظماء رجالهم وأحوالهم السياسية والدينية وما لهم من المواقف الشهيرة، ويعيد إلى الذاكرة قوة الآشوريين ورفعة وعظمة المصريين وما وصلوا إليه من النبوغ في فن النحت

والتمثيل في الأزمان الغابرة والعصور الخالية، بينما كانت جميع أمم الأرض تائهة في دياجير الظلام الحالك، ليس لها من العلوم والفنون والعظمة ما تساوي شروى نقير بجانب معارف المصريين، فكانت كنبراس عظيم الضوء انتشرت أشعته على جميع الممالك المجاورة لها، فأكسبتها مدنية وحضارة لما أخذته من علومها ومعارفها مما جعلها تسمو إلى الرقي وتسلك سبيل حضارتها.

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

وهذا المتحف يمتاز عن دار العاديات «الأنتكخانة» في بلادنا بأنه يشمل آثار كل أمم الأرض، فيرى الناظر إليها ما كان للأمم من العظمة، ويمكنه أن يحكم بعض الحكم على أخلاق تلك الأمم في مدنيتها وحضارتها ورقيها وحالتها المعادية والمعاشية.

وفي الطريق العلوي من هذا المتحف قسم الرسومات البديعة، التي قدرها بعضهم بأنها تزيد عن ثلاثة آلاف رسم تُقدَّر قيمة بعضها بنحو عشرين ألف جنيه.

ولما دخلت هذا القسم أخذتني الدهشة وخالطني الذهول، ووقفت حائرًا أفكر وأسائل نفسي: كيف تسنى لفرنسا أن تجمع في هذا القصر تلك النفائس الغريبة للأمم المختلفة؟ وفي أي زمن حصلوا على تلك الصور التي يُخيَّل للناظر إليها أنها حقيقة ولا تنقص غير الحركة والكلام؟ وإن تلك الصور تمثل لك كل ما يخطر ببالك من أحوال الدنيا والآخرة، فقد شغلت عدة حجر من القصر يبلغ طولها نحو كيلومتر، ولا يمكن السائر فيها أن يشاهد ما بها مشاهدة تامة ولو في عدة أيام، لأن جميع الرسامين المشهورين في أمم الأرض لهم بها عدة رسومات وصور نفيسة شتى لمهرة الرسامين الفرنسيين وغيرهم.

وهناك حُجَر تحوي ما للصين من صور ورسومات وأسلحة ومفروشات وآلات طرب وقوارب صغيرة مصنوعة من سن الفيل الدقيق غاية في الجمال، وأوانيَ صينية محلَّاة بأبدع النقوش وأوانيَ بلورية وأقمشة وأحذية صغيرة جدًّا تمثل صغر أرجل الصينيات، وغير ذلك كثير. ومن هذا يُعلَم بعض ما في هذا المتحف من النفائس والذخائر التي تُقدَّر بملايين الجنيهات.

ومن الصور التي تلفت الأنظار صورة يوم القيامة وحالة الناس في ذلك اليوم وما هم فيه من الذهول والكرب، وصورة كليوبترا ملكة مصر المشهورة، وصورة آسية امرأة فرعون تنشل موسى عليه السلام من النيل، وصور دينية تمثل حوادث الإنجيل والتوراة، أو تمثل خيال المصريين على أشكال بديعة أنيقة غاية في الجمال عظيمة التأثير في النفوس، وصور المعارك البرية والبحرية.

وقد أدى بنا المطاف، ونحن مسرعون لنرى بعض الحجر قبل فوات الوقت المحدد، إلى رواق «أبولون» مزينة جدرانه وأسقفه بالذهب والتماثيل الجميلة التي لها روعة في النفس، نُضِّدت فيه الجواهر النفيسة والحلي البديعة داخل ألواح زجاجية، وكذا الأواني الفضية والذهبية التي كانت لملوك فرنسا مما لا يدخل تحت تقدير. وقد رأينا داخل ألواح زجاجية تاجًا مرصَّعًا بالماس والأحجار الكريمة، وبجواره سيف نفيس حُلِّيت قبضته بأحجار الماس الكبيرة وهو لنابليون الأول، ومعه قطعتان من الماس كبيرتا الحجم قد بلغ وزن إحداهما كما هو مكتوب عليها ١٢٠ قيراطًا.

وقد زُيِّن هذا الرواق بصور جميع المشهورين من الرسامين بينهم بعض ملوك فرنسا، وغير ذلك مما يبهر العقول ولا يحيط به وصف.

والخلاصة أن قصر اللوفر وتحفه آية من آيات الجمال وعظمته تفوق كل عظمة. ولم نتمكن من مشاهدة جميع ما يحويه هذا القصر الفخم، لأن هذا يحتاج إلى عدة أسابيع بل إلى شهور وأعوام لمن يريد درسه درسًا فنيًّا وعلميًّا وتاريخيًّا ودينيًّا، ولم نرَ في ساعتين أكثر من الطابق الأول وجناح واحد من الطابق الثاني مع السرعة.

هذا ما أمكنني أن أقدمه إلى القراء وإن كان قطرة من بحر، وما لا يُدرَك جُلُّه لا يُتْرَك كله.

(١-٦) قصر فرساي

فرساي مدينة صغيرة قريبة من باريس، ابتدأت شهرتها على عهد لويس الرابع عشر، فإنه جعلها مقر حكمه الرسمي مدة الصيف، وشيَّد فيها هو ومن أتى بعده من الملوك قصورًا لم تزل أفخم ما شيده الملوك الأوروبيون وأكثرها بهجة وزينة وزخرفة.

وقصر فرساي هو ذلك القصر العظيم الذي يقصده السياح والزائرون من كل فج. ولما اعتزم لويس الرابع عشر تشييده قرن ذلك بالجد والاجتهاد في إبرازه إلى حيز الوجود بسرعة عظيمة، حتى بلغ عدد العاملين في إصلاح الطرق وتنسيق الحدائق والبساتين وإعداد ما يلزم له على ما يقال ٣٦ ألف رجل في اليوم الواحد تساعدهم ستة آلاف من الخيل، إلى أن تم العمل وبرز هذا القصر الفخم شاهدًا لهذا الملك ومن أتى بعده بالقدرة والهمة العالية، وأصبحت له شهرة تاريخية لوقوع كثير من الحوادث المهمة فيه بما هو معروف في كتب التاريخ.

وقد زاد في هذا القصر من أتى بعد لويس الرابع عشر من الملوك عمائر أخرى متصلة به غاية في الإبداع والعظمة، ولذلك كان مجموعة مركَّبة من عدة عمارات.

قصر فرساي.

وقد هُجِر هذا القصر العظيم من عهد الثورة الفرنسية، وكاد يتخرب ويذهب عمل هؤلاء الملوك مع حوادث الزمان وكوارث الأيام، حتى فكر بعضهم في بيعه تفاديًا من تحمل ما يستدعيه ترميمه وإصلاحه من النفقات الباهظة، إلى أن تولى الملك لويس فيليب فرأى أن يرممه ويصلحه وينشئ فيه المتحف التاريخي الباقي إلى الآن، وكان ذلك سنة ١٨٣٢م، فوضع فيه جميع الرسوم التي ترمز إلى حوادث تاريخية، حتى أصبحت المجموعة التي فيه عديمة المثال.

قمنا مبكرين في يوم لنقضيه في مشاهدة هذا القصر وتحفه العجيبة، فركبنا الترام الذي يسير تحت الأرض قاصدين محطة فرساي، ولما وصلنا إليها أخذنا جوازًا (تذكرة) لنركب قطار السكة الحديدية الموصل إليها، فسار بنا القطار في مناظر جميلة تشبه مناظر سويسرا من حيث الارتفاع والانخفاض والهضاب والتلال، ووُشِّيت سفوحها بالأشجار والأزهار والمنازل الجميلة المشيدة فوق التلال، ولذا كان القطار تارة يعلو وأخرى ينحط وطورًا يدخل في نفق.

وما زلنا سائرين نمتع الطرف بهذه المشاهد الجميلة حتى نزلنا في محطة فرساي، وسرنا في الطريق الموصل إليه، وكان هذا اليوم ممطرًا فنشرنا الظلل وسرنا تحتها حتى لاح لنا القصر من بُعْد تعلوه الأبهة والجلال. دخلنا من بابه الخارجي فرأينا سياجًا عظيمًا من الحديد يحيط بفناء واسع يكتنفه جناحان عظيمان من ذلك القصر، في وسطه تمثال لويس الرابع عشر يمتطي جوادًا ضخمًا فوق قاعدة عالية من الرخام والتمثال والجواد من النحاس، فوقفنا في هذا الفناء الواسع المرصوف بالأحجار لنرى عظمته وجلاله وعلو همة من شادوه، وقد صدق فيه قول من قال:

قصر عليه تحية وسلام   خلعت عليه جمالها الأيام

وقد دخلنا من بابه الذي يوصل إلى حجراته مع جم غفير من السائحين والمتفرجين بعد أن دفع كلٌّ منا فرنكين أجرة الدخول، دخلنا حجرات الطبقة الأرضية وفيها شيء كثير من الصور والتماثيل التي لا يمكن حصرها ولا مشاهدة جميعها إلا بعد جهد كبير. ومما لفت نظرنا أن من بين هذه الحجرات إحدى عشرة حجرة بها الرسومات التاريخية من أول مدة شارلمان إلى مدة لويس السادس عشر، ويُسمَّى مجموع هذه الحجرات برواق تاريخ فرنسا، وفي الواقع إن الرسومات التي فيها تمثل حروب فرنسا الشهيرة في المدد المذكورة. وفيها أيضًا رواق الإمبراطورية، وهو يشمل عدة قاعات كالسابقة تحتوي على رسومات الوقائع الشهيرة التي حصلت مدة الإمبراطورية، مثل دخول نابليون الأول برلين واستقباله رؤساء مدينة ويانة، وغير ذلك من الحوادث التاريخية. وفي هذه الطبقة أيضًا حجر التماثيل المجسمة التي تحتوي على كثير من تماثيل رجال الجمهورية والإمبراطورية مما لهم أثر بيِّن في نهوضها ماديًّا وأدبيًّا وحربيًّا وسياسيًّا.

وإذا أردت أن ترى عظمة قصر فرساي وأبهته فانظر إليه من حديقته التي سيأتي وصفها، فإنك ترى ما يملأ نفسك رهبة وجلالًا وتقديرًا لهمة ملوك فرنسا، وما كانوا عليه من أبهة الملك والسطوة والمقدرة.

أما من الداخل فلا أبالغ إذا قلت إنه قصر يقل نظيره في أعظم قصور العالم، لم يشاهد السائح زخرفة قصر وعظمة بناء وصورًا وتماثيل مثل ما يشاهد في قصر فرساي، لأن الصناع أفرغوا ما في جعبتهم في زخرفه وتحسينه وتزييته ونقشه، حتى يصح أن يقال فيه: «ليس في الإمكان أبدع مما كان»، فإذا دخلت حجراته الواسعة المزينة بالرسوم والنقوش العجيبة ورأيت ما تحويه من النفائس، شعرت في الحال بعظمة الذين شادوه، ولطالما رأت هذه الحجرات عزًّا وفخرًا في عهد لويس الرابع عشر.

وفي هذا القصر توَّج البروسيون ولهلم الأول إمبراطورًا على ألمانيا كلها، وبه الرسوم الكثيرة التي تدل على انتصار فرنسا على الألمانيين خصوصًا في عهد المغوار نابليون الأول وغيرها من الأمم، مما يصح أن يكون درسًا واضحًا يشرح تاريخ فرنسا وحروبها الكثيرة من الرسوم المجموعة في حجرة الحروب، وقد قُسِّمت هذه الحروب حسب تاريخ وقائعها في غرف خاصة.

فصور الحروب الصليبية في حجرات خاصة بها، وصور حرب القرم كذلك، ومعارك نابليون المشهورة في قسم آخر، وحروب ممالك شمال أفريقية وكيفية أسر الرجال والنساء والأمراء بأزيائهم وُضِعت كذلك في حجرات خاصة بها.

ومن بين هذه الرسوم صورة تمثل ألمانيا جاثية على ركبتيها بذلٍّ وخشوع أمام فرنسا وهولندا مصابة بصاعقة الحروب تئن وتشتكي وإسبانيا وجلة، وقد بلغ من شهرة هذه وذيوعها بين تلك الأمم أنها كانت حسب ما رواه بعض المؤرخين السبب في تألب ممالك أوروبا ضد الملك لويس الرابع عشر.

ومما يُذكَر بالإعجاب والغرابة حجرة المرايا العظيمة، فإن طولها يبلغ ٧٣ مترًا في عرض ١٠ أمتار في ارتفاع ٢٣ مترًا، وهي تطل على بساتين القصر وحياضه وبحيراته من سبع عشرة نافذة كبيرة، تجاه كل نافذة مرآة محلَّاة بالذهب تنعكس فيها صور الزائرين والمتفرجين حتى يُخيَّل إلى الإنسان أنه يسبح في ماء، وقد زُيِّن سقفها بالذهب والصور البديعة التي تشير إلى حوادث تاريخية أو خيالية.

وإذا أشرفت من إحدى تلك النوافذ على الحديقة وبحيراتها وبركتها أطربك هذا المنظر وملأ نفسك سرورًا لا يُقدَّر، وتتجلى لك عظمة القصر وحديقته، ولا يسهل على واصف وصفه، خصوصًا إذا كانت المياه تتدفق من البرك الكبرى ومياه الأنابيب ترتفع في الجو على أشكال غريبة منوعة. ويصل الإنسان من هذه الحجرة العظيمة إلى حجرة نوم لويس الرابع عشر، مفروشة بأحسن الفرش، في وسطها سرير نهاية في الفخامة والزخرف، يفصله عن باقي الحجرة سياج ليس لأحد من الزائرين أن يتعداه، وقد مات لويس الرابع عشر على هذا السرير بعد أن حكم فرنسا زمنًا طويلًا جدًّا. وقد زُيِّنت هذه الحجرة بأبدع النقوش وأفخر التماثيل وثمين الأثاث.

ورأينا في هذا القصر مسرحًا للتمثيل (أوبرا) آية في الزخرف والزينة والعظمة، شيده لويس الرابع عشر وأبدع في زخرفه وموَّه في نقوشه بالذهب، وكسا مقاعدها بالمخمل الأحمر (القطيفة)، وجعل له أروقة تشرف على المسرح. وليس المسرح عرضة للزائرين بل

يبحث عنه من يحب أن يراه، ويكافئ الحارس الذي عُهِدت إليه حراسته ببعض الفرنكات حتى يسهل له رؤيته.

وقد رأينا حجرة ماري أنطوانت الخاصة بها ومحل جلوسها وبعض حُجَرها التي أعدتها للحوادث وكيفية تنقلها من حجرة إلى أخرى بحالة لا يمكن للناظر أن يعرفها إلا بالإرشاد، مثال ذلك أنك تجد في نهاية حجرة من حجرها هيئة مكتبة بها كتب قيمة فيتوهم الناظر إليها أنها نهاية الحجرة فإذا بها عدة منافذ خلف هذه المكتبة، وقد استعملتها حين هجم عليها الثوار فاختفت عن أنظارهم مدة طويلة، ولكن ذلك لم يُجْدِها نفعًا فإنها وقعت في أيديهم وقُتِلت كما مر ذكره فيما سبق. وغير ذلك من الحجر والأروقة التي تحتوي على نفائس وتحف لا يتسنى لزائر مثلي وصفها فإنها تجِلُّ عن الوصف.

وطول هذا القصر يبلغ نحو ٤١٥ مترًا، به حديقة لا تُوصَف لجمالها ونضرتها وما فيها من الأزهار والنافورات المتعددة والأحواض الكثيرة، وبها ٦٠٠ بحيرة غاية في الجمال، وبركة يتدفق منها عشرة آلاف متر مكعب من الماء ترد إليها بالآلات البخارية من أمكنة بعيدة، وهم يعلنون عن تدفق الماء منها في ميعاد محدود بصحف باريس، ويكثر أن يكون ذلك كل خمسة عشر يومًا فيتقاطر الناس عليها لمشاهدة ذلك المنظر البديع النادر المثال، لأن خروج الماء منها وظهوره بألوان متعددة وأشكال بديعة يسحر العقل ويحير اللب. ومنظر الحديقة من أعجب وأغرب ما يرى الناظر لا لكبرها واتساعها وإنما لنظامها وجمالها وحُسن أزهارها نُظِّمت على أشكال هندسية يجمع الشكل الواحد عدة ألوان من الأزهار. يحيط بجميع بحيراتها تماثيل مختلفة الصنع والجمال، وعلى منحدراتها يجلس الناس على بساط من الخضرة موشًّى بالأزهار المختلفة كأنها يد رسام خطَّها على قطعة من الورق. ويتصل بهذا القصر قصران آخران، يُعرَف أحدهما باسم «تريانون الكبير» والثاني باسم «تريانون الصغير».

أما الأول فبناه لويس الرابع عشر لإحدى محظياته، وأشهر ما فيه الآن عجلات قديمة فاخرة استعملها ملوك فرنسا الأُوَل في احتفالاتهم العامة والرسمية وأكثرها من أيام بونابرت، وبعضها قد استُعمِل في موكب تتويج نابليون الأول واستُعمِلت أخرى في زواجه، إلى غير ذلك من العجلات المزخرفة التي تدل على الأبهة والعظمة. وأشهر ما فيه برلمان صغير جعله لويس الرابع عشر لاجتماع المجلسين حين الاختلاف في شأن من شئون المملكة، ولكل رئيس من الرؤساء مقعد خاص به، وفي صدر البرلمان عرش الملك البديع الصنع آية في الزخرف والزينة.

وقد جلسنا على مقاعده الفخمة فداخلني الغرور حيث أجلس في محل جلس عليه أحد عظماء فرنسا، وكان ذلك أثناء شرح المترجم لنا ما يحويه هذا البرلمان، ولا يدخله إلا طائفة قليلة من السائحين والزائرين والباقي ينتظر حتى يخرج من دخل، وهكذا تدخل طائفة ويُغلَق الباب ولا يُفتَح إلا بعد انتهائها من الفرجة وفي مقابل ذلك تُدفَع قيمة قليلة من النقود.

وأما التريانون الصغير فهذا قصر شيده لويس الخامس عشر، وكان قصرًا لبعض أفراد الأسرة المالكة، وله حديقة جميلة تُفتَح كل يوم يقصدها المتفرجون، وفي القصرين رسوم وآثار تشير إلى حوادث جمة تاريخية لا تخرج عما وصفناه آنفًا.

ولا يزال قصر فرساي له الشهرة التاريخية في الحوادث الحربية وغيرها، وبه تُعقَد المحالفات والمعاهدات إما على فرنسا أو لها، وآخر معاهدة عُقِدت فيه معاهدة الحرب العظمى بين فرنسا وألمانيا وحلفائهما، ولا تزال مشكلتها معقدة إلى الآن لعدم إذعان ألمانيا لما جاء فيها من الشروط ومحاولة التملص من قيودها، ولا ندري ماذا تتمخض عنه الأيام من مكنون حوادثها، خصوصًا بعد رياسة هندنبرج الذي تنبهت لتوليته أعصاب أوروبا.

إن الليالي من الزمان حبالى　　　مثقلات يلدن كل عجيبة

وما ذكرته عن قصر فرساي وما به من التحف قُلٌّ من كُثْر وليس الخبر كالعِيان.

(١-٧) قصر الأنفليد

بناء فخم آية في العظمة والفخامة بناه لويس الرابع عشر ليكون مأوى لمن أصابتهم عاهة من الجند أثناء الحروب ولم يكن لهم أهل يعولونهم، أو للذين يفضلون الالتحاق به على الإقامة عند أهليهم، وتجرى عليهم الأرزاق فيه ما داموا أحياء، يدير شئونهم وأحوالهم جنرال عظيم من أقدم القواد في المملكة، يقضون أوقاتهم في حدائقه الواسعة ورحباته الجميلة يتنزهون ويقرءون ما طاب لهم من الكتب والمجلات والصحف، وقد شُيِّدت لهم في هذه الدار الواسعة كنيسة يتعبدون فيها، لهم ما يريدون من أمر الدنيا والآخرة بدون أن يكابدوا أدنى صعوبة. ويُسمَّى هذا القصر الفخم دار «العجزة».

ويشغل هذا القصر مساحة من الأرض لا تقل عن ١٢٧ ألف متر مربع، وقد هُيِّئ لأن يسع نحو خمسة آلاف نفس ولكن لا يجتمع فيه نصف هذا العدد لإيثار بعضهم العيشة الحرة في بلادهم على العيشة في هذا القصر.

وواجهة القصر فخمة فإن طولها يبلغ نحو مائتي متر، وهو ثلاث طبقات زُيِّنت بتماثيل كثيرة ترمز إلى وقائع الحروب التي نُصِرت فيها فرنسا على أعدائها، وبه الآن معرض عظيم القدر والقيمة يقصده السائحون والمتفرجون من جميع جهات الأرض. وبه عدة حجر جُمِعت فيها الأسلحة على أشكال متنوعة متعددة قديمة وحديثة، وما استُعمِل منها في الحروب الفرنسية، والذي غنمته جنود فرنسا في حروبها الكثيرة من المدافع والسيوف، خصوصًا ما غنمه الفرنسيون في الحرب الأخيرة من الألمان، وترى فيها الأسلحة البيضاء المستعملة للهجوم، وهي تشمل البنادق و«الطبنجات» وسائر الأسلحة النارية، كما أنها تحوي الأسلحة البيضاء المستعملة عند جميع الأمم. ويتبع الأسلحة المذكورة عدد الخيل وما كان يستعمله المحارب من الملابس أثناء الحرب من رأسه إلى قدمه مما يمثل حالة الحروب القديمة والحديثة تمثيلًا تامًّا. وبه عدة قاعات بها تماثيل رجال الحروب والقواد العظام بملابسهم الحربية على اختلاف أنواعهم وهيئاتهم وجهاتهم كقواد الجزائر الأوقيانوسية وقواد أمريكا وسواحل آسيا وأفريقية، وغير ذلك مما يعجز القلم عن وصفه. وبه حجرات تشتمل على صور صغيرة تمثل أنواع الأسلحة في الأزمان الغابرة إلى وقتنا الحاضر. ومما يلفت النظر وجود سلسلة من الحديد يبلغ طولها نحو ١٨٠ مترًا استعملها العثمانيون لوقاية جسر مدوه على نهر الطونه أيام محاصرتهم ويانة.

وبالكنيسة التي مر ذكرها في هذا القصر قبر نابليون الأول بطل فرنسا العظيم الذي دوَّخ البلاد وقهر الممالك والعباد، أُقِيمت عليه قبة يهولك منظرها وتروعك عظمتها وتقف أمامها خاشعًا خاضعًا عندما تتذكر ذلك البطل المشهور وأكبر قواد الأرض قاطبة في العصور الحديثة وما قام به من امتلاك الممالك التي كانت تتيه كبرًا وصلفًا، وأذلَّ أكبر الجبابرة من الملوك ودانت له أوروبا بأسرها وتحكَّم فيها كأنها إمارة صغيرة، ولكن بعد زمن صغير زال ملكه وذهب عزه وتهدَّم مجده.

لكل شيء إذا ما تم نقصان — فلا يُغَرَّ بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دولٌ — من سره زمن ساءته أزمان

فإن الدهر قد قلب له ظهر المِجَنِّ وأدارت له الأيام ظهرها وأذاقته مرارتها بعد أن تمتع بلذيذها وشهي ثمارها، فوقع أسيرًا في يد الإنكليز على أثر خدعة نصبوها له (والحرب خدعة)، فنفوه إلى جزيرة القديسة هيلانة وبقي بها أسيرًا حتى مات، فنُقِلت رفاته منها إلى هذا القصر الفخم كما وصَّى قبل موته أنه يريد أن يُدفَن في فرنسا المحبوبة

بجوار نهر السين، ففعلوا ما أراد وشيدوا على قبره هذه القبة العالية التي تُرَى جوانبها من عدة أماكن بباريس، قد طُلِيت بالذهب. وهي عبارة عن مربع ضلعه ٦٠ مترًا، وفي وسطه قبر نابليون من قطعة واحدة من الحجر طولها أربعة أمتار وارتفاعها أربعة أمتار ونصف. وحول القصر عدة تماثيل بديعة تشير إلى الإصلاحات التي قام بها نابليون الأول، كإعادة النظام وإصلاح الإدارة والمجلس الإداري والصناعة إلى غير ذلك. وبها لوح أحمر من الرخام كُتِب عليه أشهر الوقائع التي قام بها هذا البطل العظيم.

وفي القبة غير قبر نابليون قبور بعض المشاهير من أقربائه. وقد كُتِب على قبره هذه العبارة: «أتمنى أُدْفَن على شواطئ نهر السين بين الأمة الفرنسية التي أحبها كثيرًا.»

وبهذه الكنيسة أيضًا نحو ١٥٠٠ راية غنمها جنود فرنسا في معارك نابليون الأول، وكلها محفوظة في ذلك القصر. كما أن هناك حجرًا كثيرة مملوءة بالملابس القديمة المتعددة الأشكال والأنواع والألوان لملوك فرنسا وأبطالها مما يعجز القلم عن وصفها وعدها.

وقلَّ أن يأتي فرد من الناس في باريس ولا يرى عظمة هذا الأثر العظيم، الذي يملأ النفس عظةً واعتبارًا ويشعره بعظمة الأثر الموجود به ويذكره بحوادث الدهر وعبره.

(١-٨) قصر لكسمبرج

هو قصر بديع تحيط به الحدائق من كل جهاته، وقد وصلنا إليه بعد مشقة لأننا قصدناه راجلين، وبعد هذا كله لم يُصرَّح لنا بدخوله كما لم يُصرَّح لغيرنا، ولذلك حولنا وجهتنا لرؤية متحفه الجميل الذي يُعَد من أبدع المتاحف. فأول ما يرى الرائي في صالاته الخارجة تماثيل كثيرة صُنِعت من المرمر البديع وغيره تشير إلى حوادث كثيرة ومعاني متعددة، كتمثال العدل وتماثيل الإخاء والاتحاد وتماثيل للشجاعة والحروب. وقد أدى بنا المطاف إلى حجر كثيرة متصلة بعضها ببعض فرأينا ما لا يُوصَف، حجر زُيِّنت سُقُفها بالنقوش البديعة وحوائطها بالرسوم الغريبة والأطر المموَّهة بالذهب تحوي صورًا جميلة؛ منها ما يشير إلى بعض الحوادث الحربية، ومنها ما يشير إلى حوادث تاريخية، ومنها صور ربات الجمال اللاتي اشتُهِرن في التاريخ بحوادث دعت إلى رسمهن ليرى الزائر صواحب تلك الحوادث المهمة، ومنها صور تدل على بعض الكواكب وأخرى من خيالات المصورين تشير إلى معانٍ كثيرة ويظن الناظر إليها أنها حقيقية، كلها ناطقة بفضل المثَّالين والرسامين. وهذا المتحف مكتظٌّ بالمتفرجين والسائحين خصوصًا الأمريكان الذين يملئون أنحاء أوروبا، لأني ما دخلت متحفًا أو أثرًا إلا وجدته مملوءًا بهم.

(٩-١) مدفن عظماء فرنسا

بعد أن فرغنا من زيارة متحف قصر لكسمبرج اعتزمنا زيارة مدفن عظماء فرنسا، فسرنا إليه حتى أشرفنا على فناء واسع في نهايته بناء ضخم مرتفع يصعد الإنسان إليه بسلم عريض يبلغ نحو خمسين مترًا، شُيِّدت واجهته على عُمُد ضخمة تشير إلى عظمة البناء وأبهته.

مدفن العظماء بباريس.

بعد أن صعدنا هذا السلم سرنا على منبسط من الرخام حتى وصلنا إلى بابه، فقابلنا رجل داخل حجرة صغيرة لها نافذة فأخذ منا «فرنكين» وسمح لنا بالدخول، فدخلنا في فناء واسع مرصوف بالرخام مقام على عمد ضخمة سقفه مرتفع جدًّا مزيَّن بالنقوش البديعة مموَّه أكثره بالذهب الوهاج. وقد أُقيم في صدر هذا المحل مذبح من الرخام الأبيض الناصع، وأُقيمت عليه وبجوانبه التماثيل التي لا تُوصَف لجمالها، يعلوها تمثال على هيئة فتاة ترمز إلى حرية فرنسا، ويمتد على جوانب هذا المذبح من الجهتين على مسافات طويلة أروقة مزخرفة يجلس فيها الرهبان حين إقامة الصلاة ليلقوا على الناس المواعظ.

وقد دُفِن على جوانب هذه الكنيسة الضخمة عدة من عظماء فرنسا في قبور بارزة من الرخام.

وبعد أن متعنا النظر بهذه المناظر الجميلة رأينا على بُعد قومًا مجتمعين على باب ليدخلوا منه إلى رؤية بقية القبور الضخمة فانتظرنا معهم حتى يخرج من دخلوا قبلنا، وما زلنا كذلك حتى فتح الباب رجل سار أمامنا وتبعناه وسرنا في ممشى حتى وصلنا إلى سلم نزلنا منه إلى سرداب طويل مظلم منار بالكهرباء وعلى جانبه القبور داخل حجر مجللة بأكاليل الأزهار قديمة وحديثة مضاءة بالكهرباء كُتِب على كل قبر اسم صاحبه، وقد أخذ الدليل يشرح لنا أسماء أصحاب القبور وما قاموا به من بعض الأعمال التي كانت لها أثر بين في ارتقاء فرنسا أدبيًّا وماديًّا وعلميًّا وحربيًّا، كالفلاسفة والقواد والعلماء والكُتَّاب والشعراء كفولتير وهوجو وغمبتا. وقد دخلنا مدفنًا واسعًا ضم نحو أربعين جثة من عظماء فرنسا وجميعها منارة يراها الإنسان من نوافذ حجر المقابر، إلا أن هذا النفق الطويل الذي يجتازه الناس لرؤية المقابر رطب ذو رائحة تضايق المتفرجين فلا يرغب الإنسان البقاء فيه، وقد خرجت منه وعندي صداع شديد. ولو ضاهينا هذا المدفن بمدفن عظماء الإنكليز الذي سيأتي وصفه لرأيناه أضخم منه بناءً وزخرفًا وعظمة.

(١-١٠) غابات بولونيا

هي حديقة واسعة طارت شهرتها في الآفاق حتى أصبحت مجمع أهل الترف ومتنزه جماعات أهل الحظ واليسار، يقصدونها من سحيق الأقطار ليمتعوا الطرف بمحاسنها الفتانة، الجذابة للنفوس، الساحرة للألباب، يجتمع فيها كل يوم من أهل المدينة والزائرين والسائحين والنازلين بها عدد عديد، يسير أكثرهم في سيارات جميلة بين الأزهار النضرة والشجر الباسق، والخضرة اليانعة، والبحيرات الجميلة التي تمخر بها الزوارق تغدو وتروح حاملة شموسًا تسطع أنوارها فتزيدها حسنًا وبهجة ورواء، بها من الشلالات الصناعية ما يشرح القلب ويسر النفس تتدفق منها المياه فيكون لخريرها هزة في النفس.

ولا عجب بعد هذا الحسن والجمال الوفير إذا توافد الناس على هذا المتنزه بخيلهم ورجلهم فيتعذر السير عليهم في أيام الآحاد، فتُضطَر صفوف السيارات أن تسير الهوينا.

بها دروب كثيرة لا حصر لها تخترق هذه الغابة الكثيرة الأشجار الباسقة، تحتها الأشجار القصيرة والأعشاب الجميلة المنوعة. بها مطاعم وقهوات وبارات أُنشِئت على

شواطئ بحيرات جميلة، تسرح بها الحسان كما تسرح الظباء في خمائلها، يُخيَّل إلى السائر فيها أنه في دار النعيم.

وقد قصدنا زيارتها يوم الأحد، فلما وصلتُ إليها رغبت أن أسير راجلًا حتى أمتع الطرف بمحاسنها وأرى شوارعها الجميلة وطرقاتها ومنعطفاتها، وما زلت أمتع نفسي بجمالها الرائع وتنسيقها البديع حتى أدى بي المسير إلى بحيراتها، وهناك رأيت بحيرة ملأى بالزوارق والقوارب تحمل الغانيات يجذفن بمجاذيف تدفع القوارب دفعًا، ويشاركهن في هذا البجع والطيور فيحدثن منظرًا جميلًا، ويبلغ طول بعض هذه البحيرات نحو ١١٥٢ مترًا في عرض مائة، وقد أُقيم في بعض هذه البحيرات جزيرتان فيهما المطاعم ومحال الرقص والألعاب المنوعة والقهوات.

وعلى منحدرات هذه البحيرة وعلى الخضرة الجميلة جلسنا بين الجالسين أمامنا الماء تسير فيه الزوارق حاملة المتفرجين والمتنزهين، وفوق رءوسنا أغصان الأشجار الجميلة يهزها النسيم العليل، وبجوارنا ينابيع الماء تنحدر مياهها فوق الأحجار والصخور ثم تنحدر إلى البحيرات.

وكل زمني الذي قضيته على شاطئ البحيرات وأنا بين استغراب ودهشة، بسبب الحرية المتناهية التي تلحق الإنسان العاقل بالحيوان الأعجم، تجلس الفتيات مع الفتيان والرجال على شواطئ البحيرة مختلطين مستهترين لا يخفن منتقدًا، وليس من ينتقد أعمالهن إلا الغريب الذي لا يعرف أخلاق وعادات تلك البلاد، فإنه كثيرًا ما استوقف نظري مشاهدات يحمر لها وجه الإنسانية خجلًا مألوفة مباحة عندهم، حتى يأتيها الشرطي الموكَّل بالحفظ، فيا لها من إنسانية قد انقلبت إلى وحشية!

ويُخيَّل إليَّ أن فرنسا تسير بهذه الحرية المطلقة إلى هوة سحيقة وستصير بعد زمن ما إباحية، وإذا دام الحال على هذا المنوال انتشرت من باريس تلك الأزياء المغرية التي تنفر منها الطباع السليمة إلى الأمم، خصوصًا الأمم التي تقلد تقليدًا أعمى.

ولقد عجبت كثيرًا من مقدرة رجال فرنسا لقيامهم بالأعمال الجسيمة وخلق النعيم والرفاهية لأهلها، وكيف يعتني أهل باريس بقضاء أوقات فراغهم في اللهو والسرور والجذل والحبور وخروجهم إلى المتنزهات العامة بكثرة، فإن الغابة مع اتساعها وصلاحيتها للسير والجلوس مكتظة بالمتنزهين حتى خُيِّل إليَّ أن جميع سكان فرنسا هجرت منازلها إلى تلك الغابة.

وقد كانت هذه الغابة قبل إصلاحها ملجأ للشريرين وقطَّاع الطرق حتى أعطتها الحكومة لبلدية باريس، بشرط أن تقوم بالنفقات اللازمة لإصلاحها إصلاحًا يعود بالمنفعة

على الأمة فقبلت البلدية ذلك وأنجزت ما وعدت، فأصبحت هذه الغابة أحسن متنزهات باريس مع بقائها على هيئة الغابة الطبيعية ولكن شوارعها أصبحت تضارع أحسن شوارع المدن، وقد بلغت مساحتها أكثر من ألفي فدان. وزادت رغبة النساء للتنزه فيها لما يقصدها من أهل اليسار وغيرهم، فتجدها ملأى بهن يتبارين في إظهار جمالهن وخلاعتهن وملابسهن الحسناء.

وصفوة القول أن هذه الغابة في باريس نقطة الجمال وأكبر متنزهاتها، وليس لمدينة من المدن العظيمة ضاحية مثلها، جمعت أنواع المحاسن والجمال وحُسن الانتظام، تتصل بها أعظم الشوارع التي تُعتَبَر كمتنزهات عامة، تكثر فيها المقاعد فيجلس الناس عليها لرؤية الغادين والرائحين، ومن لم يرها فقد فاته شيء كثير.

(١-١١) برج إيفل

من غرائب الآثار وأفخمها وأعجبها وأدلها قدرة على براعة الإنسان وعلو همته ورقي فكره «برج إيفل»، فإن منظره يهولك لعظمته وفخامة بنائه وتركيبه أكثر مما يهولك منظر هرم الجيزة الأكبر.

وهو يُعَدُّ الآن من غرائب الصناعة وأجمل آثار التمدين الحالي، بُنِي في سنتين من سنة ١٨٨٧ إلى سنة ١٨٨٩ للمعرض العام الذي أُقِيم في باريس في تلك المدة، بناه المهندس الشهير جورج إيفل فنال من حكومته أعظم مكافأة، وبعد إتمامه نُصِب عليه العلم الفرنسي، وهو لا يزال إلى الآن.

وقد أُقِيم وسط حدائق غناء، يبلغ علوه ٣٠٠ متر أو ألف قدم، وهو أعلى بناء في الأرض، مصنوع كله من الحديد تقريبًا، أُقِيمت قوائمه المنحنية على قواعد ضخمة من الأحجار الكبيرة، يشغل من الأرض مسطحًا أكثر من ١٦٧٠٠ متر مربع، وكل ضلع من أضلاع مربعه ١٢٩ مترًا، ويقال إنه إذا وُزِن حديده لا يقل عن سبعة ملايين كيلوجرام، به خمسة وعشرون مليونًا من المسامير كما علمت. وقد جُعِل ثلاث طبقات يُصعَد إليها إما بدرج أو بالآلة الرافعة «السنسير»، وهي التي يعتمد عليها الناس في صعودهم إلى الطبقات الثلاث، ويمكن أن يصعد بواسطة هذه الرافعة نحو ٢٣٠٠ شخص في الساعة الواحدة، ومثلها للطبقة الثانية، و٧٥٠ للطبقة الثالثة، ويمكن لعشرة آلاف نفس الاجتماع في جوانبه في آنٍ واحد.

وقد أخذت جوازًا من نافذة على بابه ثمنه خمسة فرنكات للصعود لآخر طبقة فيه، ولكل طبقة أجرة خاصة، ولما دخلت حجرة الرافعة وجدتها واسعة تسع نحو ٦٣ شخصًا في المرة الواحدة، وقد اضطرب قلبي وبللني العرق في يوم كان باردًا لمَّا فكرت أني سأصعد إلى هذا العلو الشاهق، ولما امتلأت ارتفعت بنا بسرعة تسير على جانب من جوانب البرج كأنها تسير على قضيب سكة حديدية.

برج إيفل.

وصلنا إلى الطبقة الأولى التي تبعد عن سطح الأرض بنحو ٥٧ مترًا ومسطح أرضيتها نحو ٤٢٠٠ متر مربع، وهي مفتوحة على مسطح ٩٠٠ متر مربع فيرى الناظر من هذه الفتحة أرض البرج.

وقد شُيِّد في هذه الطبقة عدة أماكن للطعام والقهوات يسع الواحد منها من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ نفس، بها دكاكين للبيع والشراء والبارات وحديقة جميلة، وقد نُقِش في أعلى محال هذه الطبقة صور كبار المهندسين الفرنسيين الذين اشتُهِروا في هذا القرن باختراعاتهم، وفي هذه الطبقة دعا جورج إيفل في يوم ٤ يوليو سنة ١٨٨٨ نحو مائة رجل من كبار محرري الجرائد الباريسية لتناول الطعام، وكانوا أول من صعد فيه بعد صناعته.

وتبعد الطبقة الثانية عن سطح الأرض ١١٥ مترًا ومسطح هذه الطبقة ١٤٠٠ متر مربع، ولما أردت الصعود من هذه الطبقة إلى التي أعلى منها راودتني نفسي أن أكتفي بما رأيته، ولكني لما رأيت الرجال والنساء والأطفال يصعدون بدون خوف ولا وجل شجعني ذلك وحب الاطلاع على المضي إلى النهاية، وفي هذه الطبقة البارات والقهوات وبعض الحوانيت مما يُعَد سوقًا صغيرًا.

وكلما وصلنا إلى طبقة غيَّرنا الرافعة بأخرى أصغر منها، لأن البرج شُيِّد على شكل هرمي يستدِقُّ كلما صعدنا فتُستعمَل رافعات مناسبة لذلك، وليس هناك طريق للوصول إلى الطبقة الثالثة وهي قمة البرج غير الرافعة، وكنت أعتقد أن هذه الطبقة لا تسع فوق سطحها سوى واحد أو اثنين، فلما وصلت إليها وجدتها تسع نحو ٦٠٠ نسمة، بها دكاكين أيضًا لبيع الأشياء الجميلة تذكارًا لزيارة هذا البرج، وفي القمة برق بدون سلك (تلغراف اللاسلكي) وبريد.

وهنا تأخذك الدهشة حينما ترى باريس تحت نظرك كأنها خارطة تنظر إليها من جميع نواحيها فيحددها نظرك، وترى الشوارع العظيمة الاتساع تسير فيها الناس والسيارات كأنها طرق نمل، كما ترى نهر السين يخترق باريس كأنه جدول مزرعة يسير متعرجًا فيها، وترى غابة بولونيا العظيمة كأنها حديقة صغيرة والقصور والضواحي الجميلة والمعامل يتصاعد منها الدخان، فيداخلك سرور يملأ نفسك وتود ألا تغادر هذا المكان لتمتع نظرك ببديع المناظر الباريسية الجميلة التي لا يتسنى لك رؤيتها إلا من هذا المكان، والجلوس على قهواته يعده الإنسان من أجمل النزهة وأحسنها فكأنه جالس في السماء أو فوق هامة الجوزاء.

وقد أقامته شركة نالت به امتيازًا لمدة إحدى وعشرين سنة فجمعت نفقاته مدة المعرض وكل إيراده في المدة الباقية ربح خالص لها، فإن عدد الذين صعدوا الطبقة الأولى منه كما قال بعض المؤرخين ١٩٦٨٢٧٨، والثانية ١٢٨٣٢٣٠، والثالثة ٥١٩٣٨٤، فمجموع ذلك أكثر من أربعة ملايين في مدة ستة أشهر.

وعندي أن برج إيفل يُعَد من غرائب آثار الدنيا وعجائبها وأكثر مشاهد الزمان غرابة، ويدل دلالة واضحة على ما لأهل فرنسا من الثروة والغنى في العلم خصوصًا العلوم الهندسية، فهو على الإجمال من أحسن ما جادت به قريحة الإنسان، ولا يمكن لشخص أن يتصور عظمة هذا البرج وكيفية إقامته وما به من الحديد حتى يحضر إلى باريس ويراه بنفسه.

(١-١٢) الملاهي بباريس

الأوبرا وميدانها

إذا سرت في شوارع باريس ورأيت ميدانًا فسيحًا تتفرع منه عدة شوارع مكتظة بالناس والمركبات المتراصة، ورأيت جنديًّا يمتطي جوادًا وتحت إمرته خمسة جنود راجلين؛ فقل هذا ميدان الأوبرا.

لم ترَ عيني طول حياتي مثل هذا الازدحام وتلك الحركة الهائلة التي يقف الإنسان أمامها ذاهلًا خصوصًا من لم يرها من قبل؛ قوم يهرولون وسيارات تمر وعالم يكر ويفر، وآخرون يغوصون من فتحات فيه تحت الأرض، لا يستطيع الإنسان أن يجتازه إلا بعد أن يأمر الشرطي بوقف السيول الجارفة من السيارات، فإذا حول وجهه إلى شارع وصفَّر وقفت حركة السيارات فجأة، وتكوَّن في لحظة جسر عظيم عريض من السيارات وتدفَّق سيل من الناس يقطع الشوارع. ومع هذا الازدحام وتلك الحركة الكبيرة لا تحدث أخطار، وهذا يتبع النظام ومهرة السائقين ومعرفة الناس واجب السير، ومتى أشار الشرطي بمرور السيارات سارت تدب دبيبًا بحركة تسترعي الأنظار.

وقد سرت في هذا الميدان ليلًا حين خفَّت الحركة فرأيت العمال يصلحون بعض جوانبه، ووجدته مرصوفًا بالخشب السميك ولم أتبينه إلا بعد تفرس كبير، لأني لا أعلم أن الميادين تُرصَف بقوالب من الأخشاب المتينة.

وفي هذا الميدان يجتمع الناس على قهوة قريبة من دار الأوبرا تُسمَّى «كافيه ده لابيه» قهوة السلام وهي من أشهر القهوات وأوسعها، يجلس الناس عليها لمشاهدة الحركة في هذا الميدان ويقصدها عصرًا أهل الذوق واللطف من الجنسين، فمنظر هذا الميدان يأخذ بالألباب ويبين عظمة الممالك ومقدار ازدحام المدن الكبيرة بالسكان، وعليها تمر وتجلس غانيات باريس وحسانها. فهو مركز حركة المدينة ونقطة اتصال أعظم شوارعها.

مسرح الأوبرا

في هذا الميدان أُقِيم مسرح الأوبرا وهو بناء شامخ حُلِّيت جوانبه وحيطانه وأعاليه بالتماثيل الكثيرة المتعددة المتنوعة، ابتُدِئ في بنائه سنة ١٨٦٢ ولم يُنتَهَ منه إلا سنة ١٨٧٤، وهو أوسع مسارح العالم وإن كان مسرح «سكالا» بميلانو و«سان كارلو» بنابولي يسع كل منهما أكثر منه لكثرة محالِّهما، إلا أنه أوسع منهما مساحة فإنه يشغل من الأرض

ما مساحته نحو ١١٢٣٧ مترًا مربعًا، ولقد أفرغ فيه العقل الإنساني من التحسين والزخرفة قصارى ما يصل إليه، وقد أُنفِق في بنائه مبلغ يُقدَّر كما قال بعض المؤرخين بـ ٤٧٠٠٠٠٠٠ فرنك. واجهته التي تشرف على الميدان تشتمل على طبقة أرضية أُقِيمت على سبع حنايا (بواك) يُصعَد إليها من سلم عريض، جميعها محلاة بالصور والتماثيل التي ترمز إلى حالة الشعر والموسيقى والغناء والإنشاد والرقص إلى غير ذلك، وتعلو هذه الطبقة أخرى تشتمل على سبع نوافذ فوق الحنايا السفلى تشرف منها على هذا الميدان العظيم الساطع بالأنوار المتلألئة، ويحيط بهذه النوافذ عمد جميلة تبلغ نحو الثلاثين وأكثرها من الرخام الملون متوَّجة رءوسها بالبرنز المطلي بالذهب الوهَّاج.

الأوبرا بباريس.

وقد صُنِعت الخارجات (بلكونات) أمام هذه النوافذ من الرخام الأخضر، ويعلو هذه الطبقة سياج محلًّى بما يفوق الوصف من الصور والتماثيل المذهبة، ويعلوه قبة عظيمة أُقِيم عليها تمثال إله الشعر ورب الإنشاد. أما داخل المسرح فقد اتفق المؤرخون على أنه أحسن مسرح للتمثيل والموسيقى في الأرض كلها.

لو عُدَّت الأبنية التي تؤثر في نفس الناظر إليها داخلًا وخارجًا لكانت أربعة:

(١) الأوبرا بباريس. (٢) كنيسة ميلانو. (٣) قصر المحاكم في بروكسل. (٤) كنيسة الفاتيكان وقصره برومة. فجميعها من المباني الضخمة العظيمة التي اشتُهِرت عند الخاص والعام.

والممثلون في هذا المسرح يُنتقون من أحسن الممثلين والممثلات وأمهر المغنين والمغنيات، وتمده الحكومة الفرنسية بإعانة سنوية.

ولقد يقف الإنسان أمام وصفه حائرًا لا يتسنى له وصف جماله وآيات حسنه وبهائه، كله أعمدة مذهَّبة ونقوش دقيقة ومقاعد فاخرة وسُقُف تلمع وجدران تسطع وصور تكاد تنطق بلغت غاية المدى من الإتقان والجمال، يرقى إليه الصاعدون على سلم عريض صُنِعت درجاته من المرمر الأبيض، فإذا ما صعد الداخل رأى من كل جانب منه أناسًا يصعدون وينزلون في الفروع الباقية من هذا السلم العجيب حتى إنه ليظن الإنسان أنه في بلاد الجن، وهذا السلم مقام على ثلاثين عمودًا من الرخام.

ومما يزيد الإنسان ذهولًا فخامة ذلك المسرح المذهَّب، رخامه الساطع، زجاجه، يقصده علية القوم من الرجال والنساء بأفخر الملابس وثمين الجواهر.

وبين كل فصل وآخر يخرج الناس للسير في بهو تراه آية في الجمال وحسن البهاء ما وصف مثله الواصفون، كله رخام صقيل وبلَّور نضيد وذهب وهَّاج وأطلس نفيس وتماثيل وصور آلات الموسيقى والغناء بالسقف وسائر الأنحاء بلغت نهاية الزخرف وحدَّ الإتقان، تُعَدُّ من عجائب هذا المسرح من حيث بنائها وزخرفها وتذهيبها وما بها من العمد وسعتها، فإن طولها يبلغ نحو ٤٤ مترًا في عرض ثلاثة عشر في ارتفاع ثمانية عشر مترًا، بها مرايا ارتفاع الواحدة منها سبعة أمتار بجوانبها عمد صغيرة تبلغ العشرين، تختال فيها الغيد الحسان ببديع الأزياء فينسى الإنسان هموم الحياة ومتاعبها ولا يفكر إلا في بديع صنع الباري.

رهبان مدين والذين عهدتهم　　　يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت كلامها　　　خروا لعزَّةَ ركَّعًا وسجودا

وهذا المسرح يحوي سبع طبقات من المقصورات مكسوَّة جميعها بالمخمل الأحمر، فإذا أُطْفِئت الأنوار ظهرت الألواح محمرَّة كأنها اللهب يدخل النساء فيه لابسات المعاطف،

فإذا ما جلسن على مقاعدهن خلعنها فأظهرن جزءًا من ظهورهن وصدورهن فحلَّت محل ضوء الكهرباء.

ومما لاحظته في هذا المجتمع الأدب الكامل والوقار التام تسيل الناس فيه رقة ولطفًا وحُسن ذوق، فإذا ما دخلت المسرح تقدمتك فتاة وأرشدتك إلى مقعدك بلطف ورقة، وهنا يجمل بك أن تقدم لها شيئًا من النقود وإن لم تطلب منك ذلك، وإذا ما دخلت خلال الفصل أرشدتك إلى محلك بضوء كهربائي.

وجميع الرجال يخلعون قبعاتهم (برانيطهم) متى دخلوا المسرح إلا النساء فلهن الحرية التامة في ذلك، وقد علمتُ أن لك الحق أن تطلب إلى السيدة التي تحجب قبعتها نظرك عن رؤية الممثلين نزعها عن رأسها، وهو واجب يقوم به الشرطي إذا عجزت عنه.

ومما يلفت النظر بنوع خاص أنك لا تجد في المسارح أولادًا ولا بنات مع آبائهم وأمهاتهم ولا تسمع دويًّا ولا صفيرًا ولا دقًّا بالعصي والأرجل كالذي نشاهده في مسارحنا، فأخلاق الناس وآدابهم في المجتمعات العامة يصح أن تكون نموذجًا للأخلاق الراقية والآداب العالية.

وعلى الجملة فإنك إذا نظرت إلى حوائط المسرح وما فيه من التماثيل والزخرف والنقوش والجلوس، هالك هذا المنظر وملأ نفسك هيبة واحترامًا لأهل باريس، وعجبت لتفننهم في إتقان ملاذِّهم واعتقدت أنك في عالم آخر لم يخطر لك على بال.

وإذا خرجت تتمشى بين فصل وآخر وجدت في نواحيه قهوات وحانات ومحالَّ للتدخين والمرطبات بأنواعها وغير ذلك مما يريح المتفرج.

ومن حُسن الحظ أني حضرت فيه رواية «تاييس» وقد كنت رأيت تمثيلها في مصر، فرأيت البون شاسعًا والفرق عظيمًا؛ رأيت الممثلين يؤدون أدوارهم في حذق ومهارة غاية في الإتقان والبراعة خصوصًا من أدت دور تاييس، فإنها برعت في إتقان دورها مع جمالها الرائع وحُسن صوتها الرخيم وسلامة التعبير وحُسن الإلقاء وجودة التمثيل، كما أجاد الكاهن كل الإجادة وقد أعجبني منه مثابرته واستمراره على نصح تاييس وإلحاحه عليها في الإقلاع عما هي عليه من الغواية والضلال صابرًا على ما يلاقيه منها من الإهانة والتحقير، حتى ذلَّل ما صَعُب وأمكنه أن يُدخِل مواعظه الحسنة وإرشاداته إلى آذانها ثم إلى قلبها حتى انقادت له واتبعت نصائحه وأقلعت عما كانت عليه من الغواية ووقعت في حبائله، فأصبح يتصرف في قلبها ويلعب به كما تلعب النكباء بالعود، ورجعت إلى الله رجوعًا لا تشوبه شائبة التعلق بزخارف الدنيا ونعيمها، وقد فارقت الحياة وهي في ريعان

شبابها فأسف الكاهن على موتها وبكى بكاء مرًّا وظهر أنه كان يحبها حبًّا يقرب من العبادة، كل ذلك مُثِّل بغاية الدقة والإتقان والبراعة حتى ترك ذلك في نفسي أثرًا لا تمحوه يد الأيام.

ولا يزال يرن في أذني إلى الآن صدى صوت تاييس وهي تلتجئ إلى صنم معبودها أن ينجي شبابها وزهرة جمالها من سقوطها في يد هذا الكاهن، وحيرتها بين الرجوع إلى نصائحه ومواعظه وبقائها في ملاهي الدنيا وملاذِّها.

فأين ما رأيته من براعة الممثلين في مسرح الأوبرا مما أراه في مسارحنا؟! فإني لا أكاد أفهم لبعض الروايات مغزى لعجز بعض الممثلين عن القيام بإتقان أدوارهم وعدم وضوح مغازي الروايات التي تُمثَّل، ولا أنكر ما يقوم به بعض الممثلين في مسرح رمسيس من إتقان أدوارهم إلا أن ذلك لا يُعَد شيئًا بجانب ما رأيته هناك.

وأعتقد أنه إذا دام تشجيع الحكومة للممثلين وقام أهل المسارح بما تفرضه عليهم الوطنية واتجهت أغراضهم وميولهم إلى الغرض منه، أدَّوْا خدمًا جليلة للأمة وأثَّروا في أخلاقها تأثيرًا بيِّنًا يفوق وعظ الواعظ وإرشاد المرشدين، فتنتقل الأمة من هذا الانحطاط الخلقي الفظيع إلى درجة الرقي والكمال. وفقنا الله جميعًا إلى خدمة الوطن العزيز!

من باريس إلى لندن

لم يكن من برنامج سياحتي أن أزور إنكلترا، ولذا لم أطلب من قلم الجواز (البسبرتات) في مصر ذلك، ولكني لما وجدت نفسي في باريس وعلمت بفخامة وعظمة معرض «ومبلي» وأن الناس يقصدونه من الممالك السحيقة لمشاهدة ما به من آيات الصناعة والفنون؛ اعتزمت زيارته مهما اعترضني من الصعوبات، فقصدت قنصلية إنكلترا في باريس لآخذ منها جوازًا بالسفر إلى إنكلترا، فامتنعت عن إعطائي جوازًا بادعاء أني لم أطلب ذلك وأنا بمصر فأيست من السفر إلى إنكلترا، ولكني فكرت أن أذهب إلى قنصل مصر في باريس لعلي أجد عنده حلًّا، فلما ذهبت إليه وأعلمته الخبر أشَّر على الجواز بقوله: «لا مانع من ذهابه إلى إنكلترا»، وأخبرني أن أقدمه إلى القنصل الإنكليزي، فلما قدمته إليه لم يتردد لحظة في السماح لي وتقاضى ٣٥ فرنكًا رسم الجواز.

وبهذه المناسبة لا يفوتني أن أثني ثناءً عاطرًا على حضرة المحترم مراد بك قنصل مصر في باريس، لسمو أخلاقه ورقي آدابه ولما يقوم به من الأعمال الجليلة؛ فإنه يمنع كثيرًا من الباريسيات الساقطات اللاتي يحضرن إلى مصر للاتجار بأعراضهن ولا يعطي لهن جوازًا إلا إذا قدمن له سببًا معقولًا يقتنع به، ويساعده في ذلك حضرة المحترم التقي الشاعر الناثر موسى بك رئيس الكتبة هناك، وقد رأيت ذلك بنفسي مرارًا. فلو لم يكن للقنصل فائدة سوى منع هذا السيل الجارف والخطر المحدق عن مصر لكفى ذلك، مع أنها تقوم بتسهيل شئون المصريين وربط العلائق التجارية وحُسن التفاهم والتعارف بين المصريين وغيرهم، ونشر فضل مصر في البلاد التي تجهل مكانتها ورقيها.

ولم يغبْ عن ذهني ما قالته إحدى الكاتبات الفرنسيات: «إننا سنذهب لنأكل عسلًا وجرادًا برِّيًّا»، لما دعاها صاحب الدولة سعد باشا زغلول إلى حفلة شاي أقامها في باريس.

فإذا كان هذا حال كاتبة متنوِّرة ملمَّة بأحوال الأمم، فما حال من لم يعلم عن تلك البلاد شيئًا؟ مع أن أهل فرنسا أكثر ارتباطًا ومعرفة بالمصريين من غيرهم لما لهم من المصالح الكثيرة فيها. ولا أنسى مقابلة صاحب السعادة محمود فخري باشا سفير مصر في باريس، فإنه قابلنا ببشاشة ولطف لم أعهدهما في عظيم مثله، وجاملنا أحسن مجاملة وقضى معنا وقتًا طويلًا من زمنه النفيس، فعرفنا منه أخلاقًا يصح أن تكون نموذجًا لأرقى الأخلاق، يقوم بأحسن الخدمات لمصر والمصريين هناك، وينشر فضلها ومكانتها وأحقية استقلالها ولزوم السودان لها بصحف باريس الكبرى.

وهو قوي جدًّا في اللغة الفرنسية ويعرف اللغة العربية ويحفظ كثيرًا من شعرها ونثرها وكذا يحفظ كثيرًا من القرآن الكريم، وله مكانة سامية ومنزلة خاصة بباريس.

ويا حبذا لو قام كل سفير بما يقوم به سفيرا مصر في فرنسا وإنكلترا! حتى يقف العالم على أحوال مصر وحقيقتها ومركزها وما هي عليه من الرقي الذي تستحق به أن تتبوأ مركزها اللائق بها تحت الشمس. وقد سرَت آدابه وأخلاقه إلى جميع موظفي سفارته حتى أصبحوا جميعًا غاية في حُسن الأخلاق والأدب.

ومما يجدر ذكره أني شاهدت جميع مستخدمي السفارات والقناصل في الممالك التي زرتها يلبسون القبعات متى برحوا مكاتب السفارة ويلبسون الطرابيش فيها، مع أنه يجب أن يلبسوا الطرابيش داخل السفارات وخارجها حتى يمثلوا مصر بأعمالهم وأزيائهم فيعرفهم كل من رآهم.

وفي اعتقادي أنه واجب يجب على الحكومة أن تلزمهم بلبس الطرابيش داخل السفارة وخارجها.

هذا، وقد ذهبنا إلى محل كوك لنأخذ منه جواز السفر (التذكرة) إلى إنكلترا ذهابًا وإيابًا فبلغت قيمتها ٢٩٠ فرنكًا، وقد سألنا مستخدميه عن أحسن طريق وأسهلها لعبور بحر المنش بين فرنسا وإنكلترا، فاختاروا لنا الطريق من مدينة «دييب» إلى مدينة «نيوهافن» في إنكلترا وإن كانت المسافة تستغرق نحو ثلاث ساعات، إلا أن السفر منه ليس مزعجًا كالسفر من كاليه إلى دوفر وإن كانت ساعة ونصف ساعة، لأن البحر بينهما شديد الاضطراب والأمواج والأنواء، فاتَّبعنا نصيحتهم.

ولما كان في نيتنا ألا نمكث كثيرًا في إنكلترا تركنا حقائبنا الكثيرة في الفندق الذي نزلنا به في باريس وأخذنا معنا ما يكفينا من الملابس مدة قصيرة، لأن غرضنا زيارة معرض ومبلي والمشاهد المشهورة بلندن.

ثم امتطينا سيارة من فندقنا الساعة العاشرة فوصلنا المحطة وركبنا القطار حيث قام الساعة العاشرة والنصف صباحًا، مخترقًا مروجًا نضرة جلُّها تلال ووديان تجري بها المياه والجداول، بها مراعٍ واسعة ترتع بها الخيل والبقر والغنم ومنازل منتثرة هنا وهناك يتمنى الإنسان أن تكون مسكنًا له طول حياته. ولا أريد أن أعود إلى وصف الأراضي التي يسير بها القطار لأنه قد مر وصف مثلها كثيرًا.

ومقاعد القطار فخمة مريحة، وُضِع على رف كل حجرة من حجره كتابان كبيران ظننت أنهما لأحد الركاب، ولما لم يأخذهما أحد بحثنا فيهما فوجدنا أن بكليهما معلومات جغرافية عن الجهات التي يقطعها القطار وعدد ما يقطع بالكيلومترات بين بلدة وأخرى، وخُرَط لها غاية في الدقة والإتقان توضح مواقع البلدان التي تمر بها وما بها من الفنادق وأجرة المبيت بها ومواقعها، ومعلومات واسعة ترشد المسافر إلى كل ما يريد معرفته. فعجبت العجب كله لعناية الغربيين بما يدل على رقي البلاد وتمدينها وقيامها بما يفيد أهلها والمسافرين والسائحين، ولم أرَ في قُطُر الممالك التي زرتها مثل هذا.

وما زلنا سائرين وسط مشاهد تشرح الصدور وتسر العين وتزيل الهموم والأفراح، تارة نصعد فوق تل وأخرى نهبط واديًا وتارة ندخل في نفق حتى وصلنا إلى مدينة دييب، وهي ثغر فرنسي به ميناء واسعة محفوظ من غوائل البحر برصيف عظيم صناعي وطبيعي، وهذا الثغر مشهور بلطف حماماته البحرية يقصده السائحون من كل فج، وقد دخل القطار بنا إلى الميناء حيث وجدنا السفينة في انتظارنا، ووجدنا البحر هادئًا هذا اليوم فسُرِرنا وحمدنا الله ومنَّيْنا أنفسنا بالراحة لقطع هذا المضيق المشهور باضطرابه وهيجانه. ولما انتظم الراكبون وأخذ كلٌّ مكانه صفَّرت السفينة إيذانًا بالمسير، فاصطفَّ الناس في ممشى السفينة لرؤية المدينة والميناء من البحر فأقلعت وسارت باسم الله مجريها ومرساها، وأخذت تمخر عباب البحر في هدوء وسكون فملأ السرور فؤادي لأني سأصل إلى بلاد طالما تمنيت رؤيتها. وأخذت أتجاذب أطراف الحديث مع صديقي علي أفندي فهمي الرشيدي في أمور شتى وبالأخص عن لندن وما بها من الحركة والزحام وأخلاق الإنكليز في بلادهم، وما نسمعه عنهم من وداعة الأخلاق مما نشاهد عكسه في بلادنا من الفظاظة والغلظة والكبر والغطرسة المملة التي لا تُحتَمل. وما كنت أصدق ما يقال عنهم من أنهم أهل لطف وأدب وأخلاق راقية حتى رأيت منهم من حُسن الأخلاق والآداب فوق ما كنت أظن و«ليس الخبر كالعيان».

وقد لاحظت أثناء سير السفينة أن طيورًا بيضاء كبيرة الجثة تقرب من النسر تتبع السفينة في سيرها حتى وصلنا إلى مدينة «نيوهافن» من أعمال إنكلترا ولم أعرف السبب،

إلا أنني استنبطت أنها تتبع السفينة حتى لا تضل طريقها فتصل إلى البر الآخر في زمن قليل. وما زلنا نمتع الطرف والبحر هادئ ليس به ما يقلق الراحة حتى قربنا من مدينة «نيوهافن»، وهنا شعرت بدوار فقاومته مقاومة كبيرة حتى سلمت منه.

وعند وصولنا أخذوا منا الجوازات ليؤشِّروا عليها بما يفيد صحتها والسماح لنا بالمرور، ثم عُرِضت حقائبنا على المفتش بالمكس فلم نلاقِ صعوبة، وقد يكتفي بسؤالنا عما معنا فنجاوبه صدقًا فيخلي سبيلنا. وبعد أن خرجنا من محالِّ التفتيش وجدنا القطار الذي يقلنا إلى لندن منتظرًا فركبناه وقام مسرعًا، وهنا يعجز القلم عن وصف المناظر الجميلة التي مررنا بها من مزارع غاية في التنسيق والترتيب، ومراعٍ ترعى بها أنواع الماشية، وتلال مكسوَّة سفوحها بالأشجار الباسقة، والوديان ذات الجداول الجميلة. وقد أمطرتنا السماء غزيرًا فأوصدنا المنافذ بالألواح الزجاجية، وصرنا نمتع الطرف بالمشاهد التي نسجتها يد الطبيعة، فطورًا تصعد فوق قنطرة وأخرى تهبط واديًا. وما زلنا كذلك حتى أشرفنا على منازل العمال، وهنا يأخذك العجب لعناية الحكومة بتشييد منازل للعمال غاية في النظافة وحُسن الترتيب والنظام والصحة، وقد شُيِّدت على نظام ونمط واحد في حقول ومزارع واسعة، فإنك تجد شوارع طويلة جدًّا مرصوفة تُفتَح فيها أبواب المنازل، أمام كل منزل حديقة صغيرة يفصلها عن الشارع سياج صغير، وكل بيت مركب من ثلاث طبقات أو اثنتين، كل سطوحها بالطوب الأحمر فنراها كأنها مجاميع من الورود الحمراء، فيرى الناظر إليها منظرًا يملأ نفسه سرورًا يرغِّب كل إنسان في سكناها لما بها من الجمال وحُسن الرونق والرواء. وقد سار القطار في هذه المباني الجميلة الصحية ما يقرب من ساعة، حتى خُيِّل إليَّ أن لندرة عبارة عن مساكن للعمال لكثرة ما رأيت منها.

وهنا رثيت لحال العامل المصري الذي يسكن أحط الأكواخ وأقذرها لا يجد مأوى يريحه بعد تعبه الشاق المتواصل، فلا الحكومة تنظر إليه بعين الشفقة والرحمة ولا هو يعرف كيفية نظام حياته، فتراه يقضي سحابة يومه مُجِدًّا في عمله حتى يخيم الظلام فيذهب إلى كوخ لا منفذ فيه إلَّا كُوَّة صغيرة في أعلاه لتصريف الهواء الذي يفسد من تنفسه وأولاده وماشيته فيكاد يختنق، ولا ينجِّيه إلا طلوع الفجر حيث يبدأ عمل يومه.

وما زال القطار يخترق هذه المشاهد الجميلة حتى وصلنا إلى محطة فكتوريا الساعة السابعة مساء، وهي محطة غاية في الأبهة والعظمة.

(١) لندن

وصلنا محطة لندن بعد سفر ثماني ساعات ونصف من باريس إلى لندن عن طريق دييب ونيوهافن، ولما وطئت قدماي أرض أكبر عاصمة في العالم قوة وعظمة وسكانًا، أحسست بأني في بلد صاغتها يد الحضارة الراقية وألبستها ثوبًا قشيبًا، بلاد دوَّخ أهلها الممالك والبلدان وتحكموا في الرقاب واستطالت يدهم إلى أبعد مدى، فأصبحت تُجبَى إليهم الأموال من جميع أنحاء المعمورة، وانتشرت تجارتهم مزاحمة كل أسواق العالم، وقد أحكموا مواصلاتهم برًّا وبحرًا وجوًّا فدانت لهم البلاد والعباد.

رأيت محطتها مكتظة بالمسافرين إلى جهات عدة على أرصفة كثيرة متعددة، والخَدَمة منتشرون في جميع نواحيها يرشدون الضالَّ إلى محل قصده في هدوء وسكون. يقصد المسافر نافذة التذاكر منتظرًا دوره فلا تزاحم بالمناكب ولا ضجة ولا جلبة، ولا جرس يطن ولا صفارة تزعج الناس بصوتها إيذانًا بقيام قطار، ولا حارس يصيح في الناس أن ابتعد عن القطار، ولا غير ذلك مما نسمعه في بعض محطاتنا، بل كل مسافر يبتاع جوازه ويقصد القطار مطمئنًّا عارفًا ميعاد قيامه، ومع هذا الزحام الشديد وتلك الحركة المدهشة لا تجد لها أثرًا يقلق، لأن كل شيء سائر على محور النظام والترتيب.

ولما سرت في أول شارع في لندن هالني ما رأيت من ضخامة عماراتها وارتفاع بنائها ارتفاعًا يناطح السماء تمتد أميالًا غاصَّة بالسلع النفيسة والجواهر الثمينة والحوانيت التي رُتِّبت فيها البضائع ترتيبًا يلفت النظر، ولكن كثرة ما يتصاعد من دخان المصانع والمعامل شوَّه ظاهر تلك العمارات الضخمة فأزال جمالها ورونقها وبهاءها، إلا في مواضع قليلة من لندن لبعدها عن مجرى دخان المعامل.

وما كدت أخطو خطوات قليلة حتى صدتني جماهير السائرين، لأن المدينة يومئذ كانت مكتظة بالألوف التي حضرت من الممالك والبلدان البعيدة لزيارة معرض «ومبلي» الذي طار صيته في الآفاق، فاخترقنا الصفوف واصطدمنا بالمئات والألوف سائلَيْن عن أقرب فندق للمحطة فأرشدنا شخص إليه، فلما دخلناه لم ترق لنا الإقامة فيه، وكانت تديره سيدة فاعتذرنا لها بأنه لا يوافقنا فأخبرتنا بأن هذه فرصة يجب أن تغتنموها لأن كل الفنادق مشغولة بالزائرين للمعرض فلم نصدق قولها، وخرجنا نبحث عن الحجر التي عرفناها قبل قدومنا إلى المدينة نحو ثلاث ساعات فلم نعثر على حجرة واحدة فيها خالية، فرجعنا إلى فندق هذه السيدة ونحن نجر أذيال الخجل ولا نود مواجهتها لرفضنا الإقامة في فندقها، ولكن الضرورة اضطرتنا إلى الرجوع إليها معتقدين أنها ستقابلنا

باحتقار وازدراء كما نعهده في أخلاق أهل بلادنا، فلما وصلنا إلى الفندق رحَّبت بنا وهشَّت وبشَّت في وجهنا فأزالت ما علق بنفوسنا من الخجل وأكرمتنا كثيرًا حتى اضطرتنا إلى الإقامة في فندقها مدة إقامتنا في لندن.

وقد يهولك كثرة الحركة في الشوارع فإنك لا تقوى على قطعها عرضًا إلا بمساعدة الشرطي، فمتى أشار بيده إلى تلك الجبال المتحركة من السيارات وقفت فجأة كأنما يده آلة كهربائية متصلة بعجلات السيارات والمركبات، فإذا وقفت حركة السير مرت الناس أفواجًا، ثم يرفع يده مرة أخرى فتعود سلسلة المركبات إلى المسير، ولا يمكن لسائق أن يخالف أوامره مهما كانت حالته ولو سائق الملك. والسيارات ذات الطبقتين (الأمنيبوس) لها كثرة لا تُعقَل فلا تخلو دقيقة من وجود سيارات منها تمر بك، ويركب الطبقة العليا فيها من يريد التفرج على شوارع المدينة.

ولا إخالك تتصور هذه الحركة المروعة مهما وصفتها لك فإنها فوق وصف الواصفين، ولا عجب فإن سكانها يزيد عن سبعة ملايين وهو عدد يزيد عن سكان مملكة برمتها، حتى إنك لو وقفت طول اليوم في بعض الميادين تريد اجتيازها لما وجدت فرصة تمكنك من ذلك إلا إذا أوقفتْ حركة السيارات يد رجال الشرطة. وما الذي يقوله الواصف في مدينة [هي] أعظم مدائن الأرض وأكبرها وأهمها؟! اتصلت بها العمائر الكثيرة من كل جانب حتى أصبحت كأن لا آخرها يُعرَف ولا أول لها يُوصَف، فلو جمعت شوارعها العديدة بعضها إلى بعض لبلغ طولها أربعة آلاف ميل وهي مسافة تزيد عن البُعد ما بين مصر ولندن!

ولما كانت لندن متسعة وحركة الأعمال عظيمة فيها لم يكن بدٌّ من إيجاد طريقة تسهِّل المواصلات وتقوم بإنجاز تلك الأعمال التي لا حصر لها، ولذا شيدوا كثيرًا من محطات السكك الحديدية، من ذلك أربع عشرة محطة كبيرة لشركات مختلفة توصل لندن بالأطراف والجهات، وأكبرها محطة واترلو بها نحو سبعة عشر رصيفًا تقوم منها القُطُر على شكل بديع ونظام جميل يتنقل الناس فيها من رصيف إلى آخر على جسور جميلة يضل فيها المسافر، ولذا يجب عليه أن يسأل العمال الواقفين في مدخلها عن الرصيف الذي يقوم منه القطار الذي يقصده فيرشدونه بلطف، وقد خصصوا عمالًا يقومون بالإجابة عن كل سؤال يُوجَّه إليهم يختص بقيام القُطُر ومجيئها وما يلزم لراحتهم، وبعض هؤلاء العمال لا ينتهي من الأجوبة عن الأسئلة التي تُوجَّه إليه طول اليوم.

وفي لندن من غير هذه المحطات أكثر من ثلاثين محطة أخرى خُصِّصت بهذه العاصمة وقد بُنِيت كلها تحت الأرض، وأنفقت بعض الشركات في حفر السراديب تحت

الأرض مبالغ طائلة، وهي تخترق لندن في جميع جهاتها كالشرايين في جسم الإنسان، ويركب في تلك القطر التي تسير تحت الأرض الألوف من الناس كل يوم وقلَّما تجد فيها مقعدًا خاليًا.

وتمتاز هذه السراديب عن سراديب باريس، فإنها متسعة جميلة لا يشعر الإنسان فيها بأقل سآمة كما يشعر في أنفاق باريس، لا تشم هواءً فاسدًا وكأنك سائر فوق الأرض. وأكثر الناس يركبون فيها لبعدها عن جلبة المدينة، ويطهرونها كل يوم حتى تكون صالحة للتنفس والسير فيها براحة تامَّة، ويقول بعضهم: لو فسد الهواء فيها لمات تحت الأرض نحو مليونَي نفس. وبعض هذه السراديب تمر تحت مياه نهر التاميز كما تمر الناس في أنفاق تحته أيضًا سقَّفوها بالحديد، وبنوا لها محطة في كل جانب من جانبي النهر. والمسافر ينزل إلى المحطة في آلة خافضة ورافعة أو على سلم كثير الدرجات، حتى إذا وصلها وجد الناس تحت الأرض بكثرة لا تُعقَل منتظرين ورائحين وغادين كأنهم في يوم حشر أو في مهرجان عظيم. وعلى كل فليس لأمة من الأمم من المواصلات برًّا وبحرًا وجوًّا وتحت الأرض ما لإنكلترا.

ومما يجدر ذكره أنه يحرس الشوارع رجال من الشرطة أقوياء أذكياء ذوو نباهة وذوق، ينظمون حركة السير في الشوارع تنظيمًا يريح السائر خصوصًا في محل تقاطعها حيث يكثر الزحام والناس جميعهم يطيعون إشارتهم، وإذا سألت أحدهم عن محل تقصده أقبل عليك باهتمام وأرشدك إلى ما تريد من غير أن ترى على وجهه علامة ضجر أو ملل، وإذا خانته ذاكرته وضع يده على جبهته وأخرج من جيبه مصوَّرًا (خارطة) ونظر فيه، ثم دلَّك على كيفية السير والوصول إلى محل قصدك. فازداد عجبي لتلك النباهة وهذا الاستعداد، وتذكرت حال الشرطي المصري الذي لا يعرف ما يجاوره من المحال والمساكن وقد تكون في حوزة إشرافه وملاحظته.

وللشرطي الإنكليزي دراية كبيرة فقد يعلم كل شيء يحدث في بلده حتى عن السياسة الخارجية، لأنه في أثناء سؤالنا له عن السفارة المصرية قال: من أين أنتم؟ فقلنا له: من مصر، فقال: لماذا كل هذا الاضطراب وتلك المظاهرات، مع أنكم أصبحتم مستقلين كإرلندا؟! فقلنا له: من أجل الاستقلال التام لمصر والسودان. فلم يجاوبنا وانصرفنا إلى حال سبيلنا.

وقد لا يكون في البلاد الراقية شرطي مثله في روعة المنظر والهيئة، فإن رجاله يُنتخَبون من ذوي القامات الطويلة والأجسام الضخمة، ويُشترَط فيهم أن يكونوا ذوي

معارف وخبرة بأحوال البلاد، قولهم مسموع أمام المحاكم في كل حادثة يباشرونها فتكفي شهادتهم لإدانة المذنب، وهو محترم لدى الجمهور يطيعون أوامره فيما هو من اختصاصه.

وقد يدهشك كثرة ما في لندن من النوادي ومحال المجتمعات على اختلاف أنواعها وتعدد أحوالها، لأن لكل طائفة من الطوائف — وهي كثيرة — أمكنة للاجتماع لترقية أحوالهم ماديًّا واجتماعيًّا، وهي تُعَد بالألوف عندهم. وقد تُستخدَم هذه الأندية في بعض الأحوال للشئون السياسية.

ومن فوائد الأندية عند الإنكليز أن أهل كل حرفة وطبقة يعرفون في أنديتهم أقدر الرجال وأخلصهم، فإذا جاء دور الانتخاب لمجلس النواب يكون لمبرَّزيهم أعرف الدعاة لهم فيختارونهم للنيابة عن الأمة. وبهذه المناسبة أنقل عبارة عن الأندية لبعض المؤرخين لما تحتويه من الغرائب والعجائب، قال:

> من غرائب الأندية في لندن نادي السكوت وهو للصم والبكم، ليس فيه كلام يُسمَع ولا جرس يُقرَع، ومن يدخل النادي من المشتركين يضغط على زر كهربائي ينير قطعة من المكان فيُفتَح له، وبنور الكهرباء اصطلحوا على إشارات للتفاهم بينهم، ويدخله الرجال والنساء يلعبون ويتحادثون أحاديث صُمٍّ ويغنون غناء الصُّمِّ.
>
> وبها نادٍ للمعتزلين عن الناس يدخله من ضاقت صدورهم، ولا تُقبَل فيه النساء إلا بعد سن الخامسة والعشرين، وقد جُعِل دوليًّا عامًّا، ولا يؤدي المشترك فيه شيئًا، وهو في بابه لأنه يضم أناسًا من أهل الأرض بأسرها ومن جميع الطبقات الراقية، وفيه طائفة كبيرة من أرباب المكانة والشهرة.
>
> وعندهم نادٍ اسمه نادي «العجل الذهبي»، ونادي «القط الأسود» ونادينا وأعضاؤه من أعاظم الأدباء، ونادي «١٠١»، ونادي «الست الساعات» وهو نادٍ أعضاؤه ستة يدخلون إليه كل يوم الساعة السادسة ويخرجون منه الساعة الثانية عشرة ومع كل واحد منهم كتاب، و«النادي الدائم» وعدد أعضائه مائة يقسمون ألا يبرحوا أماكنهم مهما كلفهم الأمر من المخاطر، حتى إنه حدث يومًا حريق قرب ناديهم فلم يخرجوا منه إلا بقوة رجال الشرطة.
>
> وفي لندن أندية قلَّما تُقبَل فيها النساء، وفيها أندية للراغبات عن الزواج. ومن أنديتهم نادي «اللوبيا السوداء» على مثال نادي نيويورك، وهو مؤلَّف من

أربعين عزبًا يجتمعون مرة في السنة، ويضع رئيسه في صندوق أربعين حبة من اللوبياء ومنها واحدة سوداء ويسحب كل عضو حبة، فمن سقطت السوداء في يده حكم عليه قانون النادي بالزواج، والنادي يتكفل بنفقة تزويجه كما يبتاع له أثاث بيته ويقوم بنفقة سفره ثلاثة أسابيع مدة شهر العسل.

وفيها أندية طالبات الزواج على مثال نادي اليابان، يتم بواسطته كل أسبوع مائتا قران، ويتزوج أكثر هؤلاء بالنظر إلى صور خطيباتهم الشمسية. وفيها أيضًا نادي «المنتحرين»، شعاره «بالموت شفاء الأسقام كلها»، ولا تُقبَل فيه النساء ولا العزَب من الرجال. ونادٍ للأرواح يدخله علماء ومحامون وجراحون وباحثون ممن يهتمون بكشف الأسرار عن مخاطبة الأرواح. ونادٍ لمن لا أنوف لهم، ورئيسه مصري أنفه لا يكاد يظهر في وجهه. ونادي «مشوَّهي الخِلقة». ونادي «السوداويِّين» يجتمعون فيه كل أسبوع، وهم عبارة عن حوذِيِّين وسواقين وملاحين، ليتسابُّوا ويتشاتموا ويُظهِروا فضل قرائحهم في علم الطعن والقذف، ومن قصَّر من الأعضاء أو أبدى لطفًا في ألفاظه وحركاته يُغرَّم في المرة الأولى، وفي الثانية يُطرَد من حظيرة أقرانه. ونادي «العبوسين» يدخله من ساءت أخلاقهم، يلتزمون السكوت فيجلس الواحد منهم إلى ناحية يدخن غليونه بدون أن يتكلم. ونادي «قتلة البشر»، وهم يؤْثرون القتل على ثَلْم الشرف، ورئيسهم قتل خمسة وعشرين شخصًا في البِراز! ا.هـ.

فانظر — يا رعاك الله — إلى هذه الأندية وغرائبها وتفننهم فيها بما هو معقول وغير معقول.

وقد قال من وصف أندية الإنكليز: «الأندية مرآة صادقة تقرأ فيها عنوان القلب والإبدال الذي طرأ على المجتمع الإنساني والأخلاق على توالي القرون والأعوام.»

وأقدم أندية لندن «النادي البحري الملكي»، أُسِّس سنة ١٦٧٤.

ولا يفوتني أن أذكر أن الجو هناك لا يروق الشرقي الذي ألف الشمس الساطعة والضوء اللامع الصحو، فالمطر هناك لا ينقطع إلا قليلًا، والسماء لا تصفو حتى يرجع إليها ظلامها الدامس، فيجتمع ظلام الجو مع سواد المنازل فيكوِّنان ظلمة لا تسر. تجد البرد صباحًا ومساءً شديدًا، فهو يشبه شتاءنا مع أننا كنا هناك في شهر أغسطس، ولذا تجد بعض الإنكليز يلبسون المعاطف نهارًا وليلًا، وقد شاهدت بعض النساء لا يخلعن معاطف المطر إلا قليلًا. والجو كثير التقلب لا يستقر على حال، فلا تأمن أن يكون الجو

صحوًا حتى يتغير بسرعة عجيبة إلى سحاب داكن فتنسكب الأمطار بشدة ومع ذلك فلا تزعجهم كما تزعجنا، لأنهم ألفوه وجعلوا له استعدادًا في لباسهم ومنازلهم وشوارعهم.

(٢) البرلمان الإنكليزي

يقرب من كنيسة وستمنستر بناء ضخم ممتد الأطراف والنواحي له عظمة وجلال، هو مجلس نواب الأمة الإنكليزية ولورداتها، وعظمته لا تخفى على أحد حيث تصدر منه سياسة العالم، فهو مدير دفتها ومحورها الذي تدور عليه وقطب رحاها، وقد أخبرنا سائح زار أكثر ممالك أوروبا أنه لا يوجد برلمان لأمة من الأمم مثله.

وقد شُيِّد على نهر التاميز، ممتدًّا على النهر بواجهة تبلغ ٩٤٠ قدمًا، مزينًا بتماثيل الملوك والملكات من عهد وليم الفاتح إلى عهد الملكة فكتوريا، ويشغل مساحة قدرها ثمانية أفدنة إنكليزية، به ثلاث عشرة ردهة غاية في الجمال والزخرف، ومائة سلم في جهاته المختلفة، وبه نحو ألف حجرة. وتنتهي واجهته في كل من طرفيها بجناح بارز، وما بين الجناحين ينقسم إلى ثلاثة أقسام متساوية تفصلها عن بعضها بروج صغيرة لها منظر فخم يجذب القلوب، ويدل على مقدار اعتناء الأمم الراقية بمحل اجتماع نوابها ليتشاوروا فيما يعود على بلادهم بالخير والبركة وقد نزعوا ما في صدورهم من غل إخوانًا على سرر متقابلين.

البرلمان الإنكليزي.

لما وصلنا إليه وجدنا السائحين مزدحمين على بابه الخارجي ازدحامًا شديدًا يتعذر معه دخولهم إلا بترتيب ونظام فاصطفَّت الناس على بُعد كبير من بابه، ولما فُتِح سرنا

متراصين متكاتفين لا يقدر الإنسان أن ينقل قدمه أكثر من قدم. ولما دخلنا القاعة الأولى رأينا عظمة البناء والنقوش والصور وزخرف السقوف التي تلفت الأنظار لجمالها وبهائها. وما زلنا سائرين متراصين يدفع بعضنا بعضًا فلا يتمكن الإنسان من الوقوف إذا أراد لشدة اندفاع الناس وعدم القدرة على التقدم أو التأخر، نتأمل في نظام الحجر وجمالها وتنسيقها ونقوشها وإبداعها وسعتها، حتى وصلنا إلى حجرة مجلس اللوردات، وهنا ظهرت عظمة البناء وجلاله؛ غُشِّيت جدرانها وأسقفها بالذهب، ونُضِّدت فيها المقاعد مدرَّجة على هيئة «أنفتياترو» مكسوَّة بالجلد الأحمر الناعم، وُضِعت في وسطها منضدة تحيط بها المقاعد، وفي صدر هذه الحجرة عرش الملك يجلس عليه عند الاجتماع، له حسن وزخرف لا مثيل لهما، مُوِّه جميعه بالذهب الخالص وارتفع حتى قرب من السقف، وأمام العرش شبه منبر يصعد إليه من يخاطب اللوردات، وعلى يمين العرش وشماله مقاعد للأمراء والسفراء مرتبة ترتيبًا يليق بمنازلهم وطبقاتهم، وبه عدة مقصورات مرتفعة أُعِدَّت للمدعوِّين وأصحاب الصحف.

وطول هذه الحجرة يبلغ نحو ثلاثين مترًا في عرض أربعة عشر وارتفاعها كذلك، بها اثنتا عشرة نافذة، وقد رُسِم فيها كثير من صور الملوك الذين حكموا إنكلترا ولهم يد في نهضتها. وقد خرجنا من هذه وسرنا حتى وصلنا إلى ردهة واسعة على شكل دائرة مسقوفة بالحجر بها عدة تماثيل مقامة في جوانبها لعظماء رجال الإنكليز، ويتفرع منها عدة طرق، منها طريقان أحدهما للذاهب والآخر للآيب، فسرنا على اليمين في طريق طويل أُقِيمت بحوائطه تخوت زجاجية نُسِّقت بها الكتب الكثيرة التي لا تُعَد ولا تُحصَى وامتدت على مسافة طويلة، منظرها يأخذ بالألباب لكبرها ونظام كتبها وزخرف جلودها، وأكثرها محلاة بالذهب وجلود الكتب بنظام واحد.

وقد دخلنا من باب كبير أوصلنا إلى حجرة مجلس النواب، طولها ثلاثون مترًا في عرض أربعة عشر، وزخرفتها أقل بكثير من زخرف مجلس اللوردات، وللرئيس محل مرتفع في جهتها الشمالية، قد نُضِّدت مقاعد على يمينه جُعِلت للوزراء، وخلفها مقاعد حزب الحكومة، وقد خُصِّصت المقاعد التي على يساره لرؤساء أحزاب المعارضين، وخلفهم أحزابهم. وبجوار الرئيس مقصورات خُصِّصت لكتَّاب الجرائد والأجانب الذين يُصرَّح لهم بالدخول لرؤية المجلس وسماع مناقشاته. وبداخل حجرة مجلس النواب حجرتان؛ إحداهما عن يمين الرئيس والأخرى عن يساره، يُستعمَلان في تعيين عدد الأصوات إذا حصل شك في عددها، فيدخل الأعضاء الذين من رأيهم الإيجاب إلى الحجرة اليمنى والذين

من رأيهم السلب إلى الحجرة اليسرى، ويُعَدُّون وقت خروجهم فتظهر نتيجة الأغلبية من غير شبهة.

وقد دُهِشت للفرق العظيم بين حجرة اللوردات وحجرة النواب، فإنها خالية من الزخرف والزينة لا تزيد عن حجرة عادية دارت حولها المقاعد الخشبية الخالية من الفرش، وفي صدرها مقعد للرئيس خالٍ من الزينة والحلية. وقد داخلني شك كبير في أن تكون هذه حجرة مجلس النواب، ولذا سألت كثيرًا حتى تأكدت أنها لهم، فعجبت أشد العجب لمجلس نواب هو أقدم المجالس النيابية عمرًا وأعظمها صولة وهيبة، تنقل الأسلاك البرقية أخباره فتكون لها طنة ورنة وتأثير عظيم في مجرى سياسة العالم أجمع؛ عجبت أن تكون بهذه البساطة الغريبة إذا رآها الغريب لم يصدق أنه مجلس نواب هذه الأمة العظيمة.

وقد سألت عن الحكمة في ذلك فأُخبِرت أنهم لا يريدون تغيير ما كانت عليه قديمًا، وأن النائب يخدم أمته على أية حالة كانت وبأي اعتبار كان، وليس لهم مرتبات ضخمة مثل ما لنوابنا الكرام بالنسبة لإيراد الدولتين ودخلهما، وقد كان النائب عندهم لا يأخذ أجرًا على نيابته.

ومما يُدهِش الناظر إلى مبنى البرلمان خارجًا رؤية برجين عظيمين:

(١) الأول: برج الساعة، تُضاء بالكهرباء حال انعقاد جلسات البرلمان يُرَى منه ليلًا، كما تقام في أعلاه راية ترفرف عليه، وارتفاعه يبلغ نحو ٣١٦ قدمًا، به ساعة من أكبر ساعات الدنيا وأعظمها وأدقها، لها أربعة وجوه قطر كل منها ٢٢ قدمًا ونصف قدم، وطول الرقم قدمان، والمسافة بين الدقائق قدم وربع قدم، وجرسها يزن ١٣ طنًّا إذا دُقَّ سمعه جزء عظيم من لندن مع سعتها، خصوصًا إذا كان الجو ساكنًا، فهي آية في العظمة والغرابة.

(٢) برج فكتوريا: يبلغ ارتفاعه ٣٣٦ قدمًا، قد بُنِيت به حجر بطريقة لا تؤثر فيها النار، حُفِظت بها الأوراق والمستندات البرلمانية، وأسفل هذا البرج العظيم مدخل الملك الذي يدخل منه عند فتح البرلمان.

ولقد يُخيَّل إليك وأنت سائر في طرقات البرلمان أنك سائر في شوارع مدينة كبيرة، وله من الخارج روعة في النفس وهيبة وعظمة، لا يمكن أن يصفه واصف مهما بالغ في الوصف، كما أنه لا يدرك دقة ما في الحُجَر من النقوش والتماثيل.

(٣) كنيسة وستمنستر

هي بناء ضخم فخم يشعر الداخل إليه بالعظمة، وهي مشهورة بمدافن الملوك والملكات وعظماء رجال الإنكليز من السياسيين والشعراء والكُتَّاب والقواد والصناع وغيرهم ممن اشتُهِر أمرهم وذاع صيتهم، ولهم عمل عاد على الأمة بالفائدة الأدبية والمادية. وقد رأيت فيما رأيت فيها قبرًا نُثِرت عليه الورود والرياحين والأكاليل هو قبر الجندي المجهول وله عندهم احترام عظيم، فإذا وصل إليه الزائر رفع قبعته ووقف أمامه خاشعًا خاضعًا يعظم فيه الجهاد الوطني والتضحية الكبيرة، يُهدَى إلى قبره كل يوم كثير من الورود والأكاليل، قد كُتِب على قبره ما معناه «هذا قبر الجندي المجهول الذي دافع عن وطنه إلى آخر لحظة من حياته»، وله احتفاء خاص في كل الممالك التي زرتها خصوصًا فرنسا، وقد تكلمت عليه فيما مر. والزائر لهذه الكنيسة يشعر باحترام عظيم لأولئك الأبطال الذين خدموا بلادهم ورفعوها إلى ذروة المجد بأعمالهم العظيمة حتى استحقوا الشرف والتكريم من أمتهم أحياءً وأمواتًا. ومن بين المدفونين هناك من السياسيين «وليم بيت» الذي عُيِّن رئيسًا للوزارة وهو في سن الرابعة والعشرين من عمره، ثم المستر غلادستون وزوجته، وقبر الشاعر ملتون وشكسبير وغيرهم كثير. ومنهم من هو مدفون في فناء الكنيسة وقبره سُوِّي بالأرض، ومنهم من أُقِيمت له تماثيل كاملة، ومنهم من وُضِع في تابوت من الحجر وثُبِّت في الحائط، وهناك تمثال نصفي للقائد العظيم غردون باشا الذي قُتِل في الخرطوم أيام ثورة المهدي، وغير ذلك من العظماء.

ومحل التعبد فيها على شكل صليب يعجب الناظر لجماله وزخرفته وزينته. وقد أكثر الأغنياء من التبرعات لهذه الكنيسة حتى صارت من أغنى الكنائس ولكن صادرتها الدولة في أملاكها كباقي الكنائس، ثم رجعت عن ذلك فيما بعد وأعادت إليها ما سلبته منها.

وينظر الإنكليز إلى هذه الكنيسة بعين التجلة والاحترام، ويكافئون الشخص على أعماله الجليلة بدفنه فيها، ويُعَد ذلك أكبر شرف وأعظم فخار له ولأسرته، ولذا تجد قبور عظماء الإنكليز وأغلب ملوكهم في هذه الكنيسة مرسومًا على بعضها ما يشير إلى صفات امتازوا بها في حياتهم، مثال ذلك تمثال شارل جاكيز فوكس الوزير الكبير، صُوِّر وهو يقضي نحبه بين ذراعي الحرية وعلى ركبتيه ورجليه شارات السلم وتحت قدميه رجل من الأرقَّاء قد أُطلِق من قيود الاستعباد. وهكذا من هذه الإشارات والرموز والمعاني.

كنيسة وستمنستر.

وقد وصلنا في مطافنا إلى باب أمامه رجل يأخذ نصف شلن لمن يريد الدخول في حجر خاصة بالملوك ومحال تتويجها وبعض تماثيل لهم ولزوجاتهم، ومن أجمل الحجر وأفخرها محراب أُعِد لصلاة الملك له عظمة وفخامة وجلال، نُضِّدت فيها كراسي من الخشب الجميل ثُبِّتت في الحوائط لها بهجة وتنسيق وترتيب ونقوش ورسوم بديعة، يجلس على كل كرسي منها حاملو نشان «الحمام»، يجتمعون فيه باحتفال عظيم عند حضور الملك، وأمام مقعد كل شخص كتاب مذهَّب جميل. وقبة هذه الحجرة من أبدع ما يرى الناظر؛ سقفها مموَّه بالذهب الوهاج، وبها صور وتماثيل ونقوش وأعلام كثيرة عُلِّقت في وسطها وفي جوانبها تُعَد من أعجب العجائب، وأمام هذه الحجرة مكان مرتفع على شكل مربع صعدنا إليه من سلم بديع، وهناك وجدنا الكراسي العتيقة الخالية من الزخرفة والزينة تُتوَّج عليها ملوك إنكلترا، وقد اتبعوا هذه العادة قديمًا ولم تُغيَّر إلى الآن.

ولم أرَ ازدحامًا وكثرة زوار كما رأيت في هذه الكنيسة، لأننا قد حضرنا قبل فتح أبوابها فتراكمت الناس عليها، وعند فتحها انسابت الجماهير انسياب تيارات المياه القوية

فساروا صفوفًا متساندة، متبعين السير بنظام في الطرق المعدة للمرور بين الكراسي الكثيرة، يرى الزائر سلسلة دائرة من الداخلين والخارجين.

وقصارى القول أنها من أعظم الكنائس التي زرتها لوجود كثير من آثار الملوك والعظماء فيها مما يضيق المقام عن شرحه.

(٤) معرض ومبلي

ارتضينا النزول في الفندق الذي لجأنا إليه بعد أن أعيانا البحث والتنقيب، وكانت أجرة المبيت فيه ثمانية شلنات ونصف (٤٢ قرشًا) بما في ذلك تناول طعام الإفطار، وهو عبارة عن بيض مقلي وزبدة ومربى وشاي باللبن وبعض اللحوم لمن يطلب، والإنسان يقبل على الأكل صباحًا بشهية لأن الجو هناك بارد كالشتاء عندنا.

نمنا فيه مستريحين تلك الليلة، وقمنا مبكرين قاصدين رؤية المعرض فسرنا في الشوارع نمتع الطرف بما فيها من محاسن التجارة والصناعة حتى وصلنا إلى المحطة التي يركب منها زائرو المعرض القطار، ومنها أخذنا جوازًا بعد دفع شلنين ونصف بما في ذلك رسم دخول المعرض، وبعد أن ركبنا القطار سار بنا فوق الأرض جزءًا من الزمن وبقية المدة سار تحتها في الأنفاق التي مر ذكرها في المقال السابق، وأجرة دخول المعرض وحدها شلن ونصف، ولما خرجنا من القطار صعدنا فوق قنطرة (كبري) ثم نزلنا وسرنا قليلًا جدًّا حتى وصلنا إلى باب المعرض.

ومبلي ضاحية من ضواحي لندن تبعد عنها بمقدار ثلث ساعة في القطار، فتحت إنكلترا المعرض لزيارة الزائرين يوم ٢٣ أبريل سنة ١٩٢٤، وقد بلغت تكاليف إقامته نحو عشرة ملايين من الجنيهات الإنكليزية، اشترك في إقامته الهند وبعض المستعمرات الإنكليزية والتي تحت الحماية فهو نتيجة اهتمام الإمبراطورية بأسرها. ولقد كانت فكرة إقامة المعرض مختمرة عند الإنكليز قبل الحرب العالمية الكبرى، ولكن اشتعال نار الحرب أخرت تلك الفكرة إلى هذا الوقت. وإذا كان هناك شيء يدل على عظمة الأمم ورقيها فمعرض ومبلي يدل دلالة واضحة على ما لإنكلترا من العظمة وبسطة الملك والسلطان، وضربها في الرقي المادي والأدبي بسهم وافر لا تضارعها فيه أمة أخرى.

فإذا أشرفت على المعرض من ربوة عالية هالك منظره وأدركتك الحيرة وعلمت كيف تقوم الأمم بعظائم الأمور وجلائل الأعمال، جُمِعت فيه كل دلائل الحضارة الحديثة ومقومات العصر الحاضر مما يقف الإنسان أمامه خاشعًا.

دخلنا بابه فرأينا حديقة واسعة جميلة بها أنواع الزهور الزاهية الزاهرة نُسِّقت تنسيقًا بديعًا ورُصِّعت بها الكراسي الخضراء حول بحيرة جميلة المنظر، وله في مدخله طريقان أحدهما على يمين الداخل والآخر على يساره، فسرنا على اليسار وسط جم غفير من الناس كلهم أعين لرؤية ما يذهل العقول فلا تجد أحدًا ينظر إلى الآخر كأنهم في يوم حشر. رأينا مركبات كهربائية تتحرك مستمرة ينتظر الإنسان سيرها بطيئًا فيقفز بسرعة حتى يمكنه ركوبها فتسير به في جهات كثيرة من المعرض، وإذا أراد النزول انتظر إبطاءها ونزل بسرعة كما ركب، وكراسي بعجل يدفعها الخدم يركبها من يتعب من السير أو من لا يقوى عليه، وعجلات مقسمة إلى صفوف بها مقاعد كثيرة يديرها رجل من الأمام تسير بسرعة في طرقات المعرض الممهدة، وعدة زوارق بخارية وغير بخارية في بحيرات جميلة مزدانة بمصابيح الكهرباء والأعلام، فتحدث منظرًا بالليل يسحر العقول، وبها عدة جزر وسط البحيرات تقام بها المراقص والألعاب ليلًا وتصدح بها أنواع الموسيقى وآلات الطرب فتعتقد أنك في مهرجان عظيم جُمِعت فيه أنواع السرور والملاهي.

بحيرة معرض ومبلي.

وقد أُقِيم في ميدان واسع قريب من المدخل بناءان عظيمان، أولهما بناية تحوي الآلات الميكانيكية والهندسية وآلات توليد الكهرباء وأنواع العدد على اختلاف أنواعها وتباين أشكالها، وقد بلغت الدرجة العظمى من الرقي.

وأهم شيء لفت نظري فيها ضخامة آلات توليد الكهرباء وتعددها، لا يعرف أنواعها وأشكالها إلا من له خبرة ودراية بالعلوم الهندسية والميكانيكية. ورأينا عدة مواني بحرية للدولة الإنكليزية، مُثِّلت أحسن تمثيل بها السفن الصغيرة التي تسير بالكهرباء تتبع في سيرها الطرق البحرية تدخل في موانيها وتخرج منها، ورأينا مواني ممثَّلة بالجبس تمخر فيها السفن الحربية والتجارية، وغير ذلك مما يعجز الواصف عن وصفه.

ولكوني لا أعرف أنواع هذه الأدوات ولا يمكنني حصرها، أكتفي بأن أقول إنها تدل دلالة واضحة على ما لإنكلترا من الرقي الصناعي الذي لا تضارعها فيه أمة أخرى. وبهذا المبنى وحده خمسة وأربعون شارعًا، كُتِب على كل شارع رقم يدل عليه وعُلِّقت على بابه ألواح تدل على بعض ما يحويه من الصنائع وغيرها، وبه خيالة (سنما) تُعرَض فيها كيفية سير السفن الإنكليزية ورسوها وخروجها من المواني حاملة أنواع التجارة والصناعة في جميع المحيطات.

ومما يلفت نظر المتفرج في هذا المبنى محل بناء السفن به الآلات الضخمة التي تُستعمَل في بنائها مما يعجب لها من لم يرها من قبل، والآلات الدقيقة كذلك.

وترى عجائب الكهرباء في الكي والغسيل والطبخ والحلاقة كل ذلك من غير أن تديرها يد إنسان، وفيه السكك الحديدية مجهزة على أحسن وأبدع طراز، وترى فيه أكبر القاطرات التجارية. وبه بهو لصاحب الجلالة ملك مصر المعظم فؤاد الأول على أحسن ما رُتِّب ونُسِّق، به أثاث فاخر من الحرير النفيس فارتاحت نفوسنا لرؤيته. وبه أحدث السيارات وأضخمها، وغير ذلك مما لا يتصوره إلا من يراه بعينَي رأسه.

والمبنى الثاني مبنى الصناعة والفنون، به غرائب الصناعة وعجيب ما أخرجته يد الإنسان واستنبطته قريحته على أحدث نظام وأبدع ترتيب، حوى أهم صناعة الإمبراطورية. به تماثيل كثيرة للرجال المشهورين الذين لهم يد في نهضة الفنون والصنائع. وبه قسم الملاهي، ترى مسرحًا جميلًا به زر كهربائي إذا ضُغِط عليه ظهر على المسرح الممثلون والممثلات بأزيائهم القديمة في القرون الوسطى، فترى كيفية التطور الإنساني وما وصل إليه من الرقي. وبه كيفية صناعة الشكولاتة، تُوضَع المواد المكونة لها في آلات فتمر فيها بغاية السرعة، فتظهر من الجهة الأخرى مجهزة كاملة. وبه أيضًا كيفية صناعة العلب، تمر الآلة على صفائح من القصدير فتكوِّن في طرفة عين العلب وأغطيتها وما عليها من كتابة وزخرفة، مما يعجب الإنسان له ويدرك سرعة الآلات في إحداث الأشياء وتجهيزها بسرعة عجيبة. ومن عجائب الصناعة وأدقها نموذج لقصر ملكي، ارتفاعه نحو

ثلاثة أمتار، مركب من ثلاث طبقات، حوى داخله كل ما يصح أن يوجد في قصور الملوك من أثاث ورياش غاية في الجودة والزخرف. وبه مكتبة تحوي أكثر من أربعمائة كتاب، لا يزيد حجم الكتاب عن أنملة الأصبع. وبالجملة فيه كل ما يحتاجه ملك في قصره، وقد اشترك في صناعته أكثر من ألف عامل وبعد إتمامه أهدوه إلى ملكة إنكلترا فظهر آية في عالم الصناعة، وكل ما في القصر من الأثاث والفرش والرياش مناسب لحجمه.

ثم خرجنا من هذا قاصدين معرض الهند فشاهدنا بناءً عظيمًا غاية في الفخامة والعظمة، شُيِّد على هيئة جامع من جوامع الهند الكبيرة ذي قباب عظيمة، يدخل الزائر بابًا عظيمًا فيرى فناء صُنِعت به بحيرة جميلة أُحِيطت بالماشي المبلطة بالأحجار. وإذا سرت بعد المدخل على يمينك رأيت المحصولات النباتية والحيوانية والمعدنية قد اكتظت بها حوانيت هذا المبنى الهائل، وترى الفيلة الضخمة والسباع والضباع والفهود محشوَّة قائمة على أرجلها كأنها حية يرى الناظر إليها جلال قوتها وعظمتها، وداخل هذا المبنى معارض متعددة لكل ولاية من ولايات الهند وبها ما أنتجته من المصنوعات والمحصولات الكثيرة المنوعة.

وصناعة الهند لا حصر لأنواعها؛ ترى الشِّيلان الكشميرية الجميلة على أشكال بديعة، والملابس الحريرية المزركشة، وسن الفيل بحجمه الطبيعي يبلغ طول السن نحو ثلاثة أمتار، والخزف الجميل المزخرف غاية في الإبداع وحُسن المنظر، وأنواع كثيرة معدومة النظير يسرك منظرها وتدهشك صناعتها.

ومما يلفت النظر معرض الشاي، فإن الأشجار نُقلت من مزارعها إلى المعرض وعُرِضت كما تُعرَض المناظر في المسارح، يتخللها الجانون يبينون كيفية جني أوراقها وتجهيزها وحملها على الدواب لإرسالها إلى الجهات. وهو لشركة إنكليزية رأس مالها ثلاثون مليونًا من الجنيهات كما أخبرنا بذلك مدير المعرض الذي قابلنا بذوق كبير، وقدم لنا كتابًا يحوي معلومات هامة عن الشاي وعما تقوم به الشركة من تنمية زراعته ونشر تجارته.

وأمام هذا المعرض محل واسع عُلِّقت في حوائطه عدة ألواح وتحف جميلة، وقد عُرِض علينا من تلك التحف ما جعلنا نعجب من تقدم صناعة الهند، وقد كُتِب في بعض هذه الألواح إحصاء يدل على نسبة المتعلمين في الهند ذكورًا وإناثًا. وقد علمنا من مديره أن تعليم البنات بها ليس أقل من تعليم الذكور، غير أن نسبة المتعلمين من المسلمين قليلة بالنسبة للأجناس الأخرى، فأسفنا جد الأسف لانحطاط التعليم عند المسلمين في جميع

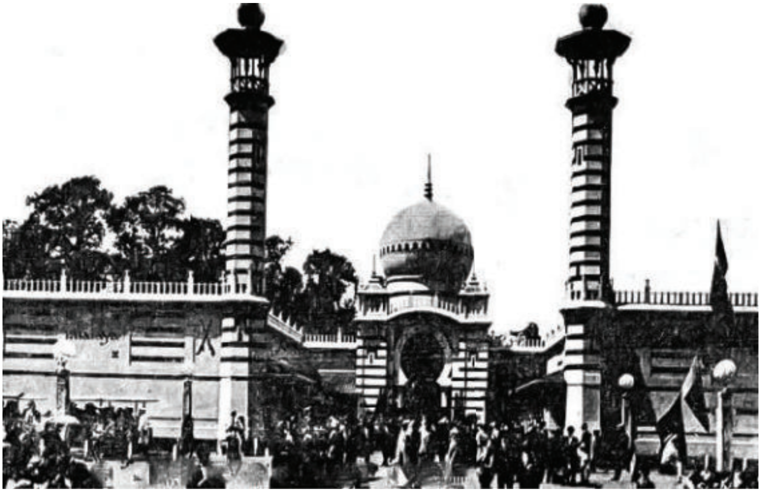

منظر مباني الهند في معرض ومبلي.

بقاع الأرض، وأن عدد المسلمين الآن من الذكور في جميع المدارس الهندية ثمانية ملايين يُنفَق عليهم سنويًّا اثنا عشر مليونًا من الجنيهات، وهي نسبة قليلة لعدد سكان الهند. وفي المعرض غير ذلك أنواع من الصناعات الجميلة التي لا حصر لها.

ثم خرجنا منه قاصدين معرض «برما»، وهو بناء غريب في بابه ليس له مثيل في بنايات المعرض وليس على شكل المباني المألوفة، له باب واسع بديع زُخرِف بمواد براقة تخطف الأبصار، وبالباب الخارجي عمودان كبيران قد غُطِّيا بهذه المواد البراقة، يصعد هذا المبنى بتدريج غريب طبقات بعضها فوق بعض، كل طبقة أقل مما تحتها بحيث تكوِّن سطحًا صغيرًا مدرجًا، ويصعد هكذا حتى تتكون سبع طبقات تنتهي بشكل مدبب كالمئذنة تُعلَّق بها الأجراس التي تطن وترن عند هبوب الهواء. وكل هذا المبنى من الخشب المخرم البديع المزركش أطرافه ونواحيه، وقد عُرِض فيه أنواع كبيرة أهمها الأحجار الكريمة المستخرجة من بلادها.

وأمام هذا المبنى بناء على هيئة ضريح ينتهي بقبة كبيرة مزينة بأنواع الزينة التي زُيِّنت بها مباني برما، به تمثال من أبدع التماثيل وأجملها وهو تمثال المعبود بوذا، وأمامه تمثال رجل جاثٍ على ركبتيه مادًّا يديه إليه يطلب منه الرحمة والغفران.

منظر مباني برما في معرض ومبلي.

وقد اتُّبِع في هذا المعرض أن كل مبنى يقام لمستعمرة من المستعمرات يُلاحَظ فيه أن يكون من نوع ما يسكنه أهل تلك المستعمرة، وفيه تُعرَض جميع حاصلاتها التجارية والزراعية والصناعية والحيوانية والمعدنية، ويحوي غالبًا دارًا للخيالة (السنما) يُعرَض فيها تطور تلك المستعمرة في عاداتها وصناعاتها وتجاراتها قبل الاحتلال وبعده، حتى يدرك الزائر مقدار التقدم والتطور الذي حصل على يد الاستعمار، وما وصل إليه أهلها من الرقي في كل شيء، وترى أيضًا مناظرها الطبيعية من جبال وتلال وأنهار ومعادن وبراكين ومزارع وصناعات. ترى كل ذلك ممثَّلًا في مستعمرة نيوزلنده الجديدة التي فيها البراكين تقذف المياه والطين، وتظهر همجية أهلها قبل الاحتلال فإن صناعتهم أولًا كانت عبارة عن صناعة الخوص وصيد الأسماك ورعي الأغنام، ولكن بعد الاستعمار ظهرت كأحسن دولة متمدينة في صناعتها وتجارتها ورقي أخلاق أهلها وغير ذلك مما يصح أن يكون درسًا وافيًا لأحوال تلك المستعمرة، فالذي يزور معرض ومبلي يدرس أحوال المستعمرات الإنكليزية درسًا جغرافيًّا وافيًا لأنه يرى كل شيء رأي العين. وفي داخل البناية باعة من أهل تلك البلاد يبيعون لك ما تريد ابتياعه.

بعد أن فرغنا من زيارة معرض الهند قصدنا زيارة مباني الحكومة، وبها معروضات وزارة الصحة والحربية والمالية … إلخ، فرأينا في معرض وزارة الحربية بركة واسعة على

شكل دائرة قد مُثِّلت فيها القارات والمحيطات تمثيلًا جغرافيًّا، وفي المحيطات تمخر السفن المصغرة التجارية والحربية ذهابًا وجيئة داخلة خارجة من موانئها تندفع بقوة الكهرباء في ذلك الماء فيستهوي لبك هذا المنظر البديع. والسفينة تتبع طريقها حتى تصل الميناء وأنت ناظر إليها كأنك في عالم الخيال، وإذا نظرت إلى كمية السفن التي تقطع المحيطات ترى أكثرها سفنًا المحيط الأطلسي كما ترى أقلها سفنًا المحيط الأعظم، أما المحيطان المتجمدان فليس بهما سفن قاطبة. وقد رأينا صور الوقائع الحربية الكثيرة التي انتصر فيها الإنكليز على غيرهم، كما رأينا أضخم المدافع وأرقى أنواع الطيارات.

ورأينا في وزارة الصحة كثيرًا من أنواع الأمراض في المناطق الحارة وطرق علاجها، والأمراض التي تتولد من كثرة تعاطي خبز الذرة، وكيفية معيشة الناس في الغابات والأحراش والأكواخ.

وقد رأينا في هذا المبنى كيفية سك النقود والمداليات الذهبية وجلاء النقود إذا لحقها صدأ فتعود إلى حالتها الأولى، ورأينا النقود المصرية الذهبية التي سُكَّت باسم صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الأول من القطع ذات الخمسة الجنيهات والجنيهين والجنيه ونصف الجنيه والريال الفضي.

معرض هنغ كنغ: رأينا فيه كيفية تنقية الأحجار الكريمة، ووضع الصغير منها في خواتم يقوم الصانع بصناعتها أمام الزائرين. ولهم مهارة كبيرة في صناعة أشياء متعددة من الخوص الملون بالأصباغ الجميلة، وقد اشتريت منها سفطًا غاية في الجمال محلًّى بالحرير وبه أقمشة حريرية وعقود مرجانية متعددة الأنواع والأشكال.

معرض جزيرة سيلان: قد هالنا ما رأينا فيه من الحيوانات المفترسة المصبَّرة وكثير من الصنائع، ومما يلفت النظر فيه كبر أحجار الماس واللؤلؤ، وقد رأينا عقدًا ثمينًا من النوع الأخير قيمته ألفا جنيه كما هو مكتوب عليه، وغير ذلك من الأحجار التي تُقدَّر بآلاف الجنيهات.

معرض ساحل الذهب: فيه رأينا كيف يُستخرَج الماس من أحجاره وكيف يُعرَف الماس النقي من غيره، وقد تكاثر الناس لرؤيته حتى اضطُرَّ الشرطي أن يسيِّر الناس صفوفًا منتظمة ليروا الصناع الذين يقومون باستخراجه من أحجاره: تُوضَع الأحجار الصغيرة في حوض مستطيل من الخشب المتين مع قليل من الماء، ثم يقف فوق حافتيه رجلان أسودان قويًّا العضلات يهزان الحوض بأرجلهما هزًّا عنيفًا فتسمع لاحتكاك الأحجار صوتًا قويًّا وهما كالراقصَيْن المجتهدين يميلان يمنة ويسرة، ويتصل بهذا

الحوض آلة أخرى يقبض عليها رجل يساعدهما في الهز ويمدهما بالماء كلما نقص الحوض.

معرض السودان الغربي: وأهم ما فيه حاصلات الأشجار وثمرها يشبه اللوز ومنها ما يشبه الحصى أو الزلط مما لا عهد لنا برؤيته، وبه محصولاتهم الصناعية وأزياء رجالهم ونسائهم مما يعجب الإنسان لوجود مثلها في عصر التمدين ومع حكمهم بأمة من أرقى الأمم مدنية وحضارة.

معرض السودان المصري: قد عُرِضت معروضاته في بناية من نوع ما يشيده أهله، وقد كُتِب على بابه «السودان المصري الإنكليزي»، وبه أنواع ما يُصنَع من الخوص والذرة والدخن وأزياء الرجال والنساء. ومما لفت النظر فيه وجعل المتفرجين يجتمعون بكثرة شيئان:

(١) نقل شجرة القطن في براميل بلوزها الكبير المفتح قد يبلغ طول الشجرة منه نحو مترين، وقد وُضِع خلفها القطن السوداني الناصع البياض، مما جعلنا نقف أمامها باهتين، وقلنا: لهذا تسعى معامل لنكشير في نشر زراعة القطن هناك، وتحض الحكومة الإنكليزية على التمسك به والعض عليه بنواجذها، مما دعاهم إلى إقامة خزان مكوار.

(٢) عرض خزان مكوار كما تُعرَض المناظر في المسارح، فترى خزانًا ضخمًا هائلًا لم ترَ العين مثالًا له، ذا عيون كثيرة، تجري على سطحه القُطُر الحديدية التي تحمل مواد البناء، وقد صُنِع في طرف منه ممر للسفن الذاهبة والآيبة، وقد بينوا في لوحة فيه الفوائد التي تعود على السودان من تشييده، وأهملوا الضرر الذي يلحق أرض مصر من ذلك. وقد قدروا ما يتدفق منه من المياه وغير ذلك من المعلومات التي جعلت أنظار الزائرين تتجه إليه.

فقلت: أين احتجاج الشعب المصري وحكومته على تمثيله وعدِّه من المستعمرات الإنكليزية؟ وما معنى قبول الاحتجاج حينذاك؟ ربِّ، إن القوي يعتز بقوته فلا يسمع نداء الضعيف ولا يشعر بآلامه! إن العزة لله جميعًا.

معرض جنوب أفريقية: به محصولات كثيرة منوعة أشهرها: البرتقال والتفاح لجماله وكبر حجمه، والماس وكيفية تنقيته بآلة كبيرة ضخمة مركبة من عدة أجهزة وبيان أدواره التي يأخذها حتى يصلح للاستعمال. وبه الفحم الكثير الذي يُستخرَج من

مناجمها، وغير ذلك مما لا يُحصَى. وقد يسرك جدًّا رؤية الماس وهو ينتقل في الأجهزة. وقد رأينا فيه خارطة أفريقية مصنوعة من الجبس، وفيها مُثِّلت السكة الحديدية المنوي إيصالها من جنوب أفريقية إلى القاهرة، مبينًا فيها مقدار ما أُنجِز منها وقد مُدَّت من جنوب أفريقية حتى قطعت نهر الكنغ وقربت من بحيرة فيكتوريا نيانزا. وبالتأمل في هذه الخريطة ترى أن الباقي يبلغ نحو الخُمس تقريبًا، وهو مُعلَّم بنقط يتبين للناظر إليها بسهولة.

ومما يجدر ذكره عرض أنواع النعام حيًّا وريشه وبيضه وفراخه، وله حظيرة فيه. ويروق نظرك عرض قطع الماس الكبيرة التي يخطف الأبصار بريقها والكتل الكبيرة الذهبية. وقد بنوا فيه حظيرة للأغنام. وبه خارطة تعرض عليك أهم المصنوعات التي عندهم والمناظر الطبيعية والحدائق الجميلة وكيفية ترتيبها وتنسيقها وزراعتها، مما يجعلك تتصور تلك البلاد تصورًا يقربك من الحقيقة حتى يُخيَّل إليك أنها من أغنى البلاد. ويُعَد من أهم المعارض ومبانيه ضخمة ومحصولاته وتجارته ونظامه وتنسيقه قطعة من عمل أوروبا.

معرض كندا: : هو من أهم المعارض التي زرناها صناعة وتجارة وزراعة وحاصلات، ترى به الشلالات الكبيرة تنحدر منها المياه بقوة، فإذا رأيت فيها شلالات نياجارا يغنيك النظر إليه عن الذهاب إلى بلادهم كأنك تراه رأي العين. رأينا المزارع الواسعة الكثيرة التي تُعرَض عليك في مناظر جميلة كما تُعرَض في المسارح، وتروعك كثرة الفواكه بها وكبر حجمها، وترى غاباتها الكثيرة وجبالها وخلجانها وموانيها وما يُصنَع فيها من اللحوم وكيفية حفظها وتصديرها إلى جهات كثيرة، وكيفية صناعة الزبد التي انفردت بكثرته عن المستعمرات الأخرى حتى صنعوا منها كثيرًا من تماثيل البقر والخيل بحجمها الطبيعي. وبه آلات لتنظيف السجاجيد غاية في الغرابة، وقد شرح لنا أحد العمال كيفية التنظيف بإدارة الآلة أمامنا فدُهِشنا لتقدم الإنسان في تسهيل أعماله، كما عجبنا لرؤية آلة قيل لنا إنها تزيل آلام الصداع بغاية السرعة، ورأينا السُّمُوك الكثيرة العجيبة طرية كأنها أُخرِجت من البحر الساعة، وهي تُصدَّر إلى مختلف الجهات.

وقد يعجبك كثيرًا ويسرك كثرة موانيها وجبالها المتوَّجة بالثلوج والسفن المصغرة الكثيرة التي تسير مندفعة بقوة الكهرباء متبعة الطرق البحرية الجغرافية، وكثرة المنازل الجميلة المنتشرة المشيدة على سفوح الجبال تحفها الحدائق الجميلة الغناء، والأحراج والمراعي الواسعة الكثيرة مما يدل على كثرة خيرات تلك البلاد وفخامة مناظرها الطبيعية واجتهاد أهلها في إتقان الأعمال.

بناء أفريقية الجنوبية في معرض ومبلي.

وقد كُتِب تحت صورة امرأة في إطار جميل عبارة معناها «كندا مستقلة استقلالًا حقيقيًّا ما دام يمكن لكل شخص أن يعمل حرًّا.»

ومعرضها يُعَد نموذجًا لحسن المعارض وجمالها وتنسيقها ونظامها.

وإذا سألت عماله عن شيء أجابوك بلطف وذوق، وقدموا لك كتبًا تبين لك أحوال تلك البلاد من حيث تجارتها وصناعتها وزراعتها ورقيها مما لا يُعرَف عنه شيء من كتب الجغرافيا.

معرض أستراليا: بناء ضخم داخله كثير من أنواع الحبوب التي تعددت أنواعها وألوانها، غاية في الجودة، وقد رُتِّبت بهيئة يسهل على الزائرين تمييزها، وقد أحصيت منها نحو الثلاثين، ولها باجتماعها منظر بهي. عُرِضت مراعيها الواسعة ترتع بها أنواع الماشية. وبه كثير من أنواع اللحوم السمينة التي تعطي مثالًا لجودة المراعي واعتناء القائمين بشأن تربيتها، وتحفظ هذه اللحوم لمدد كبيرة ويُصدَّر منها كثير إلى جهات العالم. وقد تعددت به أنواع السموك التي لم أرَ نظيرًا لها في حجمها ونوعها. وبه مناظر مزارع واسعة متعددة أُقِيمت بها تماثيل الخيول والأبقار والأغنام وتماثيل الرجال يستدفئون وسط الغابات على نيران الحطب أيام الشتاء كهيئاتهم الحقيقية. ولهم مهارة فائقة لا تقل عن كندا في صناعة الزبد، وهي من أهم ما يلفت نظر المتفرج، وقد أقاموا منها تماثيل الأبقار والخيول كما مر ذلك في معرض كندا، فتقف أمامها مسرورًا بمنظرها

الجميل. وتسرك مناظرها الطبيعية التي لها روعة في النفس، وهي كثيرة الأشجار والطيور وخرير الماء المنحدر على الصخور والمنساب بين الغابات.

أستراليا في معرض ومبلي.

وقد أُحضِرت أنواع الطيور المصبَّرة والحية، منها ببغاء غاية في الجمال وحُسن الصوت، تهز رأسها ذات اليمين وذات اليسار وفوق وتحت، إذا سمعت كلامها ولم ترها اعتقدت أن الذي ينطق رجل فصيح اللسان، وإذا قربت منها هزت رأسها وقالت لك بصوت فصيح بالإنكليزية: **Good bye**، وقد اجتمع حولها المتفرجون ليسمعوا كلامها ويروا لعبها.

ومما هو جدير بالذكر آلات جز الصوف فإنها سريعة جدًّا في إزالة الصوف عن جلد الأغنام، وقد انتظرنا كثيرًا لنرى فعلها وقد جُهِّز لها كثير من الخراف ليرى المتفرجون فعل تلك الآلة الغريبة، وهي عبارة عن آلة تُعلَّق بين حاملين على ارتفاع نحو مترين ونصف متر تشبه آلة الحلاقة، يقبض عليها رجل يوجهها على جلد الخراف كيف شاء فتمر عليه مر السحاب فترى الخراف قد خلصت من صوفها الكثيف بسرعة عجيبة.

وبه فواكه كبيرة الحجم، وقد أُحضِرت أشجار البرتقال والتفاح محملة بأثمارها الجميلة التي لا نظير لها إلا في معرض كندا الذي مر ذكره. وقد أُقِيمت تماثيل الجناة

وأيديهم ممتدة لقطف التفاح والبرتقال ووضعه في الأسفاط، وتجد كثيرًا من البرتقال والتفاح مبعثرًا تحت الأشجار. وقد ظهرت مزارعها البديعة كما تظهر على المسارح فكان المنظر بهيجًا يسر الخاطر. وقد عُرِضت فيه كتل كبيرة جدًّا من الذهب الخالص تساوي الواحدة منها مئات الجنيهات كما هو مكتوب عليها.

ولهم مهارة كبيرة في كيفية الغوص والبحث عن اللؤلؤ، وقد أُقِيمت التماثيل من الرجال مرتدين ثياب الغوص، شارحين ما يفعله الغائص في البحر عن اللؤلؤ وبيده وفوق جسمه ما يقيه من هجوم الحيوانات البحرية.

ولهم حذق عجيب في صناعة الكاوتش (المطاط) حتى صنعوا منه أبسطة منقوشة بنقوش جميلة كما يُنقَش السجاد.

وتُعَد أستراليا من البلاد الغنية بمحصولاتها ومزارعها وحيواناتها، وداخل هذا المعرض خيالة (سنما) مجانًا، رأينا فيها مناظرها الطبيعية تسحر العقول، وترى كيفية حياتهم الاجتماعية واحتفالاتهم في مواسمهم وأفراحهم، وغير ذلك مما يصور لك أحوال معيشتهم قبل الاحتلال الإنكليزي وبعده.

معرض الرسوم: رأينا فيه الرسوم وتماثيل القرن العشرين (ورسم الدخول فيه نصف شلن)، رأينا صنعة جميلة يسائل الإنسان نفسه عند مرآها: كيف وصل هؤلاء الرجال إلى جودة هذا الرسم الذي ينطق ببراعة الرسامين والمثَّالين؟! وُضِعت هذه الصور الكثيرة الجميلة الدالة على معاني شتى من شئون الحياة في حجر غَصَّت بها، وقد نُصِبت تماثيل كثيرة الرسامين من رجال ونساء، كما أُقِيم للشعراء والعلماء وكبار الكُتَّاب والقواد العظام الذين لهم يد في نهوض الدولة الإنكليزية، منها ما هو مصنوع من المرمر أو الرخام أو البرنز كلها تشير إلى معانٍ كثيرة حقيقية وغير حقيقية، كل ذلك آية في الإبداع والجمال.

الاستديم: بعد أن تناولنا طعام العشاء الساعة السابعة قصدنا رؤية الاحتفالات التي تقام فيه، وتدل كلها على ما لإنكلترا من العظمة والقدرة، وكان من حظنا أن رأينا الاحتفال بتكريم القواد العظام وعرض جميع أنواع الجنود الإنكليزية في جميع مستعمراتها بأزيائهم المختلفة التي تناسب تلك البلاد، وبعض ألعاب أخرى.

إذا عجبت لشيء في حياتك وهالك منظره وأخذ من حواسك مأخذه وملك عليك مشاعرك وأوقعك في حيرة ودهشة، فاعجب لمشاهدة ذلك الاحتفال الذي أُقِيم في الاستديم، فإنك تغيب عن رشدك ويُخيَّل إليك أنك لست في عالم الدنيا.

نظرت إلى الاستديم فرأيت فناءً واسعًا لا يدرك الطرف نواحيه وجوانبه، منخفضًا عن الأرض على شكل دائرة، يحيط به بناء ضخم أُقيمت عليه الأعلام الإنكليزية، يحيط به أنفتياترو (مدرج) يبلغ ارتفاعه الستين مترًا عن سطح الملعب، قد اكتظ بالناس وحُشِروا فيه حشرًا، وهذا المدرج المحيط بهذا الفناء يسع نحو ١٢٠ ألف نفس تقريبًا. وقد مُثِّلت به ألعاب منوَّعة مدهشة، منها ظهور فتيات حسناوات من ناحية من نواحي الملعب يبلغن نحو مائتي فتاة مقسمات إلى فرق؛ فمنهن [من] تلبس ملابس بيضاء يتدلى من كل ثوب شريط من الخلف عريض تقبض عليه من تسير خلفها، ومنها من تلبس ملابس خضراء وزرقاء وصفراء، وكل فرقة لها ميزة وشارة خاصة، وقد سرن بنظام حتى توسطن الملعب ثم وقفن بهيئة أشكال هندسية جميلة تلفت النظر، وبعد ذلك أتت سيدة كبيرة تحمل مظلة منشورة ووقفت متوسطة الملعب بينهن، وعند ذلك سُلِّطت عليهن الأشعة الكهربائية من جميع نواحي الملعب فظهرت ملابسهن الجميلة بأبدع الألوان والأشكال، فكان المنظر من أجمل ما يرى الناظر، وهنا أخذ التصفيق يصم الآذان بين نغمات الموسيقى والغناء الجميل تردده المغنيات والمغنون من جميع النواحي، مما جعلني كأني في حلم. وبعد برهة أُعطِيت لهن إشارة فسرن منظمات على هيئة دوائر ثم سرن مثنى مثنى، ثم أُعطِيت إشارة أخرى فسرن رُباع رُباع بحركات غاية في الدقة والمهارة، وسرن حيث خرجن جميعهن من باب واحد كل فرقة تحمل علمها يرفرف فوقها بين التصفيق الحاد ونغمات الموسيقى المشجية. وهذه الطريقة التي اتُّبِعت كانت على طريقة حفلات العظماء عند الرومانيين القدماء كما أُخبِرنا بذلك.

وبعد ذلك دخلت فرق من الجنود الملعب رجالًا وفرسانًا مختلفي الأزياء ما بين أبيض وأحمر وأزرق تمثل أزياء الجنود الإنكليزية في جميع مستعمراتها، كل فرقة تحمل علمها وأمامها قائدها، وسار الجميع بنظام حتى أُتِمَّت دائرة الملعب. وهنا وقفت كل فرقة ثابتةً في محلها على هيئة منظمة، ثم أتى قائد فتوسط الملعب ونادى في جميع هذه الفرق مناداة أعقبها إطلاق المدافع ودق الأجراس الضخمة وتصفيق المجتمعين وأزيز المطاود من فوق الملعب، حتى خُيِّل إليَّ أن القيامة قد قامت، وكلُّ نداء منه تحصل حركة عسكرية من جميع أنواع الفرق وتفعل الأجراس والمدافع فعلها. ثم صدحت الموسيقى بالسلام الملكي فوقف الجميع رافعين قبعاتهم، فكان المنظر مؤثرًا جدًّا. ثم عُرِض جميع القواد العظام الذين لهم يد في نهوض الدولة ولهم مواقع مشهودة انتصروا فيها على أعدائهم، سواء أكانوا أحياء أم أمواتًا، فالأحياء ساروا أمام فرقهم والأموات حُمِلت صور

نعوشهم على عجلات تكتنفها المدافع، ثم خرج الجميع من الملعب بين التصفيق والتهليل والأناشيد، ولم أرَ نفسي قد تأثرت مثل ما تأثرت من هذا المنظر الذي يدل على عظمة الأمم ورقيها وصولتها ومجدها. وقد أُجرِيت ألعاب كثيرة يعجز القلم عن وصفها.

ومما يزيدك غرابة رؤية معرض الدجاج، فإن عيني لم ترَ مثلها نوعًا وحجمًا، وبيضها كبير جدًّا يناسب كبر حجمها.

وقد رأيت وأنا بمعرض أستراليا امرأة عظيمة الجثة على كرسي يدفعه الخدم، سمعتها تقول لشاب يسير بجوارها راجلًا: «كمان سنتين تنسى العربي»، فلفت نظري إليها هذه اللهجة العربية بين لهجات الأعاجم، فعرفت مني ذلك فنظرت إليَّ وقالت: أأنت مصري؟ فقلت لها: نعم، فقالت: أهلًا وسهلًا. فأنست لها كثيرًا وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث تارة عما يحويه المعرض وأخرى عن أحوال مصر، وطورًا عما رأته من المشقة والتعب في عبور مضيق كاليه، وأنها لو كانت تعلم تلك المشقة ما أتت لزيارة المعرض، فأخبرتها أننا عبرنا المضيق عن طريق دييب ونيوهافن و«لم يحصل لنا شيء مما حصل لك»، فاختارت أن ترجع منه، ثم افترقنا. وقد أكبرتها في نفسي لاهتمامها بزيارة آثار الأمم الراقية، ولو كانت المصريات المتعلمات اللاتي يزرن أوروبا يعنين بزيارة الآثار والمتاحف كما فعلت تلك السيدة المصرية الراقية لتقدمن كثيرًا.

وقد يجمل أن أذكر عبارة مختصرة عامة عن المعرض:

إذا نظرت إلى سماء المعرض نهارًا رأيت المطاود الطائرة تحلق فوق أرضه ذاهبة آيبة، عُلِّقت فيها الإعلانات الكثيرة المدلَّاة إلى الأرض تقرأ فيها ما يهم عن الصناعة والتجارة فتكسب المعرض جلالًا وجمالًا.

وإذا نظرت إلى المعرض ليلًا، رأيت شعلة متقدة من نار تعم جميع أرجاء المعرض من ثريات كهربائية ساطعة مختلفة الألوان ينعكس نورها في بحيرات المعرض وأنهاره، فترى ثريات في السماء وأخرى في الماء، تمخر في تلك المياه الزوارق حاملة الشموس والأقمار، فيأخذك العجب ويوقفك الاستغراب.

وإذا وقفت فوق الجسور الممتدة على البحيرة والأنهار، رأيت وسطها الجزر الصغيرة أُقِيمت فيها المراقص على نغمات الموسيقى المشجية.

وإذا سرت ناحية أخرى، وجدت أنواع الملاهي والمطاعم والقهوات ومحال المرطبات بأنواعها، مما يسهل على الزائرين الإقامة في المعرض طول اليوم وهزيع من الليل.

وفي المعرض مبان لجميع مستعمرات إنكلترا في العالم ما بين صغيرة وكبيرة من نوع ما يسكنه أهل تلك المستعمرات، كما أن جميع الصناع والباعة والمحصولات

الزراعية والحيوانية والمعدنية وتجارتها وتماثيل عظماء رجالها وأزياء أهلها وكل ما يمثل حالة بلادهم؛ قد حُشِرت فيها وعُرِضت على المتفرجين بأبهى نظام وأحسن ترتيب فلا يغيب عن الناظر حالة من حالاتهم المعيشية، ولهذا يتسنى للزائر أن يحكم على أهل تلك المستعمرات حكمًا تقريبيًّا إن لم يكن حقيقيًّا.

وقد اختلفت المباني وتعددت أشكالها وأنواعها من حيث كبرها وصغرها وفخامتها وحقارتها تبعًا لأحوال أهل المستعمرات.

ويدهش الإنسان لإقامة هذا المعرض وتنسيقه ونظامه وترتيبه، وفي أي مدة مثَّلوا مباني كل مستعمرة، وكيف نُقِلت هذه الأشياء المعروضة. حقيقةً إن هذا العمل لا يقوى على القيام به إلا أمة عظيمة مثل الأمة الإنكليزية.

إن هذا المعرض يعطي فكرة حقيقية عن حالة الأمة الإنكليزية وقدرتها على القيام بجلائل الأعمال، بل ربما كان الغرض الأسمى منه بيان عظمتها وقوتها وما تملكه من مستعمرات وتقدمها في الصناعة والتجارة والمحاصيل، وإنه صفحة من صفحات مجدها ومظهر من مظاهر قدرتها وعظمتها.

وقد يهولك كثرة المتفرجين، فإنهم يسيرون صفوفًا متراصة في الطرقات متكاتفين، كأنك ترى احتفالًا عظيمًا بفاتح كبير أو حادث خطير، ومع سعته نرى كأن الناس قد اجتمعت في مكان واحد وليس لها طريق إلى الانتقال فهم في هرج ومرج، فترى منظرًا بديعًا لم تشاهد مثله. وقد سرت في هذا المعرض اثنتي عشرة ساعة لم أجلس فيها إلا بمقدار تناول طعام الغداء والعشاء، ومع ذلك لم أشاهد إلا المعارض المشهورة. والذي يريد مشاهدة ما فيه لا يكفيه أقل من أسبوع كما عرفنا ذلك من الدليل، وأما من يريد رؤية المعارض الشهيرة فيكفيه يوم بشرط أن يتبع الخطة التي رسمها دليل المعرض.

وإني معترف بأن الوصف لا يكفي مطلقًا لتصوير شيء عن حالة المعرض وما يحويه من العظمة والجمال والكمال، وأنصح لكل شخص عنده متسع من الوقت والمال يريد أن يقف تمام الوقوف على أحوال العالم وما أنتجته يد الإنسان وما استنبطه فكره من صناعة وتجارة وزراعة؛ أن يذهب لزيارة هذا المعرض الذي لا يسمح الدهر بمثله ولا يكتفي بالوصف، لأنه لا يشفي غلة ولا يصور حالة من حالاته وليس الخبر كالعيان.

(٥) حديقة هيدبارك

من أعظم الحدائق التي زرتها في سياحتي حديقة هيدبارك، فإنها منظمة الشوارع بديعة الترتيب والتنسيق، غُرِست على جانبيها الأشجار الباسقة ونُضِّدت في جوانبها المقاعد

الكثيرة التي أُعِدَّت للمتنزهين، تدور حول مظلة الموسيقى كراسي كثيرة بلون الخضرة، والجالس عليها يدفع بنسين. والإقبال على سماع الموسيقى كبير، وقد رأيت رجلًا وهو في حالة السكر يرقص على نغمات الموسيقى ويصيح بأعلى صوته فكان موضع أضحوكة المتفرجين، والشرطي لا يتعرض له. وكنت أظن أنه لا يوجد في بلاد راقية كهذه مثل ما يوجد عند عامة قومنا.

وقد غصَّت هذه الحديقة بالمتنزهين ما بين راكب وراجل، غير أني لاحظت أن عدة طرق يُمنَع فيها مرور السيارات لمجاورتها لمحل الموسيقى حتى لا يترتب على ذلك إقلاق راحة السامعين. وجميع أرضها مغطَّاة بالحشائش والأشجار الضخمة، التي تدعو الناس إلى الجلوس والنوم عليها تحت ظلها الوارف والتمتع بمرآها الجميل. والكراسي غُرِست أرجلها في الحشائش، فالجالس عليها ينظر من تحته الحشائش الخضراء ومن فوقه غصون الأشجار الباسقة، وتجد الأشجار ملتفة بعضها ببعض فتكوِّن شبه غابة. وفي الجهة القريبة من البحيرة يجتمع للتنزه فيها أهل الثروة واليسار، فإذا كان الجو صحوًا رأيت هناك منظرًا بديعًا، ورأيت سيارات متواصلة بها النساء متزينات بأفخر الملابس. ومنظر هذه الحديقة في أيام الصيف يسر النفس ويشرح الصدر لاجتماع الناس فيها بكثرة، وترى حولها دُور الأكابر والأعيان، وكثير من هذه القصور فخم جميل جدير بأن يُزار لمشاهدة ما فيها من آيات الفن والصناعة والزخرف والزينة.

وللناس فيها حرية كبيرة كما لهم في غابات بولونيا بفرنسا، وقد رأيت منها مناظر غريبة تنبئ عن حرية الإنسان الكبيرة وما يأتيه من الأمور المخجلة التي لا تنطبق على الذوق والمروءة والإنسانية، فإذا كانت الحرية لا تجعل الإنسان يحافظ على المميزات التي جعلها الله له فرقًا بينه وبين الحيوان الأعجم، فلا كانت تلك الحرية ولا سطع نورها على أحد. وبعد أن شنفنا أسماعنا بنغمات الموسيقى المشجية سرنا حتى وصلنا إلى بحيرة جميلة واسعة، تمخر بها الزوارق الكثيرة التي تحمل كثيرًا من الناس ويشاركهم في السباحة البط والبجع، ويهب منها نسيم عليل ينعش الأفئدة، وقد رُصَّت على شواطئها المقاعد الكثيرة الغاصة بالمتنزهين.

ولا يفوتني أن أذكر أن الاجتماعات فيها مباحة لكل شخص يريد أن يخطب في أي موضوع ديني أو سياسي، والشرطي لا يتعرض له مطلقًا.

فترى الاجتماعات قائمة فيها في كل ناحية؛ ذاك يطعن في دين من الأديان، وذاك يقبح رأي الحكومة، وآخر يحبذ دين محمد ويذم الأديان الأخرى، وآخر يرى العكس.

تمثال الملكة فكتوريا بلندن.

والحديقة محاطة بسياج من الحديد لها أبواب كثيرة لمرور الراجلين والراكبين، وقد علمت أن هذه الحديقة كانت قديمًا ملكًا لكنيسة وستمنستر وحولها بعض ملوك إنكلترا إلى غابة ترتع فيها الغزلان والتيتل يصطادها أيام تنزهه، ثم جُعِلت لسباق الخيل والمتصارعين وأقبل عليها الناس للرياضة وترويح النفس، ثم حُوِّلت إلى حديقة غُرِست بها الأشجار والأزهار والحشائش الجميلة حتى صارت أعظم متنزهات لندن.

ويفصل حديقة هيدبارك عن حديقة «جرين بارك» شارع متسع ومبانٍ غاية في الفخامة والجمال، ولها سور طويل سرنا بجواره مسافة طويلة يقصدها كثير من الناس كما يقصدون هيدبارك.

(٦) سوق الخضر

سرت في الجهة الشرقية من لندن فرأيت مباني ليست ضخمة ودكاكين ليس بها سلع غالية فعرفت أنه الحي الفقير بلندن، ووجدت محلًّا ينادي بجودة خضره ورخص ثمنه،

وقد كنت لا أعلم أن في بلاد متمدينة راقية ينادون كما ينادَى في أسواقنا فيعيبون علينا ذلك. وقد رأيت ازدحامًا شديدًا على باب حانوت ممتد على مسافة طويلة، فلفت نظري هذا المنظر الغريب وكل شخص يجتهد في الدخول فيه، وقد سألت عن سبب هذا الزحام فعلمت أنهم يزدحمون على محل جعة (بيرة) لرخصها فيه، فكلٌّ يجتهد ليحصل على قدح منها. وقد وجدت رجلًا ينادي بأعلى صوته أن معه آلة رخيصة الثمن جدًّا لسن السكاكين وثمنها ثلاثة بنسات، ومن لم يقتنع بصحة ما يقول فليقدم مبراته ليسنها له بهذه الآلة، فخُدِع صاحبي بقوله وقدم له مبراته فحطم حدها وجعلها غير حادة، فنظر إليه وقال له: هل يصح أن تكون كذابًا؟ فقال له بصوت منخفض لا يسمعه هذا الجمع الملتف حوله: أرجوك ألا تظهر ذلك أمام الناس. فوجد صاحبي نفسه أمام هذا الرجاء عاجزًا عن أن يبوح بشيء يخجل الرجل ويوقعه في اللوم أمام المجتمعين، فانصرفنا مستغربين لوجود أمثال هذا في بلاد اشتُهِرت بالصدق في معاملاتها.

وقد رأيت في الممالك التي زرتها كثيرًا من الدجالين والنصابين والمحتالين يسلبون دراهم الناس بغير حق، كما كنت أسمع أنه لا يوجد شحَّاذ في أوروبا فوجدت كثيرًا منهم فيها، وقد سمعت رجلًا في إنكلترا صحيح الجسم إلا أنه كفيف البصر ينادي بصوت ذليل منكسر ما معناه: «الدنيا فانية ولا يبقى إلا الإحسان»، على أنهم في الحقيقة قلائل جدًّا لا يُذكَرون بجانب من أراه في بلادنا من السيل الجارف المقلق للراحة من الشحاذين، الذين يضايقون المارة ويخجلونهم بكثرة إلحافهم في السؤال.

(٧) أخلاق الإنكليز وعاداتهم

إن ما رأيته من بعض أخلاق الإنكليز مع قصر مدة إقامتي في بلادهم لا يعطيني حكمًا صحيحًا عن أخلاقهم وعاداتهم، غير أنه يمكنني أن أعطي حكمًا تقريبيًّا عن بعض أخلاق وعادات تلك الأمة بقدر ما تسمح به الحالة.

رأيت في بعض من قابلناهم وعاملناهم أنهم ذوو آداب راقية، لا يظهرون الصلف ولا الكبر ولا يصعِّرون خدودهم للناس، مع أنهم لو فعلوا ذلك لكان لهم بعض العذر لقبضهم على نواصي أمم كثيرة وبسط سلطانهم عليها، ومع كل هذا فإذا سألت أحدهم عن شيء أجابك بلطف ورقة يجعلانك تميل إليهم وتود معاشرتهم، لا يكذبون ولا يراءون ولا يلبسون عليك الحق بالباطل (اللهم إلا في الأحوال السياسية).

يسيرون في الشوارع جادين في السير ليصلوا إلى محال أعمالهم، فلا يتلكئون ولا يجلسون على قهوات ولا في حانات إلا وقت فراغهم من أعمالهم في يوم خاص، ولم أرَ

قهوة في لندن مدة إقامتي فيها، كما أني لم أرَ جالسًا يتعاطى بعض الشراب إلا قليلًا جدًّا، بل يتعاطاه واقفًا أو جالسًا على كرسي عالٍ يساوي عارضة الرخامة الممتدة أمام البائع بحيث تكون رجلاه مرتفعتين لا تصلان إلى الأرض. وترى عليهم مظاهر الفضيلة بين رجال ونساء وفتيات، ولذا لا تجد للتبرج والزينة مكانًا عندهم، ولا يستعملن الأصباغ ولا التثني في السير كما تفعل النساء الفرنسيات. صادقين في معاملاتهم يحتقرون الكذاب احتقارًا مزريًا مشينًا.

ولقد قص عليَّ أحد أصدقائي أن رجلًا عظيمًا من المصريين ذهب لزيارة إنكلترا وكان معه لفافات تبغ مصرية وهي ممنوعة الدخول عندهم إلا بمكس كبير يُؤخَذ عليها، فلما مر بالمكس وسُئِل هل معك ما يصح أن تدفع عليه شيء كما هي العادة عندهم، فأجاب: كلا، مع علمه أنه يُؤخَذ عليها مكس كبيرة، فلم يتعرض لتفتيشه أحد، فلما نزل في أسرة أخرج لهم بعض تلك اللفافات وقدمها لهم فسُرُّوا منها كما هي العادة عند الغربي إذ يُسَر جدًّا لتدخين اللفائف المصرية، بل هي أكبر واسطة للتعارف، فسألوه: كم دفعت عليها في المكس؟ فأجاب بقوله: إنهم سألوني عنها فأنكرتها، فكان ذلك أكبر سبب لإظهار الاحتقار له وإعراضهم عنه وبعدهم عن حديثه، فاضطُرَّ إلى اللحاق بأسرة أخرى لا تعرف عن كذبه شيئًا.

فانظر — يا رعاك الله — إلى تلك الأخلاق الفاضلة، والصدق أس الفضائل فإذا صدق الإنسان في معاملاته تلاشت بقية الرذائل الأخرى.

وقد نزل معنا في فندقنا شاب إنكليزي أتى من الريف ليرى معرض «ومبلي» ولم يكن قد رأى لندن قبل هذه المرة، فأخبرنا أنه دُهِش للحركة فيها، ومع أنه ريفي كان غاية في الأدب ورقة الحديث، مما جعلنا نعجب به ونكبره في نفوسنا، ومعرفته أننا مصريون لم تغير من رقة طباعه وحُسن حديثه، بل كان يظهر التلطف والود لنا، وكان يود أن يصحبنا في غدونا ورواحنا ولكن أغراضنا كانت تخالف أغراضه فلم نتفق معه.

وقبل أن أختم رسائلي عن لندن يجمل أن أذكر عبارة عن أخلاق الإنكليز وعاداتهم عن أحد المؤرخين الشرقيين الذين زاروا إنكلترا حديثًا، قال:

> إن أول خلة يراها القريب من الجمهور العامل من أهل الحرف والصنائع ويلحق بهم الفلاحون، عدمُ اكتراثهم له ونفورهم منه فلا يفرحون لفرحه ولا يحزنون لحزنه، بل لا يُعنَى أحد منهم بشأن جاره ولا يهمه أمر غير أمر نفسه، فكل ذي حرفة يشتغل بحرفته طول يومه ولا يتطلع إلى معرفة شيء غيرها،

فالفلاح لا يعرف شيئًا إلا ما آل إليه الحرث والزرع والدرس، والقين لا يدري ما يحدث في بلاده سوى ما يختص برواج سعر الحديد أو كساده ... وهلم جرًّا، وهذا هو السر في نجاح أعمالهم.

ومن طبعهم أنه لا يتزاورون كثيرًا ولا يسمر بعضهم عند بعض، ويقومون صباحًا في الساعة الرابعة، وإذا اجتمع المتعارفان منهم وتساءلا فلا بد أن يبتدئ أحدهم بوصف الجو وصحوه أو برده، ثم يخبره بما عرض له من وجع في كتف أو في رجل أو اختلاج في عين، فيقول السامع: يحزنني ذلك جدًّا. ولا يكاد أحدهم يضحك ضحكًا طبيعيًّا، وإنما هو عبارة عن قهقهة ثم يعقبها الكتم والعبوس. ومن طبعهم أنهم لا يحترمون الشيخوخة من حيث هي شيخوخة، ولا يهاب الأولاد والديهم ولا يحنُّ الوالدون على أولادهم كما هو الحال عندنا.

ومن عادة العامة الملاكمة ويقال لها «البوكس»، وقد كانت سابقًا بمنزلة الملهى في اجتماع الناس للتفرج عليها، وفي أواخر القرن الماضي كانوا يتعلمونها في المكاتب.

ومن طبع الإنكليز عمومًا التهافت على الشهرة والنباهة بين أقرانهم بأي سبب كان، ولا سيما في أسباب العلوم والمعارف.

ومنهم من يعتقد بالطِّيَرة والتفاؤل، وظهور روح الميت عند قبره، وهذا الوهم فاشٍ حتى عند عامة سكان المدن.

ومن عادة النساء إذا كلمن أحدًا من الخاصة أن ينحنين له عند كل سؤال وجواب، وعادة الغلمان أن يضعوا أيديهم على رءوسهم، وكذا هي عادة الخادم مع مخدومه عند كل سؤال وجواب. وإذا خاطبوا أحدًا بكلام توبيخ وغيظ قالوا له «سير» بمعنى سيد، حتى إنهم يقولونها عند طردهم كلبًا أو نحوه فيقولون: «اخسأ يا سيدي»، ويستعملونها أيضًا لتعظيم المخاطب وإجلاله. والرجل يقول عن زوجته «معلمتي» والمرأة تقول عن زوجها «معلمي»، وإذا خاطب أحد الخاصة زوجته بلفظ «مدام» كان ذلك إشارة إلى تنافرهما، فخطاب الرضى هو أن يقول لها «يا محبتي» و«يا عزيزتي»، وربما قالوا «يا قلبي»، وأما «يا روحي» فلا تكاد تُعرَف عندهم.

وإذا دخلت على إنكليزي أراك أنه مشغول عنك بما هو أهم من الزيارة وسألك أن تسرع في عرض حاجتك، وعند انصرافك ينهض قائمًا ويرافقك إلى

الباب، وليس عند الإنكليز فضول وتكليف على الدخيل فيهم بل ولا على من هو منهم، فلا يرونه في غير وقت الزيارة ولا يتعرضون لما يأتيه، ولا تجد خادمًا يطعن في مخدومه أو خادمة تعيب مخدومتها وإن كانا في شقاء.

وإذا نبغ فيهم إنسان في فن أو صناعة لم يجد من يتصدى لتجهيله أو تخطيئه فلا يُحسَد ولا يُبخَس حقه، بل يجد من ينشطه وييسر له أسباب العلم. ومن عاداتهم حُسن الترتيب والتدبير في الأشغال والمصالح والتوقيت للعمل، فلكل شيء عندهم وقت ولكل وقت شغل فإذا اتفق أن زارهم أحد في وقت الشغل لم يتحاشوا أن يقولوا له: أنسنا بك، ولكن علينا قضاء ما لا بد من المصالح فلا تؤاخذنا وزرنا في يوم كذا، فينصرف عنهم عاذرًا لا عاذلًا.

ومن الخصال المحمودة الحرص على ما يُؤتمَنون عليه، حتى إذا استرجعته بعد سنين أعاده عليك كما تسلمه، بل ربما أزال عنه الوسخ ورده إليك نظيفًا وقال لك وهو معتذر: قد تجاسرت على أن أزلت الوسخ، وأرجو أني لم أسئ فيما فعلت. وينضم إلى ذلك احترامهم للرسائل فلا يفتح أحدهم كتابًا باسم غيره، وإذا زارك منهم زائر فلا يمد يده ولا طرفه إلى ما بين يديك من الصحف، فإذا أراد أن ينظر في كتاب لم يمسه إلا بعد أن يستأذنك.

ومن عاداتهم تنشيط أولادهم على الأشغال وتمرينهم على ما يكسبهم وإياهم الرزق الكافي والمواظبة على الأعمال والصبر على ما يتعاطونه جل أو حَقُر، ولا يقول أحدهم: «إني كبرت عن تعلم شيء» فلا يزالون دائبين كالنمل ما دامت فيهم نسمة تتحرك. ومن أراد أن يكرم نفسه عندهم فليظهر لهم أنه مستغنٍ عنهم ولا يعرض لهم في طلب شيء، وبناء على ذلك يصاحبون من يصاحبون أيامًا وشهورًا وسنين، ولا يسألونه عن مقدار دخله وخرجه ولا يريدون أن يسمعوا ذلك منه إذا ذكره.

ومتى وثق أحدهم بإنسان وعرف منه الجد والأمانة والاستقامة، يأتمنه على زوجته وبناته فيذهبن معه ليلًا ونهارًا بلا مانع. ومن يحضر إلى بلادهم بوصاية من عند معارفهم احتفلوا به وعدوه منهم، وصموا آذانهم بعد ذلك عن سماع ما يقال فيه من الذم.

ومن عاداتهم خطاب خَدَمتهم بالرفق واللين وإن أظهروا عليهم العجرفة، فالمخدومة تقول لخادمتها: «هاتي ذلك الشيء إن أعجبك»، وبعد أن تأخذه

منها تشكرها، وربما تباخلت عليها في الأكل والشرب وأرضتها بمثل هذا الكلام الطيب.

ومع هذا الرفق والملاطفة فلا تزال المخدومة متباعدة عن الخادمة ومظهرة لها فرق المقامين، وإذا غضبت عليها فلا تكلمها بكلام يشف عن سفاهة وخروج عن حد الأدب.

انتهى ملخَّصًا.

في العودة إلى باريس

بعد أن زرنا المعرض وجلنا في بعض شوارع لندن وزرنا ما أمكننا زيارته من المتاحف الآثار، اعتزمنا العودة إلى باريس لنمكث فيها عدة أيام لترويح النفس من وعثاء السفر ثم إلى وطننا العزيز، فقصدنا محطة فكتوريا الواسعة الكبيرة التي مر وصفها، وركبنا القطار الذي يقلنا إلى مدينة نيوهافن حيث الباخرة تنتظر المسافرين إلى فرنسا، فأخذ ينهب الأرض نهبًا تارة ينخفض وأخرى يصعد بنا فوق تلال ورواب عالية وطورًا يدخل في نفق، حتى وصلنا بعد ساعة ونصف ساعة إلى نيوهافن. ولا أعيد على القارئ وصف ما مررنا به من نضرة الطبيعة وجمالها الفتان وما يتخللها من جبال وأغوار وأشجار، وما فيها من أنفاق يغيب فيها القطر آونة ويظهر أخرى. وقبل أن ننزل من القطار تسلمنا ورقة بيضاء يكتب كل واحد اسمه فيها باللغة الإنكليزية، وحين مرورنا إلى السفينة أُخِذت منا ورقة أخرى خضراء قدمناها إلى الواقف على سلم الباخرة فسمح لنا بالدخول، ولم أجد محلًا أجلس فيه لكثرة المسافرين فرجوت أحد خَدَمة الباخرة أن يحضر لي كرسيًّا أجلس عليه لأني لا أقوى على الوقوف مدة السفر، فلبى طلبي فأعطيته شلنًا نظير ذلك. ثم أقلعت بنا السفينة الساعة الثانية عشرة صباحًا، وكان الجو في ذلك اليوم متلبِّدًا بالغيوم والريح صرصرًا عاتية، والمطر ينسكب منذرًا بالويل والثبور وعظائم الأمور، والبحر هائج مضطرب، ولذا داخلني الرعب والخوف لهذا الإنذار المرعب.

وبعد أن فارقت السفينة الشاطئ أخذت تلاعبها الأمواج لعب الصوالج بالأكر وأصبح الجو أسود قاتمًا، والأمطار زاد انسكابها حتى غمرت سطح السفينة وتسرب الماء إلى الحقائب وأمتعة الركاب، مما أدخل الرعب والفزع في قلوب المسافرين، وأصبح كل منا لا يقوى على القرار فوق سطح السفينة يترنح الجميع ترنح السكران تبعًا لاهتزازها القوي العنيف، ولا يقوى أحد على الوقوف ولا على الانتقال قدمًا واحدة، بل كل من أراد ذلك

يميل يمنة ويسرة ولا يلبث أن يقع أو يصطدم بحاجز من حواجز السفينة، فأخذني الدوار والغثيان مما جعل قلبي يكاد أن يتمزق، واعتقدت أني لا أفيق من هذه الشدة مع أنه لم يلحقني دوار مدة سفري في البحر إلا قليلًا، وما كنت أعلم أن الدوار يكون بتلك الشدة.

وفي بادئ الدوار كانت تجلس بجواري سيدة فأخذت تبتسم وتشدد عزمي وتطلب مني أن أكون أثبت جأشًا، ولكن ما لبثت أن اضطربت وظهر على وجهها الشحوب والاصفرار ثم أخذها الغثيان الشديد حتى تخيلت أنها قذفت خشاشة نفسها، وكان كل شخص منا أمامه وعاء لما عسى أن يحدث مثل ما حدث لنا. وهكذا صار أغلب حال الركاب، وازداد الخطب وعم الفزع والهياج حين اشتد اضطراب السفينة وتعالت الأمواج حتى كادت تعلوها، وأخذ النوتية يهدئون روع المسافرين وما يزيدونهم بهذا إلا اضطرابًا وخوفًا وفزعًا.

وقد كنت أُخبِرت أن سفينة منذ أسبوع جنحت بركابها في هذا المضيق من شدة الأنواء والأمواج، فاعتقدت أن سفينتنا لا تنجو من هذه الأمواج الهائلة فتلحق بأختها فأدركني الجزع والوهن، فانكفأت على حاجز من الخشب وأسندت رأسي عليه مطبقًا عينَيَّ حتى يذهب عني الدوار ولا أرى السفينة التي أصبحت فريسة في يد الأمواج تقلبها كيف تشاء.

كريشة في مهب الريح طائرة لا تستقر على حال من القلق

حتى كنت أتخيل أن كل موجة تشق لنا وسط المضيق قبرًا ولكنها لا تلبث أن تعلو ظهرها، فكنا بين يأس ورجاء وأخذ كل يفكر فيما ستئول إليه حالته، حتى لاحت لنا من بعد شواطئ فرنسا فحمدنا الله على السلامة ونجاتنا من هذه الكارثة العظمى والمصيبة الدهماء، وبعد وصولنا وجدنا كثيرًا من أهل دييب منتظرين على الشاطئ يهنئون الركاب بالسلامة من هذا النوء الشديد، وقد علمنا أن هذا الإعصار قد خرب جزءًا من شواطئ مدينة دييب، وهذا المضيق الذي لاقينا به تلك الشدة معروف أنه شديد الاضطراب تتعالى أمواجه وتجعل السفر فيه من أصعب الأمور وأشقها، فإذا جاءت الأمواج من البحر الواسع انحصرت فيه لضيقه وعلت بسبب اضطرابه وهيجانه، ولذا كان الدوار فيه لا يُوصَف، ويظن المسافر فيه في كل لحظة أن السفينة ستهبط إلى مقره لكثرة ارتفاعها وانخفاضها وميلها يمنة ويسرة.

وكثيرًا ما عرضت الشركات أن تبني نفقًا تحت مضيق المنش يوصل إنكلترا وفرنسا، لتسهل المواصلات بينهما وتُنجَز الأعمال بسرعة؛ فلم تقبل الحكومة الإنكليزية ذلك لأنه

يفقدها مزية كونها جزيرة في البحر محصنة تحصينًا طبيعيًا، لأنها محاطة بالمياه من كل جانب تحميها البوارج الحربية الكثيرة القوية.

وبعد أن وصلنا ونزلنا من السفينة وجدنا القطار المسافر إلى باريس في انتظارنا فركبناه وسار بنا، وأنا أهتز كأنني لا أزال في السفينة لأن التعب أخذ مني مأخذه مدة ثلاث ساعات متواليات.

وقد فاتني الغداء ولم أشعر بجوع، ومع ذلك فإني قصدت حجرة الأكل في القطار وتكلفت تناول الشاي والبسكوت فلم أشعر بلذة ولا طعم، فتركته بعد أن دفعت ثمنه سبعة فرنكات (بالقطع الفرنسي)، وسار بنا القطار يطوي الأرض طيًّا حتى وصلنا الساعة السادسة والنصف مساء، وبذا نكون قد قطعنا المسافة بين إنكلترا وباريس في ثماني ساعات، وقد امتنعت عن تناول طعام العشاء هذه الليلة لشدة ما لحقني من التعب.

ثم مكثنا في باريس عدة أيام امتنعت فيها عن زيارة المتاحف والآثار وتقييد المذكرات حتى أعطي لنفسي بعض الراحة لتستعيد قوتها.

واقتصرت على زيارة بعض إخواني المصريين هناك، وخاصة قنصل مصر في باريس والسفارة المصرية لأتسلم منها خطاباتي لأني جعلتها محطًّا لها قبل حضوري إليها وبعده، وكانت باسم صاحب العزة المهذب عبد السلام بك الجندي فكانت أشهى أيام لديَّ لرؤية أهل باريس وحسن جمالهم وما هم فيه من الأفراح الدائمة والحظ الوفير، وتهافتهم الكبير على انتهاز السرور والملذات كأن البؤس لم يطرق لهم بابًا. وبعد أن انقضت تلك الأيام اللذيذة التي كأنها أحلام نائم اعتزمنا السفر إلى مرسيليا ومنها إلى جنوة لنبحر منها إلى وطننا المفدَّى، بعد أن تركت تلك المشاهد والمناظر القريبة في نفسي أثرًا لا يُمحَى لا يدرك حقيقته إلا من زار تلك البلاد وقصد أن يرى ما فيها، ليعرف ما عند القوم من كل تليد وطريف من الآداب والمجتمعات والمناظر والتحف والآثار.

من باريس إلى مرسيليا وجنوة

كنا قد أخذنا جواز الرجوع من محل كوك في رومة، فلما أردنا العودة ذهبنا إلى محله بباريس لنعلم منه ما تم في حجز محال لنا بالباخرة التي أردنا الرجوع فيها إلى مصر فلم يكن عند موظفيه علم بها، فقال المدير: سأسأل محلنا في رومة وأخبركم بما يتم، فأخبرناه بعزمنا على زيارة معرض «ومبلي» فأخذ عنوان فندقنا بباريس، فلما رجعنا من إنكلترا وجدنا خطابًا منه غاية في الرقة وحُسن الأدب والذوق يخبرنا فيه بالباخرة التي تقوم من جنوة في التاريخ الذي اخترناه وأرقام حُجَرنا، وختم خطابه بقوله: «إنني رهن خدمتكم وأنا عبدكم الخاضع المطيع.»

أخذنا الخطاب باسم السفينة وأرقام حجرنا وأقمنا بضعة أيام بباريس، ثم يممنا محطتها لنركب القطار الذي يقوم منها الساعة الثامنة صباحًا، فسار بنا وأخذ كل منا ناحية لينظر ضواحيها وهو ناءٍ عنها، فأشرفتُ من إحدى نوافذه لأرى فرأيت ما يسر النفس ويشرح الصدر؛ مزارع نضرة، وبساتين أنيقة، وحيوانات ترتع في المراعي الواسعة مع الطيور الداجنة.

وقد يسرك منظر أطفال الفلاحين وهم يركضون وينبطحون على بطونهم فوق ذلك البساط السندسي الجميل، ومنازل الفلاحين هناك مشيدة على نظام صحي مبعثرة وسط المزارع والحقول، تحيط بكل منزل حديقة جميلة مؤلَّفة من طبقة أو طبقتين، مغطاة سطوحها بالطوب الأحمر وهو نظام سطوح جميع منازل أوروبا، لتتنزلق الأمطار الكثيرة عنها إلى الأرض.

والقطار يقطع المسافة بين باريس ومرسيليا في نحو اثنتي عشرة ساعة، في ارتفاع وانخفاض وأنفاق وجسور فوق أنهار ووديان ومروج غاية في الإبداع وجمال المنظر لا يمل الناظر رؤيتها. وبعض المنازل تغطَّى سطوحها وجوانبها بالخضرة والأزهار، تحفك الجبال الشامخة المكسوة سفوحها بجميل الأشجار فترى عظمة الجبال وعلوها.

ومما يزيدك غرابة اشتراك المرأة مع زوجها في زرع الحقل وحفظه ورعي الأنعام وقيامها بالتطريز أثناء ذلك، وما كنت أظن أن المرأة في غير بلادنا تشترك مع زوجها بهذا القدر والأجانب يعيبون علينا اشتراك الفلاحة المصرية مع زوجها في مثل تلك الأحوال.

وترى كذلك الغياض الجميلة وجداول المياه المتسربة من الأمطار تدب دبيب الثعابين بين تلك المزارع، وترى بحيرات صغيرة تحفها المنازل والمزارع.

وقد أخذ القطار يجدُّ في السير في تلك المناظر من الوديان والروابي والجبال حتى أشرفنا على مدينة ليون العظيمة، وهي مدينة كبيرة يشطرها نهر الرون شطرين عظيمين، مشيدة على رواب عالية، مبانيها من أضخم مباني المدن التي رأيتها، محطتها واسعة جدًّا يدخلها عدة قُطُر ولها عدة خطوط إلى جهات كثيرة، وللمدينة ضواحٍ جميلة.

والطريق من ليون إلى مرسيليا لا يختلف كثيرًا عن المناظر السالفة الذكر، إلا أنها قليلة الخصوبة وبها تلال وجبال جرداء صماء.

وبعد أن قام القطار من ليون أخذ ينهب الأرض نهبًا لا يقف إلا بعد ساعات، وقد يُخيَّل لي أنه لم يقف بين باريس ومرسيليا إلا أربع مرات مع أن المسافة بينهما أكثر من اثنتي عشرة ساعة. وقد لاحت لنا مدينة مرسيليا إذ كانت الساعة التاسعة مساءً، فرأينا منظر الأنوار المتلألئة تأخذ محاسنها بمجامع القلوب، وكلما تقدم القطار إليها غمرتنا أنوار المصابيح حتى وصلنا إلى محطتها الساعة التاسعة والنصف مساءً.

ولما نزلنا في محطة مرسيليا سألنا عن القطار الذي يقوم إلى مدينة جنوة، فأُخبِرنا أنه يقوم الساعة الواحدة والثلث صباحًا فاعتزمنا السفر فيه فأودعنا حقائبنا في مخزن الأمانات، ونزلنا في المدينة لتناول العشاء ولنرى بعض شوارعها ومنازلها وحركة الناس فيها. وبعد أن أكلنا واسترحنا قليلًا سرنا في الشوارع، فرأينا القهوات الواسعة غاصَّة بالنساء اللاتي يزدن عن الباريسيات في تبذلهن حاسرات عن أقفيتهن وصدورهن وسواعدهن بحالة تخجل الناظر إليهن، ولم يكفهن ذلك بل يتعرضن لبعض المارة ممن يلوح عليهم أنهم غرباء.

وقد رأينا حركة الناس في الشوارع ليلًا كبيرة، وقد أدى بنا المطاف في الشوارع إلى عدم الهداية إلى الطريق الموصل إلى المحطة فسألنا عنها، فأرشدنا بعض الناس إرشادًا غير كافٍ وكانت الساعة إذ ذاك الثانية عشرة ونصف، وبذلك سرنا على غير هدًى فاخترقنا شوارع عدة ظهر الفجور فيها بأجلى معانيه فالنساء فيها يعترضن المارة ويمسكن بهم، ولذلك هلعت قلوبنا وخفنا خوفًا شديدًا أدى بنا إلى الإسراع في السير بل إلى الهرولة ثم إلى الركض خوفًا من لحوق الأذى بنا كما توهمنا ذلك، حتى وصلنا إلى الشارع الموصل إلى المحطة بعد أن تصببنا عرقًا، وحمدنا الله على نجاتنا من هذه المصيبة العظمى. ولقد سألنا عن كثرة النساء وتبذلهن في مرسيليا، فأُخبِرنا أن المواني تكثر فيها مثل هذه الأحوال خصوصًا مرسيليا فإنها مشهورة بذلك.

ولما وصلنا إلى المحطة تسلمنا حقائبنا من المخزن وسلمناها إلى رجل من الموظفين فيه ليحضرها لنا وقت مجيء القطار مقابل رضيخة (بقشيش) وكذلك فعل، فلما جاء القطار وركبناه قام بنا في موعده، ومن حُسن الحظ أن حجرتنا لم يكن بها أحد فحمدنا الله على ذلك، لأن السفر طويل يحتاج إلى راحة.

سار بنا القطار ونحن بين النوم واليقظة، ولم تغتمض عيناي لأني أُخبِرت أن في هذه المسافة التي نقطعها ليلًا اجترأ لصوص على المسافرين وقتلوا بعضهم وسلبوا أمتعتهم، فاستعصى النوم عليَّ حتى لاح الفجر فظهر شاطئ البحر والأشجار تحفه والأمواج تنبسط مياهها على بساط من الرمل فيتجعد، فلزمنا النوافذ وإن كان البرد شديدًا لنرى حُسن الطبيعة وجمالها الفتان الذي جعلنا نسبح الله الواحد القهار الذي أحسن كل شيء خلقه.

وما زلنا نشاهد الطبيعة وجمالها، والجبال الشامخة وعلوها، والأشجار الباسقة وارتفاعها، والمنازل البديعة وحُسنها، والحدائق وأزهارها، وشوارع المدن ونظافتها ونظامها، حتى أرسلت الغزالة أشعتها الذهبية على سطوح المنازل الحمراء تغمرها الحدائق الواسعة الغناء.

وقد كنت أسمع بجمال ساحل الريفييرا وتجلي الطبيعة فيه بحسنها وجمالها، فتشتاق نفسي لرؤيته ولو في المنام حتى رأيته رأي العين، رأيت جماله الساحر الباهر تجلت فيه آيات القدرة الإلهية والعظمة الربانية، يقف الإنسان أمام مناظره حائرًا لا يدري ماذا يقول في إبداع الخالق مهما أُوتِي من الفصاحة وقوة البيان، لأن وصفه فوق مقدور الإنسان.

يسير القطار في هذا الساحل متعرجًا تابعًا ساحل البحر في الدخول والخروج، فكان البحر والشاطئ عن يميننا والجبال الشامخة المكسوة بالأشجار والمنازل بحدائقها فوق الروابي وسفوح الجبال عن يسارنا، فلا ندري أإلى اليمين ننظر حيث البحر والأمواج المتكسرة على الشواطئ أم إلى اليسار حيث الجبال الشامخة والأشجار الباسقة، فحرنا بينهما كما يحار الإنسان في اختيار أحد شيئين جميلين، فوقفت بين النافذة وباب الحجرة ألقي نظري إلى اليمين تارة وأخرى إلى اليسار، حتى وصلنا إلى مدينة نيس الجميلة كثيرة الحدائق والمنازل البديعة المشيدة فوق الجبال وسفوحها، ترى الفنادق فوق قنن الروابي وقد نُظِّمت الطرق الموصلة إليها وغُرِست على جوانبها الأشجار مشرفة على البحر من بُعد لعلوها الشاهق، تعطي منظرًا بديعًا يملأ العين نورًا والقلب سرورًا.

وقد اخترقها القطار في سيره فشاهدنا أحسن ما اكتحلت بمرآه العين من المناظر التي لهج الناس بذكرها، وقصد التنزه فيها القريب والغريب لجودة هوائها وجمال مناظرها.

ولبث القطار يحاذي الشاطئ تارة ويمر في نفق تارة أخرى وهنا ننغمس في ظلام حالك يخيف، لكننا لم نكترث به ولم نفزع له بعد أن مررنا في أطول نفق بين إيطاليا وسويسرا. ثم لاحت لنا مدينة موناكو الشهيرة بمبانيها الفخمة وجبالها الشامخة وفنادقها الواسعة، ولم نلبث إلا قليلًا حتى ظهرت مدينة «مونتكارلو» التي يعجز القلم عن وصفها وجمالها وحُسن موقعها وفخامة فنادقها لأنها مصيف لأغنياء العالم، يقصدها السقيم والصحيح فالأول يستشفي بهوائها والثاني يتمتع بجمال مناظرها وحُسن موقعها، لأن جزءًا كبيرًا منها مشيد على جبل ملتوٍ داخل في البحر فيكوِّن لسانًا شُيِّدت المنازل على قُنَّته وسفحه فتشرف على البحر من ثلاث جهات، والجزء الآخر مشيد على الروابي أيضًا تعمر منازله الحدائق الواسعة. وهذه المدينة ومناظرها تشبه كل الشبه مناظر سويسرا وجمالها الطبيعي، وقد وقف القطار بنا فيها مدة طويلة فمتعنا النظر في غضونها بجمال الطبيعة، وعرفنا السر في أنها محط رجال الثروة والخلاعة، يقصدها الناس من جميع أنحاء العالم يفضلونها على كل مدن فرنسا حتى باريس، وهي مشهورة بأنها مركز مقامري العالم يدخلها المثري مملوء الحقائب والجيوب فيخرج منها خالي الوفاض بادي الأنفاض، فيفضل أن يخرج من دنياه على أن يبقى فيها يتجرع كأس الندم ويعض بنانه أسفًا وحسرة على ما فات، يرى نفسه فقيرًا مُعدِمًا بعد أن كان غنيًّا مثريًا، وقد انتحر فيها كثير من الرجال العظام الذين يفضلون الموت على العار، والغانيات الفاتنات اللائي يحضرن إليها ليصدن الأغنياء لا يلبثن أن يقعن في شراك القمار فيفلسن بعد الغنى

والثروة فيفضلن الانتحار، وقد أُخبِرت أنه انتحر فيها أكثر من ألف من الرجال والنساء، وهنا تذكرت قول الشاعر المجيد نجيب الحداد:

لكل نقيصة في الناس عار　　وشر معايب المرء القمار
تشاد له المنازل شاهقات　　وفي تشييد ساحتها الدمار
يصيب النازلين بها سهاد　　فإفلاس فيأس فانتحار

وبعد أن فارقناها سار القطار مسرعًا حتى وصلنا إلى حدود إيطاليا الساعة الثامنة والنصف صباحًا، فعرضنا حقائبنا على مركز التفتيش كما هي العادة في حدود الممالك، وطلبوا منا أجوزة السفر فسلمناها لهم فعلَّموها بما يفيد السماح لنا بالمرور، كما علَّموا الحقائب بالطباشير حتى لا يتعرض لها أحد بعد ذلك.

وقد ركبنا القطار فسار بنا في مثل المناظر السالفة الذكر، إلا أنه أكثر من دخول الأنفاق وهنا شعرنا بتغير الجو فجأة وانقلب البرد إلى حر ونزعت الشمس برقعها الذي كانت محجبة به في فرنسا وإنكلترا وأرسلت أشعتها الحارة التي كنا نتمناها هناك، كما أننا شعرنا بثقل ملابسنا التي كانت لا تغني عن البرد شيئًا في جو فرنسا وإنكلترا المطرَين.

وقد كنا نسينا الجو الحار فلم نفكر مطلقًا في أن نشعر بحرارة في جو إيطاليا ومصر، كما ينسى الإنسان في الشتاء حر الصيف.

وقد تغير سير القطار تغيرًا كليًّا، فأصبح بعد السرعة الهائلة يسير بطيئًا يتلكأ في كل محطة صغيرة وكبيرة، إذ يركبه المستحمون في البحر ليصلوا من محطة إلى أخرى قريبة منها، فشعرنا بالمضايقة الشديدة بعد هذا السفر الطويل وإن لم يكن مملًّا، وسار القطار على هذا النحو حتى وصلنا إلى مدينة جنوة في إيطاليا بعد سفر إحدى وثلاثين ساعة لم يتخللها إلا انتقالنا من قطار إلى آخر.

(١) مدينة جنوة

هي مدينة ليست كبيرة ولا ضخمة البناء ولكنها جميلة، أكثرها مشيد على تلال ومرتفعات، فالمنازل على هيئة مدرج عجيب من أسفل الجبل إلى أعلاه، فترى حدائق المنازل كأنها معلقة في السماء يُصعَد إليها بدرجات حُفِرت في الجبل متعرجة حتى يسهل الصعود

فيها، فترى لها منظرًا شيقًا جميلًا، وقد صعدت في إحداها فسرت مسافة طويلة حتى تعبت ولم آتِ إلى آخر البناء ففضلت الرجوع على المضي، وكلما صعدت نحو مائة درجة أو أكثر تنتهي بشارع كبير به منازل جميلة وحوانيت عامرة، ومن هذا الشارع تبتدئ درجات سلم آخر تنتهي بشارع آخر، وهكذا حتى يصل الإنسان إلى أعلى بناء شُيِّد فوق القمة، ومن هناك تشرف على منازل جميع جنوة، وجل منازلها على هذا النمط. وقليل من شوارعها مستقيم، فهي تشبه شوارع نابلي في ارتفاعها وانخفاضها، وكلها عامرة بالدكاكين، والحركة بها كبيرة، ويقطع هذه الشوارع أزقة ضيقة منخفضة عن سطح الشارع ينزل إليها الإنسان بعدة درجات تشبه الأزقة القديمة عندنا، إلا أنها نظيفة مرصوفة جميعها بالأحجار، وفي بعض ميادينها تقام سوق الخضر صباحًا فيفد إليها الفلاحون يحملون الخضر والفاكهة وينادون بجودتها وحسنها بأعلى أصواتهم وهنا يقبل عليها الشارون، وقد لاحظت أن القوطة عندهم تُسوَّى بالفاكهة لارتفاع ثمنها.

ولاعتراض الهضاب للشوارع حُفِرت بها أنفاق، بعضها خاص بمرور الناس والبعض الآخر خاص بمرور المركبات الكهربائية. ويحرس هذه الشوارع جنود الفاشست، في كل مسافة صغيرة شرطيان متلازمان لا يفترقان كأنما شُدَّا بحبل، وكلهم شبان يلبسون ملابس سوداء بشريط أحمر على الجنب كما يلبس ضباط البوليس عندنا، والسترة مصنوعة على هيئة «ريديجود» مشقوقة من الخلف، يلبسون قبعة منحنية إلى الأمام، لها طرفان ممتدان من الجانبين، وُضِع في مقدمها تاج، يحملون السيوف والمسدسات، فلفت نظري كل هذا النظام الخاص فسألت عن حكمة المصاحبة والتسليح، فعلمت أنهم يخافون من مهاجمة الاشتراكيين على غرة. وفي مفارق الطرق العامة تقف جنود تخالفهم في الملابس وفي كبر السن وضخامة الأجسام، لا يحملون سلاحًا مطلقًا، ولم أعرف السبب في ذلك.

وعلى الجملة فمدينة جنوة لطيفة جميلة، يصح أن تكون مصيفًا حسنًا لجودة هوائها، ولتشييد بعض منازلها فوق الجبال والهضاب، وأهلها على جانب كبير من الهدوء والسكينة، ليسوا كأهل نابلي في شراسة الأخلاق. ولما وصلنا إلى جنوة الساعة الثانية والنصف بعد الظهر نزلنا في فندق جميل أمام المحطة، فتغدينا فيه وخرجنا لنرى بعض متاحف المدينة وشوارعها، فسرنا حتى وصلنا إلى متحف صغير يُسمَّى «بنجوه»، فيه صور بديعة تمثل حالات حربية ودينية وسياسية كلها غاية في الغرابة وجودة الرسم والتمثيل، سقفه مطلي بالذهب مزخرف ومزين بأبدع زينة، ومن بين هذه الصور صورة ملكة مصر كليوبترا حاسرة عن بطنها وثدييها وقابضة بيدها على ثعبان فمه في حلمة ثديها وهي في

حالة غيبوبة شديدة تمثل الهلع والجزع والألم، فكان المنظر مؤثرًا، خصوصًا من يتخيل عظمتها وأبهتها في ملكها وما لعبته من الأدوار مع أعظم رجال السياسة والحكم في رومة، وما كانت فيه من العز ورفعة الجاه حتى كانت تُحمَل على الأعناق في الشوارع فتُرمَى بالأزهار والرياحين من جميع النوافذ، وما أعقب ذلك من خِذْلانها وأفول نجمها في شباب حكمها. ثم خرجنا منه إلى زيارة [كنيسة أوتو نسيانه].

(٢) كنيسة أوتو نسيانه

هذه الكنيسة لها مدخل فخم بسلم عريض تدل على العظمة، مقامة على أعمدة من الرخام الأبيض الجميل وعلى حنايا كثيرة، ولها دواخل كثيرة في الحوائط رُسِم فيها عدة صور مختلفة تشير إلى أحوال دينية قديمة، أو تمثل حالة العذراء ومعها السيد المسيح وهو صغير أو صورته وهو مصلوب والدم يسيل من رجليه. ولها مذبح غاية في الجمال والزخرف والزينة، نُصِبت أمامه الشموع المتقدة ليل نهار. سقفها مموَّه بالذهب الوهاج من أبدع ما رأيته في الكنائس التي زرتها، مرصوفة أرضها بالرخام الأبيض. وهي ليست كباقي الكنائس في الكبر والاتساع، إلا أنها من أعظمها أبهة وزينة.

وفي اليوم الثاني من حلولنا بجنوة أصبحنا قاصدين ميدانها العظيم فأدى بنا السير في الشوارع والتفرج على البضائع وحركة الناس ومراقبة أحوالهم، إلى ميدان فسيح فيه تمثال أحد ملوكها الأبطال «فكتور عمانويل» يمتطي جوادًا فوق قاعدة من الرخام الجميل ماسكًا قبعته بيده، وهو الملك الذي سعى في توحيد ممالك إيطاليا وجعلها مملكة واحدة يحكمها ملك واحد، فوصل إلى ذلك بجده واجتهاده وعزيمته التي لا تفل كما هو معروف في التاريخ.

وأمام هذا تمثال آخر على ربوة عالية هو تمثال الخطيب السياسي المشهور «مازيني»، وهو مقام على باب حديقة تسمى «نجرو» غُرِست أشجارها وأزهارها فوق تل كبير من تلال جنوة، يصعد المتنزِّه إلى أعلاها في طرق متعرجة حتى يصل إلى أعلى نقطة فيها، فأشرفنا منها على سطوح مباني جنوة وحددنا مبانيها بالنظر المجرد، وشاهدنا الجبال العالية التي تحيط بالمدينة من خلفها والمنازل المدرجة من أسفل الجبال إلى أعلاها، فكان المنظر شيقًا تسر له النفس وترتاح لرؤيته العين. وفي هذه الحديقة طيور منوعة منها ما يسبح في جداول تسير بين الصخور، ومنها ما هو في أقفاص، كما توجد بعض الحيوانات الداجنة وغير الداجنة. وبها شلال جميل تنحدر منه المياه بقوة فيُسمَع لها دوي عظيم.

وجميع طرقاتها مظللة بالأشجار الباسقة، فيطيب السير والجلوس فيها، فجلسنا على مقاعدها الطبيعية من حجرية وخشبية كما جلس غيرنا من المتنزهين، وفي أعلاها دائرة جميلة دارت حولها المقاعد لجلوس الناس، بها عدة مصورين يأخذون صورة من يريد ذلك تذكارًا لزيارة هذه الحديقة، ثم خرجنا منها معجبين بحسن ترتيبها وتنسيقها فوق هذه الربوة العالية. ويقابلها من الجهة الأخرى حديقة مثلها، فهما يكتنفان الميدان من جهة والمباني والشوارع من الجهتين الأخريين.

ويتفرع من هذا الميدان ستة شوارع عظيمة سرنا في أحدها حتى وصلنا إلى الميدان الكبير، وهو ميدان واسع تحيط به العمائر الضخمة والمباني الفخمة، مثل البورصة ومصرف رومة وغيرهما من الحوانيت الكثيرة المكتظة بالسلع الغالية، وبه «جلاريا مازيني» وهي على هيئة شارع طويل مغطاة بالزجاج، فهي ليست في القامة والعظم مثل جلاريا رومة ونابلي، بها القهوات الفاخرة والحوانيت الغاصة بأنفس السلع.

(٣) خرستوف كلمب ومنزله

مقام لخرستوف كلمب تمثال عظيم في ميدان المحطة يراه الإنسان أول دخوله من باب المحطة إلى المدينة، أُقِيم وسط حديقة صغيرة فوق قاعدة عالية من الرخام الأبيض بزيه القديم، وقد ذكرتني رؤيته أعمالَه العظيمة التي قام بها من كشف «أمريكا» وإيجاد دنيا جديدة عادت على العالم بالفوائد الجمة، فكانت مورد رزق عظيم ومهجرًا لكثير من الممالك التي اكتظت بسكانها فهاجر إليها كثير من أهالي أوروبا وطاب لهم المقام فيها، وتغلبوا على سكانها الأصليين الحمر فاندمجوا فيهم وبتوالي السنين هضموهم فأصبح عددهم قليلًا جدًّا لا يكاد يُذكَر، وهم يشتغلون في أعمال الفلاحة، وقد أصبحت أمريكا بفضل اجتهاد الأوروبيين أغنى ممالك العالم ثروة وتجارة وعلمًا.

فالفضل كله يرجع إلى هذا الملاح الصغير الذي ذاق الألم وتجرع كأس الصبر في سبيل تحقيق فكرته، يقصد ملوك أوروبا يشرح لهم ما يجول بأفكاره ويطلب منهم المساعدة بإمداده بالرجال والأموال، فيردونه خائبًا فيعض بنان الأسف والحسرة نحو عشرين سنة، حتى قيض الله له أحد ملوك إسبانيا فأمده بما يحتاج لسفرته المشهورة، ثم رجع إلى قارة أوروبا مكللة أعماله بالنجاح، فتقاطر زوار العلم على هذه القارة حتى أتموا كشفها. ومع كل هذا فقد قام في وجهه الحساد وجعلوا عمله هذا معلومًا بالضرورة وفي إمكان البعض القيام به، وأعقبت ذلك مناظرة أمام حفل من الناس فكان من رده

عليهم أن أحضر إناء فيه ماء وبيضة، وكلف أحد مناظريه أن يجعل هذه البيضة على أحد طرفيها في ذلك الإناء فلم يمكنه ذلك، فأخذها خرستوف كلمب وكسر الجزء المدبب فيها ووضعها عليه فاستقرت، فقال مناظروه: في قدرة كل واحد منا أن يفعل ما فعلتَ، فأجابهم بقوله: ولكنكم لم تفكروا في هذا. ومع ذلك فقد مات مسجونًا ولم تُسَمَّ حتى القارة باسمه، بل سُمِّيت باسم رجل يُسمَّى «أمريك فِسْبُوس» قد كشف سواحل أمريكا الجنوبية. وقد قامت إيطاليا بتكريمه وأقامت له التماثيل العدة، حتى أصبح مفخرة إيطاليا في العالم كله.

وقد شُغِفت برؤية منزله الذي كان يسكنه صاحب هذه النفس التواقة لعظائم الأمور، كما شُغِفت بزيارة منزل دانتي الشاعر الإيطالي المشهور أيضًا، فسرنا من شارع إلى شارع ومن زقاق إلى آخر حتى وصلنا إليه فوجدناه في حي فقير جدًّا بجواره الأزقة والطرقات الضيقة والمباني الحقيرة، وهو منزل صغير لا يزيد طوله عن عشرة أمتار في ارتفاع عشرة أيضًا، واجهته لا تزيد عن خمسة أمتار، بابه مصنوع من الحديد، تعلوه نافذتان صغيرتان ليس به نوافذ غيرهما، وهو الذي كان يسكنه وهو ملاح صغير، ولم نجد من يسهل لنا زيارته من الداخل، ورقم هذا المنزل ٣٧.

وهنا تذكرت أن أعاظم الرجال من الصناع والعلماء والفلاسفة الذين سطعت أنوار معارفهم على العالم فاهتدى الناس بها إلى أمور معاشهم ومعادهم، نبتوا من مثل هذا الكوخ الحقير.

وقد رجعنا إلى فندقنا ونحن مسرورون من رؤية منزل هذا المفكر الجليل، وقد استيقظنا في اليوم الثالث من حلولنا في جنوة وهو اليوم الذي تُركب فيه الباخرة إلى وطننا العزيز، ولم نعمل فيه شيئًا سوى تجهيز حقائبنا وإعداد أنفسنا إلى السفر. وبعد إتمام المعدات ذهبنا إلى الميناء لنعرف محل رسوِّ الباخرة فعرفناه وعرفنا ميعاد قيامها، فاتفقنا مع أحد الحمالين على أن يأتي الفندق الساعة الثالثة بعد الظهر ليأخذ الحقائب إلى الباخرة.

ورجعنا نسير في الشوارع على غير هدى، فرأينا رجلًا في ناحية من شارع يبين للناس ما يهمهم من أمر مستقبل حياتهم بالنظر إلى وجوههم وأيديهم وعيونهم وقامتهم، ويقيد كل ذلك في ورقة عنده ويقدمها لمن يريد معرفة مستقبله مقابل ليرتين، فتقدم إليه شيخ طاعن في السن فأخذ يصوب نظره فيه ويصعده والرجل واقف أمامه كالصنم لا يتحرك، فكان موضع أضحوكة الواقفين فخجل ولما تسلم ورقته وضعها في جيبه، وبعد أن فرغ

منه أخذ ينادي بأعلى صوته بأنه يعرف المستقبل بوضوح وهو على مرأى من الشرطي ولم يتعرض له.

ثم ذهبنا إلى الفندق فتناولنا طعام الغداء، وانتظرنا الحمال حتى حضر وحمل الحقائب وسرنا خلفه لقرب الميناء من الفندق ولخوفنا من أنه ربما يكون حمالًا مزيفًا فنرجع من سفرنا بخفَّي حنين، ثم أتى حمالو الباخرة وتسلموها منه ونقلوها إلى حجرتنا مقابل عشر ليرات، وقد انتظرنا قيام الباخرة بفروغ صبر إذ تقوم الساعة الثامنة مساءً.

من جنوة إلى نابلي

لما حانت الساعة الثامنة مساءً أقلعت بنا الباخرة من ميناء جنوة تقودها باخرة صغيرة، وهنا ظهرت المدينة بجمالها البديع إذ تراها ملفوفة بالأنوار المتألقة الصاعدة بعضها فوق بعض حيث تتدرج المنازل المشيدة على سفح الجبل، مما صيرها تشبه مدينتَي رجيو ومسينا ليلًا، فوقف المسافرون في طرقات السفينة ليشاهدوا جمالها الرائع، وقد ظهر لنا أنها مشيدة على قوس من الجبل يحيط بالميناء الواسعة، فكان لهذا المنظر هزة في النفس وروعة في القلب. ولما خرجت السفينة من الميناء تلوت قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾، فسارت تمخر عباب البحر، فجلست على كرسي استأجرته عند قيام الباخرة لأرى ضواحي المدينة الممتدة على مسافة بعيدة فوق التلال، ولأرى الأضواء تملأ الفضاء ضياءً وجمالًا، حتى وافت الساعة التاسعة والنصف مساءً، وقد كانت الباخرة تسير بهدوء وقد سرني ذلك كثيرًا، فذهبت إلى مضجعي لأريح نفسي من تعب اليوم، فنمت هذه الليلة هادئًا وقمت مبكرًا منشرح الصدر حيث لا اهتزاز ولا أمواج، لأن البحر كان رهوًا ساكنًا كالحصير تتجعد مياهه تجعدًا خفيفًا.

في صباح اليوم الثاني تناولت طعام الإفطار وجلست على كرسي أكتب مذكراتي، فجلست بجواري سيدة تلوح عليها مخايل الحشمة والوقار وطلبت مني مِبراة بلهجة عربية فسُررت بذلك وأعطيتها المبراة، فكانت واسطة التعارف. وقد أخذنا نتجاذب أطراف الحديث في شئون شتى، وعن أغرب ما شاهدناه من أخلاق القوم ورقي آدابهم في معاملاتهم واجتماعاتهم ومناظر البلاد التي تجمعت فيها محاسن الطبيعة، وغير ذلك مما يُعَد نموذجًا حسنًا لعلو الآداب وبلوغها درجة تقرب من الكمال، فألهاني حديثها عن مشاق السفر ومتاعبه وقتًا طويلًا، وقليلٌ في السفينة من يتكلم باللغة العربية، فكانت سلوتي عند شعوري بالمضايقة. ومما زادني ائتناسًا اتفاق هوانا في الحنين إلى رؤية

أولادنا الصغار، وكانت أشد مني شوقًا كما هي عادة الأمهات، وتتمنى أن تطير لترى فلذات كبدها، فكنت أشاطرها ذلك، وقد علمت من خلال حديثها أنها سورية متوطنة القاهرة من زمن بعيد. وكانت السفينة تسير محاذية للشاطئ فظهرت المدن الإيطالية المشيدة أكثرها على المرتفعات، وبرزت الطبيعة بأبهى جمال وزينة، فكانت تسلية لقلوبنا وراحة لأفكارنا. وعلى الجملة فقد كان سير الباخرة سارًّا ونسيم البحر يهب فينعش قلوبنا ويحيي أفئدتنا فتتسرب إليها القوة والنشاط.

ولما حان وقت الغداء اجتمع من في الباخرة حول المائدة كأسرة واحدة يزينها إشراق الفتيات الجالسات بينهم، وكل شخص له مقعد معين لا يتغير مدة السفر، ولا يجلس عليه غيره ولو لم يحضر صاحبه.

ومما لفت نظرنا على المائدة أن سيدة ألمانية تصحب زوجها كانت تأخذ كمية كبيرة جدًّا من الطعام الذي يُقدَّم لنا ويقلدها في ذلك زوجها، مما لفت نظر جميع الآكلين، وقال صاحبي مازحًا: «إن من تكون هذه زوجته لا بد أن تهدد دخله.»

وقد رأيت شابًّا يلاحظني ذهابًا وإيابًا، ثم حياني وجلس بجواري وسألني بأدب: هل حضرتك فلان؟ فقلت له: نعم، فأعاد التحية وقال: إني كنت تلميذك، وأنا طالب الآن في مدارس ألمانيا، وأريد قضاء العطلة الصيفية في بلدنا بين أهلي وأقاربي. فسُرِرت به وحادثته عن حالة ألمانيا النفسية، فشرح لي كثيرًا من أخلاق أهلها مما يدل على علو تربية هؤلاء القوم.

وقد ظهر لي من كلامه أنهم لا يزالون يحافظون على قوميتهم، وما زال يحادثني حتى افترقنا عند العشاء، ثم عاد إليَّ بعد تناول الطعام ومعه طلبة من ألمانيا من سيليزيا العليا، لا يزيد سن أكبرهم عن سبع عشرة سنة، وعرفني بهم فملئوا عيني نورًا وقلبي سرورًا، وقلت: هكذا تحيا الأمم بأبنائها العاملين، سبعة طلاب اصطحبوا ليروا أخلاق وعادات الأمم المجاورة لهم فاخترقوا النمسا وسويسرا وزاروا أغلب بلادهما ثم زاروا أكثر مدن إيطاليا، وقد استمروا معنا حتى آخر ميناء إيطالية تخرج منها السفينة إلى الإسكندرية، لباسهم كلباس الأجناد، تلوح على وجوههم علامة الجد والنشاط والذكاء. فعجبت كل العجب لسماح آبائهم لهم بهذا السفر الطويل وتركهم يعتمدون على أنفسهم في اختراق هذه الممالك والبلدان، حتى يربوا فيهم ملكة الاعتماد على النفس في كل أعمالهم، لا يرهبون السفر والتجوال في مشارق الأرض ومغاربها إذا دعت الضرورة لذلك، فيشبون رجالًا مستقلين عاملين يعتمدون على أنفسهم في مباشرة أعمالهم. فمتى يصل أبناؤنا إلى معرفة هذا المعنى من الاعتماد على النفس، وحب الحَلِّ والترحال طلبًا للعلم أو المال.

ولو أحسنت وزارة المعارف صنعًا لشجعت طلابها على الرحلات العلمية، بأن تعطيهم مساعدة مالية وترسل معهم من يكون خبيرًا بأحوال تلك البلاد ودرس كثيرًا من آثارها ومتاحفها وعاداتها حتى يرشد الطلبة إرشادًا كافيًا، فيكون ذلك أفيد وأقوم لنفوسهم من هذه المعلومات الجغرافية التي تشحن بها أذهانهم من غير أن يعرفوا لها معنى، بل مجرد ألفاظ تُتلَى عليهم فيحفظونها ليكتبوها في ورقة الإجابة ولا تترك أثرًا في النفوس. فمتى عرف تلك المشاهد والمناظر والمتاحف تصغر قيمة نفسه في نفسه، ومتى رأى عظمة المدنية والحضارة وأثرها في مدينة لم يأخذ عنها في علم تقويم البلدان إلا أنها حاضرة مملكة كذا وأن عدد سكانها كذا وهي مشهورة بكذا ... إلخ؛ علم أنه لم يعرف عنها شيئًا، وهذا ما جربته في نفسي.

ولقد كنت أعتقد أن جميع الأراضي كأرض مصر مدحوة، فإذا جلها تلال وجبال ووديان، ولم أشاهد سهلًا متسعًا إلا سهل لومبارديا في إيطاليا وجزءًا من شمال فرنسا. ويكون من المفيد جدًّا دراسة علم تقويم البلدان بالسنما (الخيالة)، حتى تُعرَض تلك المناظر الطبيعية بجبالها ووديانها وأنهارها، فتتكون لدى الطلبة معلومات حقة حصلوا عليها بالمشاهدة، فيكون الطالب كأنه جاب تلك البلاد ورآها رأي العين، وإن كان هذا غير كافٍ ولا يقوم مقام المشاهدة بالنفس والعين.

ولقد كان هؤلاء الطلبة الألمانيون موضع إعجابي واحترامي، ولما كانت هيئة ملابسهم تدل على فقرهم، وعلموا من الطالب المصري المتأنق في ملبسه أنه ينكر عليهم هيئة ملابسهم؛ أجابوه بأنها ملابس أُعِدَّت للسفر لا للتزين ولا للتنعم مع ملء الجيب ذهبًا، فوجدت الإجابة حسنة تدل على عدم حبهم للظهور والغرور، وأنهم شبان أعمال ومعارف لا شبان أزياء وخلاعة.

ثم افترقنا للنوم فنمت مستريحًا واستيقظت الساعة الخامسة والنصف صباحًا، وصعدت إلى سطح الباخرة فرأيتها قد أشرفت على ميناء نابلي وظهرت مبانيها الجميلة، وكان ذلك يوم الخميس الساعة السادسة صباحًا. فيكون ما قطعناه بين جنوة ونابلي ليلتين ويومًا في أحسن ما يكون من الهدوء وملاءمة الجو.

دخلت السفينة الميناء رويدًا رويدًا فظهر بركان فيزوف الثائر دائمًا، وظهر دخانه الذي انعقد فوقه فكوَّن عمامة بيضاء يظنها الرائي طبيعية. ورأيت زورقًا بخاريًّا قصد السفينة وارتبط معها بحبل متين واقتادها حتى قربت من المرسى، فأدار مؤخرها إلى البر ومقدمها إلى البحر حتى لا تُضطَر عند السفر إلى الاستدارة فتلاقي صعوبة. وبعد رسوِّها صعد الخدم ينادي كلٌّ باسم فندقه كالعادة.

وقد أقبل النساء اللائي ينتظرن أقاربهن وأحباءهن، وعند التلاقي أخذت القبلات تُتبادل والدموع تتساقط، مما يدل على طول الغيبة وكثرة الشوق ولواعجه.

فهاج هذا المنظر بلابلي وملك التأثر عليَّ مشاعري وكادت تسقط لذلك عبراتي، وتذكرت في هذا الموقف قول الشاعر يصف حالهم:

هجم السرور عليَّ حتى إنه　　　من فرط ما قد سرني أبكاني

ونزل الركاب الذين يقصدون مدينة نابلي وغيرهم ممن يريدون التفرج حيث ستبقى الباخرة في الميناء يومين، ولما كنت قد مكثت في نابلي مدة ورأيت أهم ما فيها، فضلت البقاء في الباخرة بقية اليوم على الخروج منها، واكتفيت وأنا بالباخرة بمشاهدة المنازل والجبال والضواحي مما يظهر من الميناء واضحًا جليًّا، حتى حان وقت الغداء فتناولناه. وبعد أن استرحنا قليلًا صعدنا فوق ظهر الباخرة، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث مع من تعرفنا بهم حتى المساء.

ولما أصبحنا قمت من نومي نشطًا، فجاءني صاحب عرفته بالباخرة يعرف العربية والطليانية جيدًا، وعرض عليَّ أن أذهب معه لزيارة المدينة فلبيت طلبه وجلنا في أغلب شوارعها، وشاهدت بها ما لم أشاهده من قبل من تماثيل ومتاحف، رأيت جامعتها ضخمة البناء مزدانة شرفاتها بالتماثيل الكثيرة الجميلة، يحيط بها من الخارج بناء على شكل نصف دائرة، ورأيت متحف الآثار به من التماثيل والصور ما يجل عن الحصر، خصوصًا ما استخرجوه من مدينة بومبي وأحضروه بحالته الطبيعية سواء أكان مأخوذًا من الحوائط أم مستخرجًا من أرضها، ثم دار البلدية والشرطة وهي بناء عظيم، أمامها أكبر ميدان غُرِس بالأزهار الجميلة، أُقِيم فيه تمثال يمتطي جوادًا على قاعدة مرتفعة من الرخام لأحد ملوك إيطاليا، وغير ذلك من المناظر الجميلة.

وقد التقينا بالطلبة الألمانيين في أحد شوارع المدينة فساروا معنا، وفي أثناء السير وجدت طالبًا منهم اخترق الشارع بسرعة ووقف أمام رجل برهة من الزمن ثم عاد يحمل ورقة، فسألناه عن عمله هذا فقال: إني حصلت على إمضاء أكبر ممثل إيطالي في السنما (الخيالة)، فلما وقع نظري عليه عرفته أنه هو الممثل الكبير فرجوته أن يسمح لي بإمضائه، وهذه أكبر هدية أقدمها لأهلي في العودة إليهم. فقلت: ما أدق ملاحظات هؤلاء القوم حتى الصغير منهم! وما قيمة هذه الإمضاء التي سُرَّ بها هذا السرور واعتبرها أنفس هدية يقدمها لأهله؟! إن للقوة معاني ورموزًا لا نفهمها ولا نعيرها التفاتًا، وصلوا

إلى درجة عظيمة في الملاحظة الدقيقة ومعرفة قيمة ما يعملون وهو في نظرنا لا اعتبار له، وما يدريك أن هذه الإمضاء ستكون لها قيمة فنية كبيرة على ممر الدهور والأعوام كما رأينا مثل ذلك في المتاحف المصرية؟!

ثم رجعنا إلى الباخرة لتناول طعام الغداء، وعند الساعة الرابعة ازدحمت السفينة بالركب المسافرين إلى قطانيا أو إلى مصر. ومن الذين نزلوا بالباخرة حضرة الشاب المهذب محمود بك عبده قنصل مصر في نابلي، ومعه محمود عارف الذي قيل عنه إنه سافر ليقتل دولة سعد باشا في باريس فقُبِض عليه في ميناء نابلي في شهر يوليو، وبقي مسجونًا إلى شهر سبتمبر حتى تمت المخابرة بين مصر وإيطاليا بشأن تسليمه، لأنها كانت تتمسك بعدم تسليمه في مقابلة عدم تسليم الطرابلسيين الذين التجئوا إلى مصر وأطلقت سراحهم وزارة سعد باشا، ولم تسلمه إلا بعد أن طلب هو العودة إلى مصر، ومع ذلك فقد أنزلته في السفينة التي قدم بها حرًّا والقنصل المصري قبض عليه داخل الباخرة، فسافر معه محمود بك إلى آخر ميناء إيطالية ووكَّل بحراسته جنديًّا مصريًّا.

وقد قابلت هذا الطالب وحادثني في شأنه كثيرًا، فاستنبطت من حديثه أن خروجه من مصر كان لخلاف بينه وبين والده، وأثبت ذلك بحوادث كثيرة دلت على اضطهاد والده له حتى كان سببًا في خروجه من وظيفته التي كان يتقاضى منها مرتبًا حسنًا، وليس في حديثه ما يدل على أن في طبيعته حب ارتكاب الجرائم لأن حديثه كان غاية في الصراحة، وكان يصحبه شيء من الأفكار الساذجة.

ولقد كان يسخط على الحكومة المصرية لاتهامه بما هو بعيد عنه بُعد السماء عن الأرض، ولأنها عرقلت مساعيه في عدم الحصول على بغيته بما كان معه من الدراهم التي ذهبت أيام سجنه، وقد وصف حالة سجن نابلي ومعاملة المسجونين فيه مما يدل على نهاية القسوة وخشونة المعاملة بدرجة لا يتصورها العقل.

من نابلي إلى قطانيا

أقلعت بنا الباخرة من ميناء نابلي الساعة السابعة مساء، وربما كانت أعظم ميناء في إيطاليا، وكان موعدها الساعة الخامسة مساء، فظهر لنا جمال المدينة وبرز نورها الساطع المدرج فوق سفوح الجبال والتلال كنظيراتها مما تقدم وصفه في مدن إيطاليا، وبعد أن غادرت الباخرة الميناء ظهر بركان فيزوف بلهبه الأحمر العجيب، وظهر الطريق الموصل إلى قمته بنوره المتلألئ كأن الكهرباء فيه عقود الجمان، قامت بتنظيمه وتمهيده شركة كوك الشهيرة في العالم، فالسياح يقصدون زيارة فيزوف ليلًا ليمتعوا أنفسهم بهذا المنظر البديع خصوصًا أيام الصيف، وليتناولوا طعام العشاء على قمته، وكثير من الأمريكان يفعلون ذلك. وقد ذكرت في رسائلي السابقة ما يقوم به كوك من تسهيل السياحة على السائحين من كل وجه، فله الفضل الجزيل على جميع سائحي العالم.

وفي هذه الليلة هاج البحر وماج فاضطربت الباخرة وأخذ أغلب الركب الدوار، وقد تعبت جدًّا من الدوار فذهبت إلى حجرتي على أن أستريح، ولكني لم أنم لما لحقني من الألم وبعد مدة نمت نومًا متقطعًا حتى الساعة السادسة صباحًا، فخرجت من حجرتي وأخذت أسير في طرقات الباخرة، وإذ ذاك ظهر بركان استرامبولي الذي وصفته فيما تقدم من الرسائل. وبعد تناول الإفطار جلست على كرسي لأكتب مذكراتي إذ حضر حضرة محمود بك عبده، فأخذنا نتجاذب أطراف الحديث في شئون شتى حتى الساعة العاشرة صباحًا، فلاح لنا مضيق مسينا فوقفنا في طرقات الباخرة لنمتع الطرف بجمال جباله العظيمة والأشجار الكاسية سفوحها.

ويُرَى المضيق من بُعد أن ليس به منفذ لانزوائه خلف الجبال، وكلما تقدمنا ظهر لنا جزء منه حتى انكشف لنا جميعه فكان له منظر بهيج لاكتناف الجبال له من الجانبين، والمنازل مبعثرة ومجتمعة فوق سفوح الجبال. ومما يلفت النظر في هذا المضيق شيئان:

(١) رأيت عمودًا من الخشب على الشاطئ يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثين مترًا تقريبًا في أعلاه رجل، قد علمت أنه يراقب طول اليوم سمك التونة الذي يكثر وجوده في هذا المضيق، وبالقرب منه على الشاطئ عدة قوارب، فإذا ظهر السمك على سطح الماء عيَّن إلى نوتية القوارب محل ظهوره، فيخرجون بسرعة ويحيطون بهذا السمك الذي لا يستمر محتجبًا تحت الماء، ويضربونه بآلة عندهم جُعِلت لذلك فيغوص تحت الماء ولا يلبث إلا قليلًا حتى يظهر فيضربونه مرة أخرى، ولا يزالون به حتى يميتوه ويخرجوه فيكون لذلك عندهم رنة فرح، لأن جزءًا كبيرًا من الناس تتوقف أرزاقهم على صيده والتجارة فيه، وهذا السمك عظيم الجثة وقد يبلغ طوله نحو خمسة أمتار. وإذا تعب المراقب حل محله آخر، ويكون سخطهم عظيمًا إذا لم يظهر هذا النوع من السمك كما أخبرنا من يعرف ذلك.

وقد رأينا المنازل الجميلة المنتثرة فوق الجبال وسفوحها، وقد جُدِّدت بعد خراب مدينة مسينا بزلزال سنة ١٩٠٦، فمنظرها غاية في الجمال، وكلها مركبة من طبقة أو طبقتين خوفًا من حدوث الزلازل فتؤثر فيها وتهدمها. وقد رأينا بالمنظار المعظم أطلال المنازل التي هدمها هذا الزلزال وجعلها بالية.

وقد غُرِست أشجار الفاكهة وكروم العنب بكمية وافرة على سفوح الجبال وهي تنمو هناك جيدًا. وقد ظهر لنا من الشاطئ الأيسر مدينة رجيو التي مر وصفها عند مرورنا بهذا المضيق ليلًا.

(٢) رأيت أن قُطُر السكك الحديدية عندما تصل قادمة إلى هذا المضيق تنزلق بركابها في بواخر أُعِدَّت لذلك، وتسير وسط هذا المضيق الواسع حتى تصل إلى الشاطئ الثاني، ويتبع هذا القطار نحو أربع عربات بركابها وبضائعها حتى يسهل عليهم المسافة ولا يتحملون مشاق نقل الأمتعة إلى البواخر وإخراجها منها، فلا يشعرون أنهم يجتازون بحرًا، ومتى وصلوا إلى الشاطئ الثاني انزلقت هذه العربات إلى القضبان وسارت في طريقها. وقد رأيت بالمصادفة هذه البواخر تحمل العربات سائرة أمام باخرتنا فعجبت لهذا التسهيل الغريب.

أما ركاب الدرجة الثالثة فيُنقَلون إلى الشاطئ الآخر بالبواخر كالعادة المتبعة.

وقد استغرق سير السفينة في هذا المضيق نحو ساعة ونصف ساعة، لم نجلس فيها لنمتع الطرف بمحاسن الطبيعة التي تجلت في هذا المضيق والجبال المحيطة به. وعند الساعة الثالثة والنصف أخذت السفينة تدخل ميناء قطانيا حتى رست على الشاطئ الساعة الرابعة، فنزلنا منها يصحبنا حضرة محمود بك عبده وكنا خمسة، ركبنا عجلة أوصلتنا إلى فندق يُسمَّى «برستول» فأودع القنصل حقيبته فيه وسرنا معًا في أكبر شارع في المدينة يُسمَّى «استسكوري»، وهو شارع متسع تسير فيه المركبات الكهربائية في الوسط، وله طواران واسعان تسير فيهما الناس ذهابًا وإيابًا، وكله غاصٌّ بالدكاكين الحافلة بالسلع والبضائع المنوعة. وقد أدى بنا السير فيه إلى ميدان واسع أُقِيم فيه تمثال عظيم يعلو قاعدة من الرخام، يحيط به عدة تماثيل أخرى ترمز كلها إلى معاني الحرية عندهم، فأخذ أحد أصحابنا صورنا الشمسية لتكون تذكارًا لزيارة تلك المدينة، ثم أخذنا نسير ونتفرج على ما في الدكاكين من البضائع إلى أن وصلنا إلى حديقة تُسمَّى «فلابليني»، فدخلناها فوجدناها غاية في حُسن الترتيب والنظام والتنسيق رُصَّت طرقاتها بالحصى الملون كحديقة الحيوان عندنا.

ويرى الداخل في مدخلها نافورة عظيمة تصب ماءها في بحيرة جميلة دارت حولها المقاعد لجلوس المتنزهين، غُرِست أشجارها وأزهارها على تل مرتفع يسير الإنسان في طرقاتها صاعدًا متعرجًا حتى ينتهي إلى أعلاه، فيرى مظلة الموسيقى غُطِّيت بالزجاج الملون الجميل نُسِّقت حولها الكراسي والمقاعد، وبه تماثيل كثيرة محيطة بفناء واسع، وقد أُخِذت صورنا الشمسية فيه.

وبهذه الحديقة نافورات صغيرة ترمي مياهها على زرع عريض الأوراق على هيئة نقط متفرقة فتسقط عليها وتسيل كأنها اللؤلؤ المنثور، فأوقفنا هذا المنظر الجميل ردحًا من الزمن.

ومن هذا المكان تشرف على سطوح المنازل وعلى الجبل المحيط بجزء من المدينة المكسو سفحه بأشجار الفاكهة المتنوعة، فكان المنظر شهيًّا أغرانا أن نقف نتأمل في محاسنه نصف ساعة. ثم خرجنا من هذه الحديقة عائدين في شوارع أخرى.

وقد أدى بنا السير إلى ميدان واسع يحيط به مبانٍ ليست ضخمة يُسمَّى ميدان «الدومو»، به نافورة وسط حوض تصب فيه وفي هذا الحوض قاعدة مرتفعة عليها تمثال فيل أُقِيمت فوقه صورة مسلة وكل هذا يكوِّن منظرًا غريبًا، وفي هذا الميدان أكبر كنيسة لهذه المدينة.

وقد تبينت وجوه القوم فرأيت أنها في ألوانها أميل إلى وجوه المصريين، نساؤهم بعيدون عن الخلاعة والتبرج كما أنهن لا يستعملن الأصباغ إلا قليلًا.

والحركة في الشوارع ليست مثلها في المدن الإيطالية الكبيرة. والمدينة جميلة، بعض مبانيها على نظام خاص يخالف مباني المدن الإيطالية الأخرى.

ثم رجعنا إلى الباخرة إذ كانت الساعة السادسة والنصف مساء لتناول طعام العشاء، ننتظر قيام الباخرة الساعة التاسعة مساء، وقد تأخرت عن موعدها نصف ساعة، وعند إقلاعها من الميناء وقف الركب في طرقاتها ليرى منظر المدينة من البحر ليلًا، فظهرت بأنوارها الساطعة التي كشفت ربواتها للناظرين، وهي تشبه بعض الشبه مدينة جنوة.

ويجدر أن أذكر بمناسبة تأخير قيام الباخرة عن موعدها أنني رأيت مواعيد القُطُر والبواخر في إيطاليا مضطربة، فلم تقم باخرة أو قطار في ميعاده المحدود إلا قليلًا. وقد سألت حضرة محمود بك عبده عن سبب الإخلال في المواعيد، فأجابني بأن الحالة كانت أشد من هذا بكثير لاضطراب الحالة السياسية حتى صار الإخلال بالنظام من لوازم العمال، وقد تحسنت الحالة كثيرًا أيام موسوليني بعد أن كانت الفوضى ضاربة أطنابها، وكل شخص في إيطاليا الآن يشعر بالتحسين الكبير في كل شيء، ومع هذا فإن بعضهم يقومون في وجهه ويودون إبعاده عن الحكم لأغراض نفسية وحزبية، وقد اتخذوا مقتل «ماتيوتي» النائب الاشتراكي الكبير الذي كان يعارض كثيرًا في سياسة موسوليني سلاحًا يحاربونه به ليصلوا إلى أغراضهم، وقد نجحوا بعض النجاح في ذلك وغيروا نفوس بعض الشعب على موسوليني. وقد رأيت وأنا بمدينة ميلانو التي هي مدينة العمال صورة «ماتيوتي» معلقة على جدران حوائطها مكتوبًا تحتها «ليحي ماتيوتي!» مما يدل على تغير النفوس من حكم موسوليني، وكل هذا وهو قابض على أزمَّة الحكم بيد من حديد ويهدد أعداءه في خطبه بجيشه العظيم. وقد انتشر جنود الفاشست في كل مكان حتى في المحطات يراقبون الناس مراقبة شديدة في الدخول والخروج، يسهلون لهم أعمالهم ويمنعون الغش والرشوة التي لا تزال باقية إلى الآن وإن كانت قليلة جدًّا بالنسبة إلى الحالة الأولى.

وقد حدثت مظاهرات كبيرة ضد موسوليني والفاشست في مدن إيطاليا مثل نابلي وغيرها عندما عثروا على جثة «ماتيوتي» مهشمة، وطلبت امرأته أن تنام بجواره ليلة قبل دفنه، فرجاها الفاشست في أن تمتنع عن هذا خوفًا من تهييج الشعب فقبلت ذلك بعد مشقة كبيرة. ولكن ما لبثت الحالة أن رجعت إلى ما كانت عليه وأمكنه أن يتغلب على أعدائه.

وموسوليني محبوب عند أكثرية الشعب ويعدون أيامه أيام إصلاح ونظام، ولو لم يكن ذلك ما تسنى لموسوليني أن يسيطر على شعب عريق في المجد والتاريخ بقوة جيشه وسلاحه. وقد عرفنا من تاريخ الأمم ما يعزز ذلك الاعتقاد وأن الأمم لا تُحكَم إلا بإرادتها، لأن مدة الظلم قصيرة مقامة على غير أساس وعدل مهما هدَّد صاحبها وأوعد. والتفريق سبب من أسباب طول مدة الظلم، كما أن الاتحاد قوة لا تهي وسبب من أسباب تقلص ظل الظالم.

ونقول إنه لو نزع كل منا ما في صدره من غل وحقد، وباعد ضميره عن بغض الغير وحب الانتقام والتشفي، وجعل غرضه خدمة وطنه خدمة حقة، وتعاون الناس جميعًا في الوصول إلى هذا الغرض؛ لما كان ما نحن عليه الآن من التباغض والتنابذ، والتقاطع والتدابر، حتى فتحنا ثلمات كثيرة في صفوفنا ولجها العدو بسهولة وفرقنا أيدي سبا، وأتى على البقية الباقية من اتحادنا ونحن لا نعتبر ولا نتعظ، بل غشَّى بصائرنا وطمس على قلوبنا حب الانتقام والنكاية، فذهب ريحنا وحقت علينا كلمة العذاب والخِذْلان.

فاللهم قيض لنا من ينقذنا من هذه الهاوية المظلمة، ويهدينا إلى سواء السبيل، حتى لا نُحرَم من إشراق شمس الحرية التي يتعشقها كل كائن حي حتى الطيور في سمائها والسموك في مائها!

من قطانيا إلى الإسكندرية

أقلعت بنا الباخرة من ميناء قطانيا الساعة التاسعة مساءً، فوقفنا في طرقاتها لنرى منظر المدينة ليلًا فظهرت ربواتها العالية مجللة بالأنوار المتألقة تشبه في منظرها العام مدينة جنوة، وما زلنا نراقبها وضواحيها حتى توارت عنا فقصدنا مخادعنا، ونمنا مستريحين حتى أصبح الصباح فرأيت البحر ساكنًا هادئًا فحمدت الله على ذلك، وجلست على كرسي أستقبل نسيم البحر العليل لا أشعر باهتزاز ولا اضطراب. وقد أصبحنا بعد أن أقلعنا من ميناء قطانيا بين السماء والماء لا نرى جبالًا ولا مدنًا ولا جزرًا كما كنا نراها من حين إلى آخر من جنوة إلى قطانيا، لأن الباخرة بينهما كانت تسير قريبة من الشاطئ فكانت تمر بتلك المناظر التي تؤنسنا، أما الآن فلا إذ نحن متوجهون إلى الإسكندرية فلا ترسو الباخرة إلا في مينائها.

وقد كنا كل يوم نتعرف إلى جملة من الركب في الباخرة من المتوطنين مصر وجلُّهم من إيطاليا فكان الاجتماع شهيًّا، وقد أصبحنا كأسرة واحدة نجلس على المائدة ضاحكين مسرورين.

وفي صباح اليوم الثاني لنزوحنا من مدينة قطانيا هب الهواء شديدًا فعلت الأمواج سطح البحر وظهرت الرغوات البيضاء، وتحركت الباخرة وأخذت تعلو وتهبط وتميل يمنة ويسرة، ولكنها لم تخشَ صولة البحر بل أخذت تشق لها طريقًا بين الأمواج الهائلة مما جعلها تندحر أمامها، وهذا ثاني منظر رأيته مخيفًا والأول في بحر المنش، ومع اضطراب السفينة لم يحدث للركب هلع ولا ذعر.

ثم لاحت لنا أشباح جزيرة قنديا الساعة الثانية وما زالت تقترب منا حتى كنا الساعة الثالثة أمامها، فبرزت جبالها الشامخة يتقطع عليها السحاب، وتلالها المرتفعة المكسو بعضها بالحشائش والأشجار.

وقد رأينا منها الجزء الصخري المجاور للبحر الذي ليس به بلاد ولا سكان، وقد علت الأمواج واضطرب البحر أثناء مرورنا بالجزيرة مما غيَّر البحر عما ألفناه في عودتنا، وقد أخبرنا ربان الباخرة أن هذه الأمواج ستهدأ الساعة السادسة مساء وقد كان ذلك، فإنها بعد هذه الساعة أخذت الأمواج في الهدوء والسكينة حتى انمحت عند ذهابنا إلى النوم.

وقد أذكرتني رؤية هذه الجزيرة «فنزيلوس» الذي لعب بسكانها وببلاد اليونان دورًا مهمًّا وأظهر دهاءً كبيرًا، فانتشر ذكره حتى بلغ آذان ملك اليونان فاستدعاه ليكون وزيرًا له ومشيرًا، فنال عنده وعند عامة الشعب منزلة سامية وعاهد الملك على أن يخلص له ويساعده. وقد طرأت على بلاد اليونان حوادث لم يفز فيها كثيرًا، فخرج من بلاده متجولًا في فرنسا وإنكلترا ليجد له جوًّا صالحًا يبذل فيه المساعي ضد تركيا، فتمكن من تحريض إنكلترا عليها حتى يتصيد في الماء العكر، ونتج عن مساعيه وقوع الحرب بين اليونان وتركيا بعد أن أخذ وعدًا صادقًا من إنكلترا بإمداد بلاده بالمال الكافي، ولكن الزمن لم يحقق حلمه إذ تغلب الترك على اليونان وكسروهم شر كسرة تُعَد من أعاجيب الحروب وفنونها.

فلما رأى أن سياسته كانت شرًّا ووبالًا على بلاده فرَّ مع زوجته وابنه إلى فرنسا بعد أن أخذ كثيرًا من المال مما يجعلهم في بحبوحة وخفض العيش، وترك بلاده تقاسي آلام نتيجة أعماله وظهر لهم مقدار البلايا والرزايا التي جرها عليهم، فكرهوه ونقموا عليه بعد الاحترام والتقديس، وساد الاضطراب والاختلال بلاد اليونان وقامت الثورات المتعددة إلى الآن ولا يُعلَم ماذا تكون نتيجة أمرهم.

وقد استمرت السفينة تسير أمام الجزيرة إلى الساعة السابعة ليلًا. وهي شهيرة بتصدير الصابون المسمى باسمها، وكذا العسل والفواكه والزيتون، ولها تجارة كبيرة في هذه الأنواع مع مصر.

ولقد كان أغلب ركاب الباخرة على جانب عظيم من الأخلاق وحُسن الحديث وحب الألفة، يمازح بعضنا بعضًا رجالًا ونساءً فتياتٍ وفتيانًا.

ومما لفت نظري أن شيخًا إيطاليًّا تتدلى لحيته إلى صدره طويل القامة واسع العينين جميل المحيا حلو الحديث، وإن كانت الأيام قد محت سواد شعره، تصحبه ابنته العذراء. هذا الشيخ كان يدعو ابنته للعزف على المعزف (البيانو) وهو يرقص بين الحاضرين على نغماته ويوقعها بفيه، فكان مظهرًا من مظاهر التسلية والمجون، كما أنه كان يتولى

العزف ويكلف ابنته الرقص ويدعو بعض الفتيات إلى ذلك، فكانت كل واحدة تقوم بدورها مما جعلنا في سرور عظيم.

وقد كان ذلك موضع الغرابة عندي لأني لم آلف أن رجلًا مهما بلغت به خفة العقل أن يرقص أمام ابنته وهو في هذه السن ولا في غيره، كما أنه لا ينبغي له مهما كانت الظروف والأحوال أن يكلف ابنته الرقص أمامه وأمام الحاضرين، ولكن للقوم عادات وحالات ليست لنا، ولهم حياة في أسرهم لا يسمح الشرقي لنفسه بها، لأنه يعتقد أن ذلك يذهب بجلاله واحترامه أمام أولاده وزوجه، بل يجعلهم يحطمون الفوارق والآداب الواجب اتباعها أمامه، وهذا هو اعتقادي.

إذا كان رب الدار بالدفِّ ضاربًا فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

وأرى، ولكل شخص رأيه، أن الآداب في الأسر الشرقية أرقى منها في الأسر الغربية.

وفي اليوم الثالث قمت من نومي نشطًا مسرورًا وصعدت فوق ظهر الباخرة فوجدت الهواء بليلًا والنسيم عليلًا فارتاحت نفسي لذلك، لأنه لم يبقَ على الوصول إلى مدينة الإسكندرية إلا هذا اليوم وليلته.

وفي هذا اليوم تعرفت بشاب عراقي يسكن بغداد جاب أكثر ممالك أوروبا، يُسمَّى «جورج يوسف عذاريا»، فقد قضى فيها خمسة أشهر، وهو من الشبان الأذكياء.

وقد حدثني عن العراق من وجهة التعليم فقال إن أهله ليسوا على جانب كبير فيه، وإن الأمية ضاربة أطنابها، وإن جزءًا كبيرًا منهم باقٍ على بدويته، يسكنون الجبال والخيام، بعيدين عن كل مدنية وحضارة وليس عندهم ميل إلى التعليم.

أما الحالة السياسية هناك فبعض أهل العراق يرغبون في بقاء الإنكليز في بلادهم، خوفًا من تطلع الأمم المجاورة إلى بلادهم، خصوصًا الترك وقد ذاقوا مرارة حكمهم القديم، حتى يشتد ساعدهم ويقوون على القيام بشئون أنفسهم ويكوِّنون لهم جيشًا يمكنهم أن ينتفعوا به عند الطوارئ، عند ذلك يسعون في التخلص من الإنكليز واستقلال بلادهم.

فقلت له هيهات أن يتخلصوا من ناب الإنكليز إذا كانت هذه أفكارهم، لأن الإنكليز أعطونا أكثر من ثلاثة وستين وعدًا لم يبروا في واحد منها، ولو بقي جندي إنكليزي واحد في العراق أو في مصر لاعتُبِرتا محتلتين. كما حُكِي عن «جحا» أنه أراد بيع بيته واشترط على الشاري أن يبقى له ملك مسمار في البيت فامتنع الشاري عن شرائه، ولكن كثيرًا من الحاضرين قالوا له: ماذا عسى يصنع هذا المسمار حتى تترك فرصة شراء البيت؟! فاقتنع

بكلامهم واشتراه، ولكن جحا كان يزور مسماره كل يوم وقت الغداء والعشاء فيزاحم أهل البيت مزاحمة أضرت بهم، فكلمه صاحب البيت في هذا فأجابه بأنه يتمتع بما له من الحق الذي اشترطه لنفسه، فلا يجد الرجل سبيلًا إلى التخلص منه، ولما ضايقه اضطُرَّ إلى الخروج من البيت وتركه له.

فقال: نحن نعلم ذلك، ولكن ما الحيلة وهم متوغلون في كل شيء؟

فقلت له: أما نحن فلسنا تاركين لهم أمرنا ولو زعموا لأنفسهم أن لهم عندنا ألف مسمار.

وقد حدثني أن أفراد الأمة العراقية لا يرغبون في مفارقة أوطانهم ليروا عجائب أوروبا وأمريكا، ولم يُظهِر الرغبة في ذلك إلا أفراد يُعَدون على الأصابع، ويمكن أن أكون أول شخص ساح هذه السياحة الكبيرة في بلاد أوروبا، وسأنشر ما علمته عن تلك البلاد متى رجعت إلى بلادي حتى أولد فيهم حب الهجرة والسياحة، لأن فوائدها أجل من أن تُحصَر، ولا يعرف ذلك إلا من عالجها وعلم ما فيها من الفوائد الجمة والعلم الغزير والاطلاع الواسع والفضل الكبير.

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

وهذا الفتى مراسل لجريدة فرنسية وإنكليزية وعربية وجريدة الهلال بمصر كما أخبرني بذلك.

وقد نمنا ليلتنا هذه التي يعقبها صباح الوصول إلى الإسكندرية فرحين مستريحين، ثم قمت مبكرًا فرأيت طيورًا بيضاء تطير قريبة من السفينة، فقلت: يا ألله! كأنها طيور «خرستوف كلمب» التي دلته إلى قرب النجاة والوصول إلى أمنيته، وهي كذلك دلتنا على قرب وصولنا إلى وطننا العزيز المفدَّى. وما وافت الساعة السادسة حتى لاحت لنا من بعد مدينة الإسكندرية، فوقفنا في طرقات الباخرة لنرى منظرها الجميل من البحر وكيفية دخول الباخرة الميناء حتى دخلتها الساعة السابعة صباحًا، وهنا رأيت الزوارق قد أحاطت بالباخرة ناشرة الأعلام المصرية ترفرف فوق الطرابيش الحمراء التي حُرِمنا رؤيتها زمنًا طويلًا، وهي تحمل الأطباء الذين يقابلون ربان الباخرة ليعرفوا منه ما في السفينة من مريض وصحيح، ومعهم ضباط الشرطة يتسلمون أجوزة الركاب ويعلمونها دليلًا على السماح لهم بالنزول من الباخرة مقابل شيء من النقود.

ولما رست الباخرة غصَّت الميناء بالمنتظرين، وأخذت المناديل تلوح من الجانبين ونحن ننظر إليهم. ثم رجعنا إلى داخل الباخرة منتظرين إعلام أجوزتنا، وبعد الانتهاء

من ذلك سُمِح للمنتظرين والحمالين بالصعود إلى الباخرة، وهنا اختلط الحابل بالنابل واشتغل كلٌّ بنفسه، وافترق الأحباء الذين اجتمعوا بالباخرة زمنًا، ولبث كلٌّ يشيع الآخر بنظرات تشف عن أسف وانتهاء مدة السرور والاجتماع، ويبحث عن الطرق التي تسهل له الخلاص إلى المكس، وقد يبحث الإنسان عن حتفه بظلفه.

رأيت في مكس الإسكندرية ما لم أره في مملكة من الممالك، رأيت العطل كثيرًا والبحث دقيقًا، لا يكتفي العامل بما يراه أمامه في الحقائب بل يبحث بحثًا دقيقًا في كل ما تحمله من حقيبة وصرة وحذاء، فيقلب ما معك رأسًا على عقب فيفكك أوصاله ويباعد بين أجزائه ويسألك عن الثمن الذي اشتريت به، وإذا لم يرق له الثمن الذي رصدته في قائمة جُعِلت لذلك في المكس أخذ ما معك من الأشياء مبعثرة مفككة مفرقة، وعرضها على مثمِّن بالمكس أُعِد لذلك يحدد لها أثمانًا كما يشاء ويختار. وتمكث في انتظار وأخذ ورد نحو ساعتين حتى تسأم نفسك، وتكره أن تأتي بهدية لأولادك أو أقاربك من المشقة التي لا تراها في غير مكس الإسكندرية، مع قلة الذوق في المعاملة والجفاء في المخاطبة.

والويل لمن لم تكن لديه وصية يحملها لمستخدمي المكس، فإنه يقاسي الآلام ويعاني الصعاب. فإذا خلصت من هذا وقعت فيما هو أنكى لما يُفرَض عليك من ضريبة الحمالين التي لا تطاق والتي لا تتناسب مع عملهم، فإذا لم تسلم بها بادئ ذي بدء مكثت تحاول معهم مستحيلًا وتترقب مجيرًا، يجتمعون عليك كاللصوص فلا تخلص من يدهم حتى تدفع ما طلبوه صاغرًا وإلا حجزوك طول يومك، وتشعر شعورًا تامًّا بأنك لم تصادف طول سياحتك في الممالك والبلدان ما صادفته في ميناء الإسكندرية. وبعد الانتهاء من هذا كله ركبنا أول قطار قام من الإسكندرية إلى القاهرة فرحين بسلامة العودة.

هذه أيها القارئ الكريم نبذة عرضناها على مسمعك الشريف، ونظن أننا قد أبرمنا عليك في مشاهدات قد يكون فيها ما لا يتناسب مع رأيك، ولا يتصل بشعورك، ولا يمتزج بوجدانك، ولكننا رأينا أن نعرض أمامك ما شاهدناه كما يعرض البائع سلعه، لتكون متناول الأنظار فيختار منها الشاري ما يشاء. ونحن وإن كنا نعتقد أن بضاعتنا غير موفورة، ولكن تشجيعًا للعاملين من أهلينا قمنا بهذا الواجب على ضآلته.

وإنا نستودعك داعين الله سبحانه وتعالى أن يوفق كلًّا منا إلى خدمة بلاده بما يستطيع! والله المستعان.

هنداوي